صبريانا

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ ـ ٢٠١٨م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٨/١١٧٩٢

بطاقة فهرسة

مسعي ، فضيلة

صبريانا: رواية/ فضيلة مسعي، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٨

٣٢٠ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٥-١٤٦-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

عمرو الحو

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق والإخراج

أحمد البسيوني

صبريانا

رواية

فضيلة مسعي

الإهداء

إلى روح الذي شربتُ عصير حبّ الوطن من كفّه، والدي العزيز أحمد الصّغير محمدي. بلسم جروحي، ومرآة وجهي، تغمّده الله برحمته الواسعة وأسكنه فراديس جنانه.

إلى الذي أهداني زهرة لأخبئها في كتابٍ ورحل...

مشاكسة

عُذرًا أيّها القارئ الكريم سأحوّل وجهتك لزمن وجيز قبل قراءة الرّواية. ما رأيك؟

الطّقس جميل هنا. تفضل هذا فنجانك.

فقط اِغفر لي لأنّي سأمارس معك تقنية المحو في الكتابة.سأقفز إلى رُدهات ذاكرتك. سأفرشُ أوراقي لتتراقص حروفي وكلماتي وبعض أفكاري ولتغضب وتبكي وتهدم وتبني..

جميل جدًّا أن نحلم، لكن الأهمّ أن نركب كبسولة الزّمن ونحلم أحلام أبطال أحلامنا هذا هو الأجمل. الحياة يا صديقي حلم كبير، إن تناولناه بالقراءة نجده مجموعة أحلام مترابطة في شكل سلسال ذهبيّ بعدّة حلقات. كلّ حلقة من السّلسال تمثّل حلماً بذاته، لإنسان منفرد، أو مجموعة بشريّة، أو لمجتمع بأكمله.

كلّ حلم يعيش بعض سابقه وبعض لاحقه. تمامًا كحلقات السّلسال الذهبّي الذي حدثتُك عنها. كلّ سلسال مكوّن من ثلاث مساحات صغيرة. مساحة من الحلقة التي سبقتها، ومساحة من الحلقة التي تليها، ومساحة بين المساحتين لها وحدها. تلك هي الإضافة الذّاتية في حلقات الحلم. هذه هي رواية صبريانا..

هل استمتعت كما فعلت بفنجان القهوة؟ هنيئًا ..

المؤلّفة

ف.م

تنتهج رواية (صبريانا) أو (صبري-أنا) منحًى جديدًا للرّواية العربية الحداثية .حداثية في لغتها وحبكتها ومزاوجتها بين المعيش اليوّمي والخيال المجنّح في العجائبي والسّريالي. هي رواية حلم الحلم. انطلقت من إطار جامد لتستوعب واقعا جغرا-إنساني واسع، بتعدّد أماكنه وتعدُّد قصصه وتعدّد شخوصه وتعدّد مواضيعه وتنوّعها.

نقطة الاهتمام في الرِّوائية طرافتها في تحريك وتوظيف الشّخصيات. إذ إن الشّخصية الرّئيسية الحقيقية والمحرّكة للأحداث لم تظهر إلّا في أربعة أو خمسة سطور مقسّمة بين البداية والنّهاية. شخصية راوية الخزرجي تفتح أحداث الرّواية ثم تغيب ولا تظهر إلّا لتختمها. تخلّت ظاهريًّا عن دورها لفائدة شخصية بالنّيابة عنها(صبريانا) أو(صبري-أنا) ترأسّت الأحداث. راوية الخزرجي هي الشّخصية الرئيسية المستترة. أمّا صبريانا فهي الشّخصية المتصدّرة لدور البطولة في الرّواية.

طرحت الرّواية منظورًا جديدًا للعلاقة المتوتّرة بين المثقّف والسّلطة، ولا سيما إذا كانت هذه السّلطة غاشمة وإمبريالية تمثّل حضارة تدّعي أنّها جاءت

لخير البشرية. فأمثولة الحضارة الغربية التي تجرّدت من معانيها السّامية والأخلاقية والإنسانية يمكن أنّ نتعامل معها في هذا النصّ السّردي .لا مسافة بين الواقع والفنتازيا التي تمظهرت في حبكة وأحداث هذه الرّواية. كشف النّص عن مأساة إنسانية عاشها الشّعب العراقي تحت الاحتلال الأمريكي .

نستطع أن نسمّي هذه الرّواية، رواية حبٍّ وسلام. من أوّل سطر رفعت شعار السّلم الاجتماعي والحب.٣النصُّ دعوة للتّعايش الجميل. دعوة لنبذ الفرقة وإحياء إنسانية الإنسان. دعوة لبعث العراق الذي يسوده الحبّ وتسوده الطمأنينة. فتقنية الإطار أو ما يسمّى قصّة داخل قصة جمعتها الرّوائية بطريقة سريالية. نلمس تحكّما بفنتازيا سلطة الضّوء على معاناة عاشتها الشّخصية الرئيسة المتصدّرة للأحداث (صبريانا) بالنّيابة عن راوية الخزرجي.

النصّ مُراوحَة ما بين الحلم وأحلام اليقظة، وما بين الذّاكرة والحاضر المأساوي. فكل مشهد وحدث في هذه الرّواية يقدّم لنا رؤية جديدة لوجه آخر من الحياة الواقعية التي كان وما يزال يعيشها الشّعب العراقي. كلّ أحلام صبريانا كانت تتبلور حول ناظم الذي تركها ومات وما كان يريد

منها، وما كانت تريد منه. الرواية تَرجَمت لحظة اليأس التي عاشتها هذه المرأة وهي ترى تحوّلات كبيرة وغريبة وعجائبية تمرّ بالعراق. تحوّلات كان لها الأثر الكبير في انعطافها نحو البحث عن أمل أو طوق نجاة يجنّبها المشكلات التي وجدت نفسها محاطة بها. كلّ أحداث الرّواية تسير في مسار المنولوج الدّاخلي وحلمها وأحلام يقظتها.

لوحة المرأة القارئة هي في الأصل ذاتٌ ساردة لحدث أصلي ومعاناة مرّت بها كل امرأة عراقية وعربية. فكلّ معاني الإنسانية المتناقضة يمكن أن نجدها شاخصة في فعل الشخصيات وردة فعلها. الفضاء الرّوائي عبارة عن سفينة العراق التي كان قبطانها أجنبيًّا مُحتلًّا. حاول هذا القبطان أن يروّض الشّعب العراقي ويستعبد الإنسان العربيّ عن طريق زرع الفتنة الطّائفية، والعرقية، أن يرقص على إيقاع الاقتتال الدّاخلي بين أطياف شعب مثّل فسيفساء خارطة الوطن العربي. فشخصية صبريانا تجسّد صبر كلّ عراقيّ وعربيّ على واقعه المرير. فتهجين هذا الشّخصية بين جينات عراقية، وتونسية هو تعبير عن اللُّحمة العربية والصّبر العربيّ الواحد . حيث تمسكت صبريانا بأرض العراق ولم تهاجر إلاّ في اللّحظة الأخيرة كما تمسّكت بعروبة تونس وبعروبة العراق.

فالمعاني السياسية وخيوط اللّعبة الماكرة للسياسة الأمريكية جرّدتها هذه الرواية من قشرتها وصورتها الجميلة .كاشفة عن زيف الحقيقة البشعة وجوهرها التي كانت تتقنّع بها السّياسية الأمريكية .فالنصّ السّردي لهذه الرّواية لم يشوّه الواقع لكي يقيم بدلًا عنه يوتوبيا الخيال. يوتوبيا عكست الواقع على طريقة المحاكاة الأرسطية، فكان الواقع مُشوَّهًا بالأصل .ففنتازيا الواقع العراقي وبجميع متناقضاته تبعث على السّخرية. القاتل لا يعلم لما قَتل، والمقتول لا يعلم لما قُتل.كلّ الشّخصيات في هذه الرّواية تحاول أن تعيش حلمها وأملها بالغد على طريقتها. فشخصية جوري عاشت الحياة بوصفها جنسًا ومتعة، وشخصية جمال كانت متردّدة بين حبّ عذري تجاه صبريانا، وحبّ أيروسي تجاه جوري التي كانت تتأرجح ما بين الوفاء والخيانة. أمّا هامشية زيدون ونمطية حياته فقد كانت روتينًا لحياة مملّة يعيشها أكثر الشّعب العراقي. ومن المفارقات الدّرامية العجيبة التي تبلورت في هذه الرّواية مفهوم الشكّ الجيني. فأبناء صبريانا كلّهم لا يرتبطون بحبل سُرّي وجيني واحد، فكلّها جينات مُعدَّلة اجتماعيًّا، أو مُهجّنة بيولوجيًّا بين التّلقيح والتبنّي .

ولا شكّ أن بطلتنا اللّوحة القارئة التي كانت تحاول بذاتها السّردية أن تنهي روايتها لصبريانا في كلّ مرّة، قد نجحت أخيرًا في إنهاء روايتها. فكانت

ضريبة الختام أن تهاجر صبريانا خارج العراق. فالنصّ الرّوائي قدّم لنا بدوره خاتمة أخرى في تقنية الإطار ارتبط بفتاة كانت تحلم حلم يقظة مثل راوية، فقد كان اسمها راوية الخزرجي. راوية التي ظنّت أمّها أنّها كانت تعاني انفصامًا بالشّخصية. على خلاف أمّها لم يَرَ الطّبيب أنّها مريضة، بل مبدعة تحلّق في سماء خيالها باحثة عن الحقيقة الجمالية المطلقة للأشياء.

فالرّواية بكلّ ما تحمله من خيال وأسلوب جميل، وتقنيات الفلاش بك، وأحلام اليقظة وتقنية الإطار. تستحقّ أن تكون نجمة مضيئة وساطعة في سماء الإبداع العربي. كنت في بداية الأمر عند قراءتي لهذه الرّواية ... أتصوّر أنّي سوف أقرؤها بملل أو كسل، ولكن عندما أغرتني اللّغة، وأغراني الأسلوب والمزج بين تقنية الفنتازيا، والسّريالية من جهة والمعاني الإنسانية التي انصهرت في أحداث الرّواية من جهة ثانية، أُخذت كقارئ بسحرها. وجدت نفسي أغرق في بحر لغتها. أبحث عن صَدَفَة النّهاية وجوهرها التي لم تكن نهاية للرّواية، إنّما هي نهاية لكلّ بلد عربيّ. هي صورة لواقع الشّخصية العربية ما بين الحياة، والموت، أو العزلة، والهجرة.

الناقد د. محمود خليف خضير الحياني

الموصل / العراق

الفصل الأوّل

الباب الأول:

حُلم الحُلم

النّوافذ نهمة في أكلها لحم المارّة. نورٌ خفيف ينبعث من جهاز شاشة صغيرة معلّقة على حائط غرفة نوم أحد ساكني البناية المقابلة. الأبواب موصدة. بيتها بارد وحزين. المنضدة الرّخامية على يسارها بقاعة الجلوس تئنُّ من تكدّس الكتب وفناجين القهوة التي عليها.

واقفة أمام النّافذة ترصد حركة الشّارع في الأسفل، جنّحت بها أحاسيسها في أحلام اليقظة قرابة عشر دقائق. عشر دقائق كانت كافية لأن تعيش ما هو مختلف عن واقعها المأزوم. هي راوية الخزرجي الشّابة العراقية ذات السّبعة عشر ربيعًا. من جيلٍ قُدّر له ألَّا يعرف الجمال إلَّا في الأحلام.

عند بوّابة الحلم التقيتُ رَاوِيَة. تعارفنا وسألتني عن اسمي، قلتُ على عجلٍ:

-صبريانا.

كنتُ مشغولةً بمُداعبة لوحة مفاتيح محمولي، أنصتُّ إلى نقرات حروفه وهي تصمّم ملابس للمتطوّعين من أبطالي، وأنْصِبُ منصّة شرفيّة لمن سيحضر حفل توقيع روايتي القادمة. طوق الياسمين تحسّسته على رقبتي، رائحة تبغ المدعوين لفحت أنفاسي. بريق كبير لأعين كثيرة انقضّ كوحش

على بصري فغشاه. همسات بعضهم أو بعضهن، فرحة المقرّبين وحسد الكائدين. مشروبات غازية متنوّعة الألوان، وعصائر فواكه كاذبة. أطباق حلويات تفنّنتُ في تنسيقها. قالب بخمسة طوابق وبطعم الفستق الحلبيّ وجميع المكسّرات التي أشتهيها. الكريمة البيضاء كفساتين الملائكة متراقصة على الكعكة الكبيرة المعتلية طاولة مغطّاة بقماش زهريّ جميل. قاعة فسيحة تطلّ على مرج أخضر وزهور هنا وهناك. كان الحفل بهيًّا، ومهيبًا.

حَضَرَ مَن دعوتُه ومن لم أدْعُه، تلقّيت عديدًا من التّهاني وسمعتُ عبارات التّنويه. عتب البعض على تركيزي على هذا ونسيان ذاك. ههه.. كدتُ أغوص وسط باقات الزّهور .

الكلّ يحسبني سعيدة وفرحة. لكن أين أنا من السّعادة المزيّفة التي أُضفيها على ملامح وجهي؟ أنا قلقة جدًّا، حزينة جدًّا حدّ الإجهاش بالبكاء. أواصل شدّ رباطة جأشي بصعوبة بالغة. أوزّع ابتسامات صفراوية، وهمهمات صارت ميكانيكية لكثرة ما ردّدتها بوعي وبدون وعي.

انتظرتُه، انتظرت بريق عينيه، انتظرت ابتسامته التي تلفّني عطفًا وحنانًا. انتظرتُ وجهه البشوش الأسمر، الذي تشعّ منه الشّمس لتدفّئ مفاصلي ساعة البرد والزّمهرير. انتظرتُ هدوءه الذي يمنحني الثّقة بالنّفس ويمنحني الاتّزان. وأنتظرُ هديّته البسيطة المتواضعة الُتي تعادل كلّ ما تكدّس أمامي من الهدايا.

هل يأتي؟ هل يفعلها؟ أم سأنتظر أكثر؟ ربّما قد لا يأتي؟ ربّما أنتظر وَهمًا؟ أمن المعقول أن يكون قد حصل لي ذلك؟ لعلّه حصل؟ وإذا حصل أيمكن أن أكون سليمة المدارك العقلية؟ أم كلّ ما يحصل لي يدلّ على أنّني وصلت إلى شفير الهاوية وحافّة الجنون؟

فطنتُ إلى أنَّني الأخرى قد جنّح بي الحلم وأنا التي جاءت من أقاصي حلم راوية الخزرجي. وتمتّعت راوية ببداية مشوّقة لقصّة. لعلّها عَجِبَتْ مثلي ممّا يحصل. كيف يمكن لبطلة حلم أن تحلم بدورها؟ وكيف يمكن لسيّدتي راوية الخزرجي التي منحتني الحياة بحلمها أن تعرف بحيثيات هروبي. وبحيثيات انعتاقي منها ومن حلمها ليكون لي حلمي الخاصّ؟ ههه..كيف لي أن أعرف حلم الحلم؟

أنا مجرّد فتاة حلمٍ تحلمُ بدورها، أسمتني راوية الخزرجي صبريانا، هربت من حُلمها إلى حُلميَ الذّاتي، إلى حُلم لي وحدي. تركتها على الرّكح تشاهد ما يحدث.

وأنا أتخيّل القصّة، تدلّت خصلة من شعري الفاحم الطّويل أمام عيني، فأرجعتُها إلى الخلف في محاولة لطيّ صفحة من الضّياع والارتباك والرّيبة.

كم هو واسع خيالي وكم ملكة الإبداع لديَّ شاسعة. ما زلتُ بالأسطر الأولى من رواية «اِمرأة تعشق جثّة». وهأنا أتخيّل اِكتمالها وطبعها وحفل

توقيعها وصدى تلقّيها عند النّاس وهي لم تكتب بعد. كم أنا لجوجة؟ ألا يعرف الصّبر طريقه إليَّ؟

قمت من على الكرسيّ الذي أمام جهاز الحاسوب. أشعلت فانوس الغرفة ووقفت في مواجهة وجهي أمام المرآة أطلب مشورته. فإذا به يسعفني بأبيات للشّيخ ناصيف اليازجي:

" يا بائع الصّبـر لا تشفق على الشّاري
فدرهــم الصّبـر يسوى ألف ديــنار
لا شيء كالصّبـر يشفي جُــرح صاحبه
ولا حــوى مثــله حــانوت عـطّار
هذا الذي تخمد الأحــــزان جرعته
كبــارد المــــاء يــطفئ حـــدّة النّار
ويحـفـظ القــلب بــاقٍ ســلامـته
حـتى يبــدّل إعســـــار بإســـار
سيفتـح الله بــابًـا ليــس تعــرفـه
ومنهــجًا غـــير ملــحــوظ بأبصار
إذا قطعنا رجاء النّفس من فرج
فإننا قــد قطـعــنا رحمـــة الــباري "

بعد هذه الدّرر أصاب مرآتي العمى، ولم يعد باستطاعتي رؤية وجهي. شددتُ بإصبعَي الإبهام والشّهادة على ذقني بتأسّف. بصوت عالٍ وأمام المرآةصرختُ في الفضاء المطبق حولي:

-صبريانا متى تخرجين من هذا المونولوج العقيم؟ دعيني أعش واقعي ولا أعترف إلّا بالملموس. بل أقول كما قال الشّيخ ناصيف اليازجي:

"سيفتح الله بابًا ليس تعرفه
ومنهجًا غير ملحوظ بأبصار
إذا قطعنا رجاء النّفس من فرج
فإننا قد قطعنا رحمة الباري "

نور الله الذي في القلب والرّوح هو الذي سيدلّني إلى الرّشاد. سيدلّني إلى ذاتي المتسرّبة مني كما يتسرّب الزئبق من اليد. وكما يتسرّب الماء من بين الأصابع. يا إلهي! كم أحتاج مصالحة مع نفسي! كم أحتاج سلامًا داخليًّا وأحتاج أن أومن بالمسلّمات الرّياضية التي درست:

أليس أ+ ب= ج

أ-٠ = أ

ومهما نخلط الزّيت مع الماء، فالماء يبقى ماء والزيت يبقى زيتًا، ولا سبيل لتمازجهما. إذ لا مجال للاحتمالات ولا مجال للانتظار. عليَّ أن أكتب روايتي

أوّلًا، وعليَّ ألَّا أنتظر ناظم عندما أقيم حفل توقيعها وأدعو المدعوين من أهل الذّكر والأصدقاء. سأكتوي وحدي بنار غيابه كما أكتوي بها يوميًّا، وكما اكتويتُ بها سنينًا.

لكن إن حضر يوم توقيع الرّواية سيعلم الجميع أنّ الموتى لا يموتون، ولا يغيّبون. وأنّ التّراب الذي يغطّيهم، مجرّد لحاف شفّاف ينظرون من ورائه باستخفاف وسخرية إلينا. كما يشعرون بالشّفقة علينا من أوهامنا التي تلبسنا ونلبسها في كلّ الأوقات. وحدي أعرف قصّة الموتى وعالمهم، وكيف أتواصل معهم، وأبني جسرًا واصلًا بين عالمهم وعالمنا.

نظرتُ خارج الغرفة، تحت النّافذة مباشرة، إلى شارع فسيح وطويل، شارع المتنبّي الشّهير. شارع نفائس الكتب، والمخطوطات، والتظاهرات الثقافية المتعدّدة. الشّارع الذي بوضعه الجديد أصبح من المضحكات المبكيات في وطننا الجريح. أصبح يضجّ بذوات الكعب العالي. وبرائحة التّبغ وقوارير الجعة على الضفّتين، وبالعلكة الملتصقة ببقايا أسفلت متبقّ في بعض حفر الطّريق. ولا ننسى قطع قصدير السيّارات التي فُخّخت وانفجرت وقتلت الكثير في هذا الشّارع. أحرقت آلاف الكتب القيّمة والمخطوطات النّادرة.

أسفل شقّتي رأيت شيخًا في السّبعين من عمره أو يزيد، يرفع الغطاء عن كسكاس كبير به ما يفوق ثلاثين رأس غنم، ليتصاعد البخار وتنتشر الرّائحة

في المكان. يتأفّف البعض ويروق للبعض الآخر، في حين يمسح أحدهم لعابه مُخاطبًا زميله:

-لا شيء أشهى من الرّأس المفوّر والله نعمة من عند ربّي.

يبدو من هيئة هذا الشّيخ ولهجته أنّه من التّونسيين الذين عاشوا بالعراق زمن رغده، وعزّ عليهم فراقه بعد نكبته، أو هو ممّن تزوّج بعراقية وأنجب أولادًا عراقيين يرفضون العيش خارجه، أو هو ممّن فقد أوراقه الثبوتية وجواز سفره في أثناء الغزو.

أَكْلة الرّأس المفوّر التي يمدحها الشّيخ، خصيصة مغاربية، انتشرت خاصّة بالجزائر وتونس، ثمّ دخلت مطبخ ساكني بعض الدّول العربية منها العراق.

شعرتُ بالغثيان من الرّائحة القويّة. أغلقتُ النّافذة ومباشرة توّجهتُ إلى الثلاّجة، تناولتُ بطيخة صغيرة وسكّينا وشرعت في تقطيعها على شكل أهلّة، قضمتُ قطعة صغيرة واحدة لأُذهب عني ما شعرتُ به من غثيان، لكن البطيخة كانت شهيّة ومائلة إلى الحمرة، ذهبيّة كلون القمر المتلألئ الذي يزيّن سجّادة السّماء الزّرقاء، تناولتُ هلالًا كاملًا فثانٍ وثالث، إلى أن أتيت على كلّ أهلّة البطيخة المقسّمة إلى اثني عشر هلالًا. لم أتعمّد تقسيمها

على هذا النّحو، ولكن المصادفة أو ربّما التّشكيل الطّبيعي الذي على البطيخة هو الذي حدّد هذا العدد.

تعجّبتُ ممّا يحصل لي ولو من باب المصادفة، وتوصّلتُ سريعًا إلى حلٍّ للمعادلة بصوت مسموع:

-الحياة بطيخة، إذا كانت كريمة معنا يكون طعمها لذيذًا ومُغريًا بقضمها قطعة قطعة. والقطع أهلّة كأهلّة أشهر العام تتتالى إلى أن تنتهي السّنة ونُطفئ شمعة جديدة من أعمارنا. ونقول للطّفل كبرت، ونصنع له قالب الحلوى ونمطره بالهدايا، ونخفي أعمارنا عندما نصبح بالثّلاثين، ونصبغ الشّعر الأبيض إذا كنّا بالأربعين. ونخصم عشرة أعوام إذا كنّا بالخمسين، وعشرين إذا كنّا بالستّين.

المرأة شابّة أبدًا والشّيخ لا يتعدّى مرحلة الكهولة. الكلّ يكذب عند الحديث عن العمر. والكلّ يقول أتجمّل عندما يكتشف سنّه الحقيقية بمكتب الحالة المدنية، أو عند ضياع وثيقة هويّته، والعثور عليها من قبل جار أو قريب أو زميل في العمل.

لكن إذا كانت الحياة بطيخة، فالأرض التي عليها نعيش أيضا بطيخة، أظنُّ لها نفس الشّكل تقريبًا، من آدم إلى الآن الأرض مقاسم، وها هي

قارّات، ودّول، وأقاليم، ومحافظات، ومدن، وقرى، وأحياء، وحقول، ومنازل، وغرف، وقبور.

الحياة على الأرض تبدأ بقارّة فسيحة وتنتهي بقبر ضيّق مظلم لا يتعدّى وسعه الشّبر، من ضيق إلى ضيق ننتهي. تقذفنا أرحام أمّهاتنا التي نقبع فيها تسعة أشهر في وضع جنينيّ مقيّد الحركة نظرًا لضيقها، لنتوه على أرض واسعة فسيحة. نتناحر ونتقاتل على البقاء، لينتهي بنا المطاف في ضيقٍ أشدّ وهو القبر.

الآن فهمت ما قاله ابن مريم عيسى عليه السلام:

-" وَالسَّلَام عَلَيَّ يَوْم وُلِدْت وَيَوْم أَمُوت وَيَوْم أُبْعَث حَيًّا".. .

أظنُّ أنّ الحياة ما لها نهاية وهي حلقة دائريّة، موت فحياة فموت فحياة. من مات يُخلف، ومن يُخلف ما مات، ومن مات يُبعث حيًّا. لا يمكنني أن أعترض على ذلك، فهي مشيئة الله. فقط أشعر بالشّفقة على نفسي، وأنا حيّة أُرزق أنتظر ميّتًا، أنتظرُه لأحيا من جديد، قبل أن يضمّني قبرٌ وأنتظر بعثًا جديدًا.

أليس هذا الميّت الحيّ هو الذي أحياني أنا الحيّة الميّتة؟ لكنَّ إحياءه لي لم يكن إلَّا بعد أن ضمّه قبرٌ وواراه أهلُه وصحبُه وعشيرته التّراب. ألم يمنحني

بعد مماته بعشر سنوات ما انتظرتُه منه عُمرًا؟ أنا أحييته بقلبي وهو أحياني بوفائه ونطفته التي منحتني الرّغبة في الحياة. وكان ذلك الطّفل الذي يرقد بالمهد، وينتظر عدّة أهلّة وعدّة أشهر وعدّة أعوام ليكبر؛ لينجز أعمالًا، ويفلح الأرض، ويدرس، ويكتب، ويدوّن شهادة وفاتي بعدما أشيخ وأرحل، هذه هي الحياة. إنهّا كهذه البطيخة التي آكلُ ولا أشبع من أكلها. تمامًا كما نفعل عندما ننتظر رواتبنا آخر الشّهر ونتطلّع للشّهر القادم. ولا نفطنُ إلّا عندما نهرم ونشيخ وتزيد مديونيّتنا ويزيد فقر جيوبنا وفقر نفوسنا. هذا هو الشَّيء الذي لا نستطيع أن نتجنبّه، ولا أن نبتعد عنه، ولا أن نمنع أنفسنا من التفكير فيه.

على أيّة حال الكلّ في فلك يسير، والكلّ في خانة المجهول. قد يحضر ناظم وقد لا يحضر، المهمّ أن يحضر ابننا، ابنه، فهذا الشّبل من ذاك الأسد. في سرير برونزي صغير منقوش بالنّحاس، وتحت ناموسية من قماش الموسلين ينام صغيري أويس بهدوء. يرتاح لنومه على جانبه الأيسر كما كان يفعل أبوه. رغم محاولاتي المتكرّرة لينسى عادة النّوم على جانبه الأيسر فقط، حتّى لا يضرّ عينيه ولا يصاب بالحول.

ما أجمل شعره وهو يغطّي جبينه ووجهه الأسمر. ههه..كلّما مسحت على رأسه يضحك ببراءة مذهلة.

آه بني.. يا ابن الموت والحياة. أيمكن أن تقبلك عائلتي؟ وعائلة أبيك؟ هل ستتقبّل أنت حقيقة أنّك ابن شرعيّ وابن زوج مات من عشر سنين وعمرك الآن شهران؟ أنا تزوّجت أباك قبل وفاته بسويعات، وحملت بعد تسع سنوات من زواجي به ورحيله.

الحقيقة قد تصدمك وتصدمهم ولن يقبلها عقل ولا منطق. لكنّها حصلت بُنَيَّ، أنت ابني وابن ناظم الذي مات من عشر سنين.

آه...حياتي رحلة الآلام. بُنيَّ عليَّ أن ألفُّك ببطّانية صوفية، البرد قارس والزّوابع كثيرة هذه الأيّام. قد ترعد وقد تمطر وقد تفيض الحقول والوديان. وقد يهجم تسونامي ويتضرّر البعض ونفقد البعض ويعاني الآخرون ونسجّل ضحايا، ولكن لن يدوم ذلك طويلًا.

سينقضي الشّتاء وسيقبل الرّبيع، سيزهر شجر اللّوز والمشمش ليعانقا زهر الياسمين. عندها ستبدأ بالجلوس بُنيَّ، ثم ستحبو وتتعلّم حروفًا كثيرة، وكلمات قليلة، وستفهم أشياء كثيرة، وسأعرف أنّك كبرت عندما تبتسم في وجهي، وتقرأ ملامحه وأعرف أنّك أدركت أنّ الميّت يمكن أن ينجب الأحياء. أنت اِبن الميّت جئت تبعث في القوم الحياة بعد أن اِفتقد الكلّ معناها وافتقدناها. نحن ميّتون ولكن نأكل ونشرب ونتبرّز ككلّ الهوام، ومختلف فصائل الحيوان، نحن نموت كلّ يوم، وموتنا يراقب المشهد.

-بيب..بييب...بيب ..بيب.

-مهلًا أنا قادمة.

-بيب..أها..جئتِ أخيرًا.

أووه! مَن أرى؟ جوري وجمال! مرحبًا ..مرحبًا.

تأخّرت علينا صبريانا، الشّارع مكتظّ ولا نستطيع أن نركن السيّارة، لذلك أزعجناك وأزعجنا جيرانك بصوت منبّه السيّارة.

أعتذر لكما لم أسمع. كنت مشغولة بالدّاخل. كيف حالك جوري؟ كيف حالك جمال؟

نحن بخير.

(قال جمال وابتسمت جوري في رضا).

انزلا، سأفتح الباب الخلفي الكبير، اركنا السيّارة بحديقة منزل العائلة.

جمال في حزم:

-نعم، نعم، أسرعي. جئت وجوري خطيبتي لنبيت ليلتنا عندك. تعلمين نحن نسكن بالسّليمانية، وغدًا سنتبضّع قليلًا ما يلزم لجهاز جوري.

-مبارك لك يابن الخال، مبارك لك يابنة العمّة.

إغيييييييط..إغيييييط..ازززززززززززززززززز....ازرز.

-الباب يصدر أزيزًا مزعجًا من مدّة كبيرة لم يفتح. أبي وإخوتي سافروا إلى الدّنمرك كما تعلمان.

جوري وهي تسحب حقيبتها من السيّارة وتغلق الباب خلفها:

-نعتذر صبريانا لم نخبرك مسبقًا.

-لا لا، أنتما لحمي ودمي، حللتما أهلًا ونزلتما سهلًا.

سحبت جوري شعرها الفاحم الطّويل إلى الوراء لينسدل على كتفيها ويعطي لقوامها جمالًا وفتنة. تقدّمت خطيبها جمال لتدلُفَ إلى الباب الخارجي، ثم صعدت السلّم أمامي تتهادى في مشيتها وتتمايل.

-تشك..تشك..القدّاحة..لا تعمل..أووف.

(قال جمال).

-من معي وتبحث عن قدّاحة ههههههه.

(وهي تتخطّى آخر درجة بالسلّم وتضع رجلها اليمنى بعتبة باب الشقّة).

-هههههه على مهلك عليه..جوري..ههههه.

(وقد فوجئت بجرأتها).

-عزيزتي صبريانا، المرأة النّارية تكسب، الرّجال يحبّون امرأة كهذه هههه. لذلك تأخّرتِ بالزّواج. اعذري جرأتي، أنت بالخامسة والثّلاثين. الحقي القطار، ههه، أنت جدّية أكثر من اللّزوم.

مباشرة توّجهت إلى غرفة الجلوس وبخفّة ورشاقة جلست على الأريكة المقابلة للرّواق. هي في الثّانية والعشرين من العمر. حنطية البشرة، وسيعة العينين، دقيقة الجيد. أعطافها ككثيب، تتكلّم بدلال وغنج. حركة يديها كنوتة موسيقية، طلاء أظفارها مذهل الجمال. تضع أحمر قانيًا رسمته بعناية فائقة، فبدا فمها كحبّة فراولة.

عيناها مكتحلتان، ممشطتان بالماسكرا، على الجفنين وضعت خطّين أسودين عريضين. أمّا الحاجبان فهما كسيفين جميلي المنظر رسمتهما بعناية فائقة. جميلة هذه الفتاة، لا أعلم متى كبرت؟ متى تعلّمت كلّ هذه الأنوثة الفاتنة؟ أنا التي دارت العالم تقريبًا بحكم وظيفتي السّابقة مضيّفة طيران، أجد نفسي تلميذة بالابتدائية أمامها.

-أين القدّاحة؟

(جاءني صوت جمال من المطبخ).

جوري مشاكسة مرّة أخرى:

-قلت لك لا تبحث عنها بعيدًا هي عندي..هههههه.

دخل جمال قاعة الجلوس ودخان سيجارته يسبقه. الحمد لله أنّ أوّيس ينام بالغرفة المجاورة؛ لذلك لم أحرج جمال وقد دخل للتّو، جلس صامتًا قليلًا، وهو يجيل نظره في الغرفة.

قلت:

- خذا راحتكما سأجهّز لكما قهوة، البيت بيتكما، آه نسيت كيف تحبّانها؟

-إيطالية مركّزة مع سكّر مضبوط

(جمال).

-أنا أريدها مرّة.

(جوري).

فوجئت فهي صغيرة على السكّري، أشفقت عليها.

ابتسمتُ في وجهها:

- سلامتك جوري.

-هههه ما عندي سكّري، لكن أنا حلوة أكثر من اللّزوم أخاف أن أتكتّل..هههههه.

-هي هكذا دائمًا، لا تعرف للجدّ طريقًا، صبريانا لا تهتمّي لها.

-كيف لا أهتمّ جمال وقد طلبت قهوتها مرّة؟ عمومًا شباب هذه الأيّام له لغته الخاصّة، لا أفهمه مع إنّي ما زلتُ شابّة أيضًا.

تناولتُ القدّاحة من جمال وتوجّهت إلى المطبخ في الغلّاية وضعت ثلاثة فناجين من الماء. بعد غليان الماء، أضفتُ بضع ملاعق صغيرة من القهوة السّوداء الأصلية على الطّريقة الإيطالية.

صببتُ المرّة لجوري في فنجان سميك أبيض، ثمّ أضفتُ السكّر في الباقي، وصببتُ فنجانًا آخر لجمال. وضعتُ الاثنين في صحنين صغيرين ووضعت الكلّ في صينية من خشب الخيزران.

وأنا في طريقي إليهما سمعت عدّة ضحكات مكبوتة آتية من قاعة الجلوس. وبدُنوّي من باب الغرفة، كان صوت جوري جليّا،رنّانًا، رقراقًا كعسل مصفّى:

-كلّي تحت أمرك وحضني دفاك.

تنحنحت حتّى تصمت جوري الوقحة لكنّها تمادت، نظرتْ إليَّ بابتسامة خبيثة واقتربت منه أكثر واضعة يديه حول خصرها فطوّقه. نَسِيَاني أو تناسياني لا أعلم. أنا على إدراك تامّ أنّ جوري تتعمّد ذلك، مواصلة همسها:

-يالله أحسّ اللّيل طويلًا، وموحشًا، وباردًا من دونك يا حبيبي.

لم أسمع ردّ جمال لكنّه كان في غاية الانسجام معها. دنت منه أكثر، ألصقت صدرها بصدره. وقفت على رؤوس أصابعها ثمّ أغرقته في قبلة، غرقت أنا بعدها في ماء وجهي حياءً.

تظاهرت أنّني لم ألحظ شيئًا رغم نظرات جوري الماكرة، قلتُ بصوت عالٍ:

جمال، جوري، القهوة ستبرد.

-أعتذر صبريانا، هذه المشاكسة لا تهدأ.

-هه لا تصدّقيه صبريانا، هو الذّئب المخاتل.

-لا بأس، لم أشاهِدْ شيئًا.

(لأُجنّبهما الحرج).

قالت جوري:

-"إنّ العيون على القلوب شواهد
فبغيضها على القلوب بين وحبيبها
وإذا تلاحظت العيون تفاوضت
وتحدّثت عمّا تجنّ قلوبها
ينطقن والأفواه صامتة فما
يخفى عليك بريئها ومُريبها".

الباب الثاني:

اللّوحة القارئة

لجان أونري فراغونار

الثّانية بعد الزّوال كما أعلن عن ذلك بندول السّاعة الحائطية التي تذكّرني بموسكو وحضارتها. استحمّت جوري وتبرّجت، ولبست فستانًا شفّافًا، أسود اللّون. انتعلت حذاء أسود اللّون من الماركات الغالية، عاليًا جدًّا كبرج إيفل، كعبه كمسمار من الأسفل.

تأبّطت ذراع جمال معلنة الخروج:

–صبريانا لا تنتظرينا على العشاء، نحن مَدعوَّان من طرف صديق لنا. سنسهر عنده، قد نتأخّر، لا تقلقي.

أمّا جمال الذي استحمّ بدوره، وتأنّق، فاكتفى بابتسامة ولوّح لي بيده. ثمّ أخرجا السيّارة من حديقة منزل العائلة، وغابا في الزّحام وأنا أُشيّعهما بعينيَّ.

أُذّن لصلاة العصر، فأدّيتُ الفريضة، وسبّحت قليلًا، ودعوتُ الله أن يحفظ العراق وأهله. قبل أن آخذ راحة صغيرة، أخرجتُ الثّياب نّصف الجافّة من آلة الغسيل ونشرتُها على الحبل المثبّت على جدران السّطح. كان

العشاء جاهزًا لم أضطّر للطّبخ من جديد ذلك المساء. وبكلّ خفّةٍ، ورشاقة في الحركة، جهّزتُ لنفسي فنجان قهوة في آلة كهربائية قديمة، مُعدّة للغرض. اتّكأتُ على الأريكة، أرحتُ رجليَّ عليها. بحبّ كبير تلذّذتُ بقهوتي التي كانت نكّهتها بالبرتقال المبشور، وقطر الزّهر، وحبّة هيل مطحونة.

كانت شفتاي تلثمان الفنجان بسعادة، وفكري شارد مع لوحة على الجدار قبالتي. فكّرت بصاحبة الصّورة، بجمالها، ورقّتها، وتناسُق لباسها البرتقاليّ المهيب، وبشرتها النّضرة كطفلٍ في سنته الأولى. لا أعرف لِمَ كلّما نظرتُ إلى هذه اللّوحة انجذبت إليها وتمعّنت في تفاصيلها بإعجاب كبير؟

رهبة القرن الثّامن عشر تجتاح الحاضر في محاولة لأخذ تأشيرة سفر إلى المستقبل. الألوان الرّائعة والبديعة للمرأة الرّسم وللباسها. الأسلوب البارع في تحديد الأصابع الممسكة بالكتاب، الياقة العريضة ذات الانثناءات، والالتواءات، والرّداء الذي تحتها. قمّة في الإحساس، والدقّة وفي تمثيل المشهد بالرّيشة والألوان الزّاهية المتفائلة، هي لوحة منسوخة للفنّان الفرنسي جان أونوريه فراغونار.

هذه اللوحة تذكّرني بآخر سفرٍ لي إلى باريس. كنتُ في متحف اللّوفر.. كنتُ أمام الموناليزا الشّهيرة متأمّلة نظرتها السّاحرة الغريبة.على يساري

أخذت نوبة من السّعال إحدى الزّائرات، ممّا اضطرّني إلى التدّخل وإعطائها قنينة الماء الصّغيرة التي كانت بحوزتي، بيدٍ مرتعشة تناولت الفتاة القنينة وشربت جرعة صغيرة، ثم ثانية، فثالثة، لتتمّكن من التقاط أنفاسها من جديد. شكرتني بلغة إنجليزية. كانت شقراء ونحيفة، وجهها تغلب عليه الحُمرة مع نمشٍ، ملامحه حادّة بعض الشّيء.

قلتُ:

- هل أنت إنجليزية؟

ردّت بالنّفي بحركة من رأسها، خِلتُها حسمت بها أمر تواصلنا، لكنّها استدركت:

-أنا فرنسية- أمريكية. أبي من هذه المدينة باريس وأمّي من مدينة واشنطن. لكني عِشتُ في أمريكا، لذلك فرنسيّتي ضعيفة جدًّا، ولا أتجرّأ على الحديث بها في مكان عام كهذا.

بحشرية لا أدري من أين أتيت بها قلت:

- إذا أنت زائرة مثلي؟

وأسارير وجهها تنفرج قليلًا:

-أزور باريس كلّ سنة في مثل هذا الوقت وكما يقولون كلّ فتاة بأبيها متيّمة.

- أنتِ بنت أبيها.

-أحبُّه، وأحبّ أعمامي وعماتي، وكلّ أقرباء أبي، أعشق وطني الأمّ فرنسا وأهيم حبًّا بهذه المدينة الجميلة.أمّا عن اللّوفر فلي معه قصّة طويلة سببها هذه (مشيرة إلى لوحة بيدها) .اللّوحة القارئة للفنّان الفرنسي جان أونريه فراغونار. أرتني اللّوحة ففغر فمي لجمالها.

اللّوحة عنت لي شيئًا فريدًا لّما رأيتُها. لم أعرف وقتها ما هو؟ تبيّن سبب انجذابي إليها عندما اطّلعت على سيرة حياة أشهر رسّام فرنسي بالقرن الثّامن عشر.

جان أونوريه فراغونار، المسكين. عاش أواخر سنين حياته في الفقر، وفي التّهميش والنّسيان، ومات وحيدًا. لم يسأل عنه أحد، ولم يحفل بموته أحد. تسلّل من هذه الحياة لأنّها لم تقدّره ولم تحترمه، غادرها إلى الموت، وَحْدَه الموت خلّد فراغونار. مجرّد رسوم هو الآن على جدران اللّوفر، حياته ساوت خمس لوحات تكسب اللّوفر مالًا.

باريس تكسب مالًا ممّن أهملته وتناسَتْهُ. باريس التي أهملته حيًّا ها هي تعتني به ميتّا، لأنّها تكسب منه، وها هو اللّوفر الشّهير يخلّد ذكراه.

قلت:

-ما أعلمُه أنّ لوحة فراغونار هذه غير متوفّرة باللّوفر وأراها بين يديك؟

وهي تبتسم:

-هذا سرّي الصّغير الذي أتقاسَمُه مع باريس ومع اللّوفر، تعرفين أنّ اللّوحة القارئة التي رسمها هذا الفنّان، موجودة الآن في المعرض الوطني للفنون بواشنطن، خرجت من باريس كهدية من مالكتها. في حين أنّ مكانها الذي يجب أن تكون فيه هو هذا .أنا أزور اللّوفر منذ خمس سنوات وبانتظام في هذا الوقت من السّنة من أجلها.

وقد بدت لي الفتاة غريبة الأطوار، لكن واصلتُ تشجيعها على الفضفضة فأردفت:

- عرفتُ اللّوحة مصادفة على النّت، وعلمت قصّة فراغونار، وقصّة انتقال اللّوحة من باريس إلى أن استقرّت على أحد جدران متحف بواشنطن.

كنتُ كلّما ذهبت للمعرض الوطني للفنون بواشنطن أشعر بغربة اللّوحة، قطعت على نفسي عهدًا، بأن آخذ نسخة من اللّوحة القارئة كلّما سافرتُ إلى باريس وزرتُ اللّوفر.

فقلتُ مازحة:

- إذًا بفضلك تحج اللّوحة نسخًا كلّ سنة إلى اللّوفر.

-هههههه نعم تحجّ، فالقارئة لا تعني للأمريكيين سوى أنّها لوحة فاخرة، جميلة، يمكن أن تُباع في يوم ما بملايين الدولارات. أمّا هنا وعند الفرنسيين فتعني الكثير. إنّها تعني تاريخًا وحضارة وثقافة شعب، تعني فراغونار ونضاله وتهميشه.

كنتُ في كلّ مرّة أُهدي النّسخة عربون محبّة لأحد زوّار اللّوفر الشّغوفين بالفنّ. ونسختي هذا العام من نصيبك آنستي، خُذيها هي لك.

وقد عقدت المفاجأة لساني:

-شك..شكرًا لك، أنا حقًّا شاكرةٌ لك.سأحتفظ بهذه النّسخة الجميلة ما حييت.

أمضيتُ مع جانيت الفتاة المعتزة بفرنسيتها رغم نصفها الأمريكي وقتًا ممتعًا باللّوفر. تحدّثنا في أشياء كثيرة، لاحظت أنّ أكثر شيء يضايقها،

وجود الآثار الأوروبية والآسيوية والعربية في المتاحف الأمريكية. فجانيت متضايقة جدًّا من الاستيلاء على تاريخ الشّعوب. كانت فتاة طيّبة، وواعية جدًّا، أرجو لها كلّ الخير.

خرجتُ من اللّوفر وأنا أكاد أطير فرحًا بكنزي النّادر، هديّتي الرّائعة. امرأة تقرأ كتابًا، لوحة خالدة، وفريدة، بديعة، غاية في الجمال والرقّة، هذه اللّوحة هي أثمن ما جلبتُ من باريس، كنزي الباهظ والثّمين. رغم أنّها ليست اللّوحة الأصلية فإنّها صورة طبق الأصل عنها.

يوم العودة إلى الوطن، تأخرتِ الرّحلة ثلاث ساعات وعشرين دقيقة. إذ كانت طائرة البوينج القديمة قد تعطّلت نظرًا لسوء الأحوال الجويّة. النّاجمة عن تيّارات هوائية متعاكسة. لم يتمكّن الفنّيون والمهندسون من إصلاح أبوابها إلاّ بعد هذا التّأخير الكبير وقبل إقلاعها بقليل.

رحلتي الأخيرة لباريس كانت خارج عملي مضيّفة طيران.أردتُ أن أقضي عطلتي بمدينة الأنوار التي أعشقُها.

بقاعة الانتظار نام أغلب المسافرين من شدّة الإرهاق والتّعب. أمّا أنا فبقيتُ أتأمّل لوحتي البديعة. كنت شديدة الشّغف بها. أنظر إليها وكأنّني أكلّمها أو أبلّغها رسالة إلى الأنامل التي شكّلتها وتفنّنت في ألوانها.

إلى جانب شخير بعض المسافرين النائمين بقاعة الانتظار سمعتُ صوتًا ناعمًا وهادئًا قريبًا منّي جدًّا. نظرتُ حولي فلم أجد أيّ امرأة جالسة أو واقفة. لم أجد غير صورة امرأة جميلة جدّا باللّوحة التي جلبتها هدية من الفتاة. هالني المشهد. الصّوت القادم إلى أذني رخيمًا، جميلًا، هو صوت رسم المرأة التي باللّوحة. لوحة المرأة القارئة الخاصة بي. كانت تقرأ الكتاب الذي تمسك به بصوت مسموع.

بسملتُ لأذهب الأرواح الشرّيرة التي قد تكون متملّكة باللّوحة الأصل، قد تكون تلك الأرواح رافقت نسختها التي عبرت البحار من باريس إلى واشنطن ومن واشنطن إلى باريس من جديد. وقد تكون اغتنمت فرصة تحرّرها من أسر عيون زوار المعرض الوطني بواشنطن يوميًّا الذي به اللّوحة الأصلية.

تلك العيون التي كانت تذهب بتركيز المرأة الرّسم على كتابها الذي تحمله بين راحتيها. وتقضي على عادة القراءة لديها. لذلك ومنذ قرنين ونيّف وهي بالسّطر الأوّل من الكتاب.

كلّما أرادت أن تتجاوز السّطر الأوّل، دخل أحد الزوار الفضوليين، وحملق بوجهها طويلًا. تحوّل نظرها إلى السّقف، أو إلى الجدار المقابل كي

لا تحرجه، ولا يلحظ غضبها وتبرّمها. ولا تطلب منه الخروج فورًا، ليتركها مع هدوئها الجميل، مع هدوئها الذي حُرمت منه منذ خروج اللّوحة من المعرض الوطني بواشنطن. لم تنعم المرأة الرّسم بأكثر الأوقات أمانًا، في قاعة الانتظار باشرتُ القراءة، مغتنمة نوم المسافرين المنتظرين الإعلان عن موعد العودة. كان عليَّ الاستماع إليها، صوت القارئة الجميل، الذي يتقن العربية مع لكنة باريسيّة عند نُطق بعض الحروف، كان يشجّعني على الإنصات ويشدّني بقوّة رهيبة.

بعودتي إلى العراق نعمت المرأة الرّسم بالرّاحة أكثر. أصبحت عادة القراءة لديها أكثر انتظامًا، وكان عليَّ الاستماع إليها.

قبل أذان المغرب، قصدت المخبز الصّغير، المحاذي لمكتب المحامية عنادل البصري، رفيقة الطّفولة، وصديقة عمري. اشتريتُ بضعة أرغفة، وعرّجت على العطّار حيث اقتنيتُ قِنينة حليب لرضيعي أويس.

بالشّارع شاهدتُ صورة أعجبتني جدًّا. صورة لا تتكرّر كثيرًا في مجتمعاتنا الشّرقية ولم نألفها.

رجل واِمرأة طاعنان في السنّ، خلف قضبان الذكريات يتجوّلان. أيقونتان من تعب تترنحّان ذات اليمين وذات اليسار. أيقونتان مدجّجتان

بالآهات، بالقلق والهيهات. بوجهيهما أربع مزارع للملح، كل مزرعة بعين أقسمت أن تسقط كل أوراق العمر بالمرآب.

أغلقت العجوز نافذة شفتيها خوفًا على وردة قُطفت بسنّ الشّباب. وراحت تخبّئُ عقيق دموعها في أخاديد جبينها وجلدة يدها المرقّطة بالسّواد والتصحّر. في تلك الممرّات تتّسع المسامات والمسافات خائفة من عودة الأشواق وطفولة مقبورة في الأحداق.

في منعرج العمر، وكحبّتي بلوط، يقف العجوزان. ينخلان ما تناثر من القهقهات التي كبتت في عمق وحشة البحار وصمت الجدران. تمرّ السّنوات، كلّ الأبواب تفتح وتغلق، وللعابرين مقدار.

يُصغي المساء لضجيج الأقدام المتثاقلة، لطقطقات تكسّر الأجنحة، لثرثرة شفاهٍ مُعتّقة بالغبار. ذانك العجوزان يدركان أنّهما من روابي الحزن إلى تلال القنوط يصعدان. ومن شاهق يقين إلى حضيض شكٍّ ينحدران. يفرّان من تلال الوجع، وبالبئر الآسنة يستقرّان.

تلك العجوز، ذلك الشّيخ الطّاعن في السنّ، صورة طبق الأصل للآباء، للأمّهات، للأجداد والجدّات.صورة رضيع هارب في كبسولة الزّمن إلى الأمام.صورتي، صورتك أيّها القارئ الكريم ونحن ننتظرها بعد نيّف من الأعوام.

كان صهيل الجرح يقوى، يتلولب في الطّريق، يكبّل كسلسلة ثقيلة أربع أقدام. يبتسم الشّيخ، تبتسم العجوز، يبتسم الجرح، يرتشفان ما تبقّى من الصّبر، ويمرّان على قبر الحياة مبتسمين.

أتدرون؟ كتلك العجوز وحبيبها كنتُ سأكون مع ناظم حبيبي لولا الموت. كلّما أُفكّرُ بهما تكتظّ ملامح الحزن والقتامة بوجهي.

ها هي السيّدة وفاء:

-مساء الخير معلّمتي الحلوة.

-مساء الخير ابنتي..ياه..يسعدني اعترافك بالجميل. لكن كما ترين أنا أمشي على ثلاث، ووجهي سلّة تجاعيد، لست حلوة كما تقولين.

-أنت حلوة وجميلة دائمًا، ولكلّ سنّ جمالها سيّدتي.

-أشكرك على لباقتك وتهذيبك.

-قولي يا بنتي هل توجد صيدلية قريبة من هنا؟ أريدُ أن أشتري قنينة أنسولين، لم أجدها في عدّة صيدليات.

-وهل الأنسولين يشترى في بلد يعوم فوق بحيرة بيترول؟

-أصبحنا لا نجد جراياتنا آخر الشّهر لنشتري الأنسولين وغيره.. هه..هذا حالنا..ولا يختلف عن حال من هم موزعون على كامل الخارطة العربية.

– للأسف يا سيّدتي نعم، ما تقولينه مُخزٍ، ولكن هو الواقع. كان الله في عونك وعون من لا جراية له من العجائز والشّيوخ.

–هههههه.. بعيدًا عن المجاملات ظهر الصّحيح..هههه اعترفتِ في سياق كلامك بأنّي عجوز هههههه.

–هههههههه لا..لا بل أقصد من تعدّى السّتّين بصفة عامّة، أنت جميلة الجميلات كعهدك وحلوة، وأنا مُصرّة على ذلك.

–هناك صيدلية على يسار مقهى الشّابندر قديماً.

–أحسنتِ يا ابنتي..في أمان الله.

–في أمان الله سيّدتي الحلوة.

–هههههههه

–ههههه.

في أمان الله.

بعد أن أخذتُ الخبز، والحليب واشتريتُ بطاقة شحن لهاتفي الخلوي، صعدتُ إلى شقّتي التي تؤويني وأمّي المريضة وابني بالتبنّي زيدون ورضيعي أويس.

انضممت إليهم، وشاركتهم تناول أوعية سحلب كان قد صنعه زيدون كما يفعل كلّ مساء تقريبًا. ثم يرجع إلى الورشة حيث يعمل.

نامت أمّي وعاد أويس إلى نومه بعد أن رضع حتّى الشّبع. أخذتُ آلة التّحكم في التّلفاز وجلستُ أشاهد برنامجًا صينيًّا عن اللّياقة البدنية عند الموظّفين، لكن لم أكمله، المرأة الرّسم بالمرصاد لكلّ هدوء بالبيت.

بدلال، وتغنّج، ومشاكسة، قرأت رسالة ضمن الرّواية التي بين يديها:

عزيزتي صبريانا..

حين لمحت ذلك البريق المشعّ من عينيك تعلّقت به ولم يكن لديَّ أدنى أمل في الإمساك به. كان هذا منذ ما يزيد عن عقدين، وكانت الأحداث تتتالى. وفي كلّ مرّة يعنُّ لي أن أتجرّأ على الإمساك بذلك البريق، ولكن القدر يخطّ سطورًا غير التي أمِلتُ أن يكتبها. فهو يعاندني في كلّ ما أطمح إليه. لذا تهون كلّ الانكسارات، والهزائم الأخرى، بعد أن ضاع منّي ذاك البريق النّوراني الذي تحيطينني به. كلّما التقينا، أشعر بطفولتي تعود إلى أصابعي لتغمرها بالدّفء وذلك الكمّ الهائل من المحبّة التي تملؤني. فأنسحب من العالم، ومن النّاس، ومن الشّوارع، والأزقّة، والزّحام، والعيون المتربّصة والتّائهة.

بريق يأخذني منّي فلا أجدني إلاّ سابحًا في أحلام لقاء الأيدي، عساني أتمكّن من الإمساك بذلك الشّعاع. ذلك الشّعاع الذي يكاد يخترق كلّ مسامات الوعي في عقلي بما يحتمله من حبٍّ، أروع ما في حبّنا أنّه لم يعد يستطيع أن يصمت بعد أن كابد الصّمت. صمت لا لشيء إلاّ لأنّه يخالني غارقًا في بحار السّعادة والطمأنينة فإذا بهما غير متوفّرين إلَّا في قلبك يحملهما إحساسك المرهف تجاهي. أنا الآن أُعاتِبُ نفسي ألف ألف مرّة في اليوم بقسوة الذي فرّط في حبّات عقد اللّؤلؤ. وهي حبّات أيّام الحياة التي انفرطت كلّها فجأة ولم يعد بإمكاني جمعها..

صبريانا أنتِ فقط القادرة على إعادة بنائي، إعادة تكويني، إعادتي لنفسي حتّى أستجمع روحي المشتّتة. لأكون ما تريدين وتكونين ما أريد. فقط لا تبخلي عليَّ بشعاع بريق عينيك لأتدثّر به اتّقاء من برد الوحدة والبعد والغربة.

إلى اللّقاء حبيبتي

المخلص ..ناظم.

كدتُ أرمي اللّوحة من النّافذة، اعتبرتُها لوحة ملعونة، مسكونة، صرخت بأعلى صوتي:

-لَمَ تحشرين أنفك في ما لا يهمّ ؟ أنا لم أُحضرْك لتتلصّصي عليّ؟ هذه القصّة تخصّني وهذه الرّسالة تخصّني وحدي. كيف دوّنت بكتابك؟ وكيف وصلت إليك وإلى صفحاته؟ أليس كتابك بين يديك منذ القرن الثّامن عشر؟ إذًا كيف وصلت إليه هذه الرّسالة التي كُتبت منذ عشر سنين؟

قطّبت المرأة الرّسم حاجبيها الرّفيعين، وازدادت وجنتاها حمرة من شدّة الحنق والغيظ. واصلت تصفّح كتابها بعصبيّة دون أن تجيبني متجاهلةً وجودي، ممّا عمّق رغبتي كغريمة لها بالتخلّص منها. أردتُ رميها أو حَرْقها أو رفسها بين رجلي تشفّيا وانتقامًا لأشفيَ غليلي.

الباب الثّالث

الميّت الحيّ

توقّفتْ ساردةً القصّة أثناء تصفّحها كتابها النّادر عند جملة ليوري لوتمان في كتابه بنية النصّ الفنيّ:

-"يستحيل على الأحياء زيارة الأموات ويستحيل على الأموات زيارة الأحياء". ثم ضمّت الكتاب إلى صدرها. وأسندت رأسها على حافة خزانة أبنوسية من طراز القرن الثّامن عشر، بخشبها المتين ولونها البنيّ الباهت وزخرف بلّورها البديع. محدّقة إلى نجفة غرفة الجلوس ونورها الجريء بعض الشّيء. ومن جديد تصفّحت كتابها وبصوت مبحوح وقرأت:

- لا شيء مُحال ولا شيء بعيد المنال أمام الرّوح والجسد وتقلّبات القلب والحياة، فالرّوح تتواصل بتماهيها مع الرّوح، والجسد بالتحامه مع الجسد وإحلاله فيه، حين يموت الجسد الأوّل، فموته شكليّ لا غير لأنّه يتواصل مع الجسد الثّاني، هكذا يتمّ توارث الأرواح، وتوارث الأجساد وتواصلها، كما تتواصل شعلة النّار عند البدو الرُّحّل من أجدادنا وأسلافنا.

القلب يبعث بكهربائه المغناطيسية إلى القلب الثّاني. يبعث بخيباته، بلواعجه، بحرارته وأشواقه، ونبض حياته.

الحبّ هو المشاعر التي تنبّهنا إليها العقول. وحده الحبّ قاهر الموت. هو الحياة في تحدّيها للموت، لا موت مع الأرواح والقلوب الدّافئة المحبّة، فقط بالحبّ نتحدّى الموت، يستحيل الموت أمام سطوة الحياة، وغطرستها، وحنكتها، ودهائها. لأنّ الحياة امرأة داهية، حنّكتها السّنون، لا غلبة عليها. أليس كذلك صبريانا؟

- نعم.. نعم. (وأنا أبلع ريقي بصعوبة) أنا مثلًا أنجبتُ اِبني منذ شهرين. ووالد اِبني ناظم ظنّ الموت أنّه أعدمته وأماتته، ولكنيّ حملت منه بعد موته بتسع سنوات .لقد حملت بعملية تلقيح لبويضة بحيوانات منوية أودعها في حياته ببنك جيني خاصّ لهذا الغرض، بعد أن رهن كلّ أملاكه مقابل ذلك.

حبيبي ووالد اِبني لم يمت، فقط نخر جسده داء السّرطان. نحل وهزل وعجز عن التواصل مع الصحّة والقوّة والبأس. اِستحال تواصله مع المقاييس الجمالية المعترف بها اجتماعيًّا. تخاصمت الرّوح مع الجسد لأنّه لم يوفّر لها الملذّات الكافية. الطّعام الشهيّ، اللّباس الفاخر، الألوان الزّاهية، الألحان العذبة، الأكداس المكدّسة من الأوراق النقدية والفراش الوثير.

فالجسد محمل لنهم الرّوح وجوعها ورغباتها. الجسد خادم الرّوح بامتياز، عندما يقصّر هذا الخادم في خدمة سيّدته الرّوح، تهجره وتنفصل عنه. وجسد ناظم وصل إلى هذه المرحلة، لهذا خانته الرّوح.

الرّوح أنثى والأنثى لا تصبر على الجوع والعطش والإهمال والفقر والخصاصة، لذلك غادرت الرّوح الجسد. وحُمل جثمان ناظم في خشوع ورهبة وحزن ولوعة إلى قبر حزين، مظلم وموحش وبارد. وظلّت الرّوح ترفرف حوله وترثي حاله.

هو لم يمت بداء السّرطان، السّرطان لم يقدر عليه، بل قتله العلم بوحشيته. لولا طيرانه في الهواء فوق الجبال والسّهول والبحار لمّا مات. ولربّما تحدّى داء السّرطان، لقد نجا منه الكثيرون. فهو مرض خبيث نعم، لكنّه المرض الجبان الذي يتمكّن من النّفوس الضّعيفة المستسلمة .وأعرف عن ناظم مدى رباطة جأشه ومدى تعلّقه بالحياة.

رَحمه الله لو لم تسقط الطّائرة ذلك اليوم وهو في طريقه للعلاج ببريطانيا لربّما.. لربّما تأجّل موته كما هو موتنا.

جسد ناظم دُفن، لكن لا يزال ناظم يعيش ويتمتّع بكامل الحياة وعنفوانها. فقد ترك بعض روحه مع روحي وقلبي وفكري.

إذًا هو لم يرحل ولم يمت. لقد تركتُ بعضي معه، كما تركتُ بعض روحي ترحل معه، لذلك أنا نصف ميّتة.. نصف حيّة.

الموت.. هذا الغول المخيف.هذه الآلة التي تعدم كلّ شيء. لم تعدم حبيبي ولم تقتله ولم يمت.ثم ما الموت؟ ما الحياة؟ ما الحدّ الفاصل بينهما؟ أنا لا أؤمن بالموت، ولا بحتمية الموت، ما دامت هنالك بقيّة من الإنسان تحبُّ وتحيا وترث. الموت مرحليّ وجزئي في حياة الإنسان.

فالحياة حتمية ما دامت هنالك ولادة والعدم جزئي ومرحليّ. ويمكن للإنسان الواحد أن يعيش ليلة واحدة، أو عامًا واحدًا.كما يمكن أن يعيش عمره وعمر ابنه وحفيده وجارته ومحبوبته. يمكن للإنسان أن يعيش ليلة، كما يمكن أن يعيش قرنًا، أو قرنين، أو قرونًا.

الموت جزئيّ ومرحليّ، والحياة حتميّة بحتميّة الولادة، الموت هو موت للقبح الاجتماعي، مثل الجسد المهزول، المريض، المشوّه، المنتفخ، عديم الحركة والفائدة، كريه الرّائحة.

الحياة تتواصل وتتحدّى الموت منذ لحظة الولادة، تصنع مناخات جديدة ومتنوعة للحياة، بأشكال جديدة، وفي أجساد جديدة. الموت لا يميت والحياة لا تخشى الموت ولا ترهبه، بل تُخيفه، وتهدّده. الحياة أبديّة، أمّا الموت فظرفي، ومرحلي، وجزئي.

المعادلة صعبة حين نتأمّلها؛ حيث تنقلب حتميّة الموت إلى حتميّة الحياة.

تأخّر الوقت، ولم يعد ابني زيدون بعدُ. أُذّن لصلاة العشاء منذ أكثر من نصف ساعة.

بعد استراحة قصيرة لها استأنفت المرأة الرّسم قراءة كتابها متجاهلة قلقي. رمقتُها بطرف عين متأفّفة من تطفّلها وحشريتها. رغم ذلك قرأتْ بصوت مسموع فيه بعض الشّجن، وبعض الحزن مع فرح مكتوم تخاف أن تفرج عنه:

– السّاعة تشير إلى الحادية عشرة ليلًا. بعد ساعة يكون والدك بانتظارنا يا ولدي. منذ عشرة أعوام لم أفوّت لقاءه ليلة واحدة. هو حبيبي الذي ملك قلبي وما زال وسيكون.

كنت ساذجة كالبقية، ظننت أنّ الموت موت، وأنّ الحياة حياة، والموت حتميّة والحياة ظرفيّة .لكن بإعلان موت ناظم حبيبي، وختم تاريخها على شهادة وفاته، أدركتُ كُنه كلّ واحدة ومعناها وحقيقتها.

يوم علمتُ بمرضه تألّمت لألمه، وتوجّعت لوجعه، كانت آهته تخرج من

صدري، وكأنّ أنينه المتقطّع ينبعث من حنجرتي. كان داء السّرطان يأكل جسدي كلما توغّل في جسده.

حين علمتُ بموته بكيت كما لم تبكِ أيّة امرأة في التّاريخ. لمّا مات، رثَيته كما رثت الخنساء رجالها، إلى أن ذوى بصري، ونحل منّي الجسد. يوم حملوه على الشّراجع وشيّعوه، خلتني لن أعيش يوما آخر بعده من شدّة حرقتي عليه، وفقده، ولوعتي.

لكن بعد رجوع مَن أسرع إلى دفنه تحت قناطير مقنطرة من التّراب بمقبرة الطرف الجنوبي للمدينة، أحسستُ أنّي أريد أن أكون معه، إلى جانبه. قلت في نفسي المعذّبة من شدّة حسرتي على فراقه:

-عليّ أن أختبر وحشة الموت ورهبته معه. عليّ أن أجلس إليه حتّى يستأنس المكان ويتآلف معه.

رفقة شبح حبيبي ناظم بقيت إلى أن قاربَ الفجر على البزوغ .كنتُ سعيدة بذلك، ونسيت أنّي في مقبرة .نسيت أنّ من أجلس إليه مات قبل ساعات قليلة من مساء أمس. لم تراودني الرّغبة بالمغادرة أو الخروج. نسيتُ أهلي الذين قد يكونون في حالة بحثٍ عنّي آنذاك .

نسيتُ قيّم العائلة الشّرقية، كما نسيتُ أنّي في بلاد تنخرها الحرب، وينخرها الإرهاب، وتنخرها الطّوائف والملل. وعليَّ ألَّا أجلس ولليلة كاملة خارج البيت. وخارج الحماية الاجتماعية. وخارج ضوابط العادة والعرف. وخارج عالم النّاس. أنا أجلس إلى الأموات، وإلى من يسمّونهم أمواتًا.

فجأة سكتت المرأة الرّسم لدقيقة تقريبًا وأردفتْ:

– سأكتفي بهذا القدر من القراءة مبدئيًّا لأنّي تعبتُ، واصلي أنت صبريانا، أرى عينيك ساهمتين في فضاء الغرفة.

أصابتني نوبة سعال، عند خروجي في المساء لم أُلفّ نفسي جيدًا رغم علمي ببرودة الطّقس. بعد انتهاء النّوبة، أخذت شربة ماء، ثم مسحت دموعًا فرّت مسرعة إلى صهوة خدّي الأيمن. بعينين جاحظتين في وجهها الفائق الجمال وبابتسامة ساخرة أجبتها:

–نعم أنا أذكر كلّ تفاصيل القصّة أيّتها المرأة الرّسم، لا أحتاج إلى قراءتها من كتاب، أو سماعها منك.

يومها صرختُ وبقّوة في فضاء الصّمت المطبق حولي؟ هل أنا ميّتة أم حيّة؟ هل أنا من العالم الآخر أم من هذا العالم؟ هل أنا موجودة أم غائبة؟ ما الحدّ الفاصل بين وجودي وغيابي وبين موتي وحياتي؟

تململت المرأة الرّسم في مكانها حتّى كادت تسقط اللّوحة:

– صبريانا لن آبه للإتيكيت الاجتماعي، سأقاطعك وسأواصل سرد القصة لأنّك لا تحسنين فن القصّ. لكن لا بأس نحن نشترك في معرفة تفاصيل وأحداث وحيثيات القصّة. أنا ..المرأة الرّسم، أحمل سرّ القصّة في كتاب بين يدي . بطلة الرّواية صبريانا القادمة من حلم راوية الخزرجي. أعني صبريانا الجدّة التي رسمها فراغونار في لوحة وتظنّينها قصّتك. لذلك أتصادم معك أحيانًا، وأشاطرك الرّأي، وأتناوب معك في سرد فصول الرّواية أحيانًا أخرى. اعذريني لأنّي أتكلّم بانفعال أحيانًا. لكن لنعُد إلى الرّواية التي بين يدي ..أها..أحم ..عفوًا..الصفحة ٣٥ أين توقفنا:

–من خلفي أجابني صوت أعرفه وربّتت يد حنون على كتفي:

– أنت على قيد الحياة، موجودة في هذا العالم، وأنا حيّ موجود من ذلك العالم .عالمي وعالمك اختلفا ولكنّهما ما ابتعدا. أنا لم أمت، لأنّي حيّ بروحي المرفرفة في الفضاء، وفي الكون. وفي الأشياء التي عرفتها وأحببتها، وفيك. في روحك وفي جسدك الذي يحمل قلبًا أحبّني.

–قلت :

–كيف؟ ناظم..

قال:

-ألستِ توأم روحي؟ ألست عزيزتي؟ إذًا فروحي تماهت مع روحك.

-والجسد ما قصّته؟

-تركتُ بعض روحي عندك وروحك يحميها جسدك. فبعض ما تهواه روحي معك، هي فلسفة الحياة ويجب أن نفهمها .

-ن.نن.. نعم.

-ليس كلّ شيء.

(متوجهًا إليها بنبرة عتاب).

-ماذا آخر؟

(وصبرها يكاد ينفد).

أجابها والحزن يغرق صوته:

-عرفتُ مدى كذبك قبل وفاتي بأيّام قليلة على إثر إصابتي جرّاء انفجار الطّائرة التي كانت ستحملني إلى لندن للعلاج كما تعلمين. نعم وأنا نازل إلى الأرض، إلى أسفل. كنت قبل أن تتحطّم الطّائرة عند سقوطها وتتناثر منيّ

بعض الأشلاء، قد أغمضتُ عيني كي لا أرى الأرض تحتي، ولا أُدرك كم هي كبيرة المسافة التي تفصلني عنها.

لم أفكّر وقتها بما سيحدث ولا بما سيحلّ بالطّائرة التي سقطت.ولا بي، فقط أغمضتُ عيني وكأنّي أحاول أن أستمتعَ بالرّحلة. حلمت طوال حياتي بالطيران. أخيرًا قلتُ في نفسي. ها قد تحقّق الحلم. قلتُ هأنا عصفور طائر بلا جناحين. أنا .. كائن بشريّ طائر في الفضاء بلا طائرة. نازل إلى وكري على الأرض. لكن للأسف لم أستمتع بالرّحلة، رحلة السّقوط من الطّائرة على الأرض. حتى هذه حرمتِني أنت منها.

-أنا حرمتُك؟

-نعم.

-كيف؟

-عرفتُ في طريق سقوطي من الطّائرة على الأرض ما حقيقة مشاعرك نحوي. أنتِ امرأة كذبتِ عليَّ، خدعتني، لماذا؟ ماذا فعلتُ لك لتدمري حياتي وتتعسيها بتلك الشّاكلة الفظيعة؟

وهي تضغط على أصابع يديها المتشابكتين:

-ماذا تقصد؟

تُصيبُ المرأة الرّسم غصة بحلقِها فتتعثّر في القراءة قليلًا. اغتنمت الفرصة وأخذت الكلمة عنها من جديد، ساردة ما دار بيني وحبيبي ناظم من حوار. وعيناي تفيضان محبّة، وشوقًا لرجل لم أعشق سواه.

قال لي يومها:

- صبريانا.. أنت لم تعشقي، ولم تُحبي سوايَ. ومع ذلك أنكرتِ كلّ تلك المشاعر النّبيلة، العظيمة . دفنتها في غياهب الماضي، وفي خفّ الزّمن الغادر.

الموت لم يقتلني. لكنّك أنت من قتلتني ألف مرّة في اليوم لمدّة خمس وعشرين سنة. كنتُ أظنّ أنّك فعلًا لا تعتبرينني حبيبًا وإنّما أخًا. سجنت نفسي داخل مظلّة كبيرة كانت تُسيّجني. قمعتُ مشاعري تجاهك. مشاعر الرّجل المحبّ، العاشق، الولهان. وعوّضتها كي لا أخسرك بمشاعر الأخ العطوف، الحنون، الذي يخشى على أخته من النّسيم أحيانًا.

- قلتُ:

-وكنت كذلك ناظم.

لكنه أجابني بلهجة حادّة:

-أنت كاذبة.. أتكذبين حتّى الآن أمام هذا الجمع من الشّرفاء والسادة؟

وباستهزاء أكثر أجبته:

-أتقصد الأموات ساكني القبور؟

-أنتم يا من خلف هذه الأسوار هم الأموات، وتلك الدّيار هي القبور.

عاتبته لأنّه لأوّل مرّة منذ ربع قرن يتّهمني بالكذب، ولأوّل مرّة يصرخ في وجهي، وأقف موقف المتّهمة أمامه.لم يصمت بل واجهني بالحقيقة المرّة:

- نعم لقد سمعتُك تعترفين يوم حادثة غيابي عن الوعي أوّل مرّة إلى سمر ابنة خالك أنّك لم تحبّي سواي .ولم تعشقي طوال حياتك سواي. ومع ذلك أنكرت كلّ هذه المدّة. لماذا؟ لماذا؟ كنت تريدين تعذيبي أم تعذيب نفسك؟ أنا لم أتزوّج ولكنّك تزوجت وأنجبت من رجل لم تحبّيه، وأخرجك من بيته في ليلة زواجكما نفسها، واصلت حياتك امرأة مطلّقة مع طفلين، ولم تعترفي بحبّك لي.

-ولكن طفليّ كما تعلم توفّيا بالحصبة.

-ههههه هذا مثير للضّحك فعلًا ..ههههههه...الحصبة؟ أتعلمين أنّ الحصبة لا تقتل إلّا بعالمكم الثّالث. أمّا بالدّول المتقدّمة فالطّب تطوّر وأمل الحياة زاد. تلك الدّول التي تحترم الذّات البشريّة. تلك الدّول التي يلقى فيها الكلاب والقطط العناية أكثر من الشّيوخ والأطفال لديكم.

-نعم الحصبة.

(وأنا أُحرّك رأسي مهمهمةً وبأسف كبير).

وأنا أتذكّر حيثيات حواري مع شبح ناظمّ، حبيبي الميّت، سمعت صراخًا بالغرفة. فإذا المرأة الرّسم تنعتني بالمتخلّفة، والمتعجرفة، لأنّني آخذ الكلمة دون إذنها، وأقاطعها في أثناء قراءة الكتاب الذي بين يديها.

محتجّةً قلتُ:

-أمن تكلّمني أنتِ؟

-نعم أنا ضِقتُ ذرعًا بكِ.

(ونظرات الاحتقار ما زالت مرسومة على وجهها).

صرخت فيها:

-اصمتي أنت وإلاّ هشّمت إطارك، وجعلتك تسقطين ليتلوّث ثوبك الزّهري الجميل. وينفش شعرك الذي سرّحته بعناية. أنا جلبتك لتزيّني غرفتي، وتمتّعي نظري، وترفّهي عنّي في حالات القلق. عند تأمُّل جمالك الفنّان أحمد الخالق الذي ألهم الأنامل التي رسمتكِ وأعطاها موهبةً خارقة. لكن لم أجلبك لتتجسّسي عليَّ ولتفتحي دفاتري القديمة وتقرئيها لي ولكلّ

من يدخل الغرفة. أنت لا شغل لديك سوى الجلوس على أريكتك الباهظة الثّمن. جلستك مريحة هناك، ولكن رجاء أريحيني من تطفّلك على دفاتري.

بغضب تصبّب له جبين المرأة الرّسم عرقًا وضاقت له حدقتا عينيها:

- أنا لم أتطفّل عليك، ولا على دفاترك. أنا أقرأ كتابي الذي جلبته معي من المعرض الوطني للفنون بواشنطن. الكتاب الذي رافقني منذ أن جلست بهذا الإطار، أظنُّ أنني ذكرتُ لك كيف أنّ زوّار المعرض الوطني بواشنطن حالوا دون قراءة كتابي الذي بيدي منذ النّصف الثّاني من القرن الثّامن عشر.

وأنا منهمكة في تنظيف إطار نظّارتي كان صوتي محتجًّا:

-لكنّك تقرئين قصّتي. ما تذكرينه قصّتي.حيثيات حياتي، وليست من القرن الثّامن عشر. لهذا أنا أُكمل بعض الأسطر عنك أحيانًا، ولهذا تغضبين منّي وأغضبُ منك.

-قصّتك؟

(في سؤال إنكاري أدمنت صيغته)

-نعم قصّتي، الأحداث، والقصّة، واسمي، واسم ناظم..الكل في كتابك.

-انتظري .. انتظري... يا إلهي.. هذه فعلًا حكاية الرّواية التي بين يدي. حدّثتني إحدى الصديقات اللّواتي كنّ بأحد الرّسوم على الجدار الذي كنت أستندُ إليه بالمعرض الوطني للفنون بواشنطن، في محاولة منها تلخيص الحكاية. ولتذهب عنّي حسرة عدم التمكّن من القراءة الهادئة بسبب تطفُّلِ زوّار المعرض. لم تكن تعرف أنّها قد زادت رغبتي وشغفي بضرورة متابعة القراءة. للوقوف على كامل حواشي الرواية وتفاصيلها وأحداثها .ذكرت أنّ الرواية تتلخّص في أنّ امرأة من زمن ما عشقت جثّة، وأنجبت منها بعد موت صاحبها بعشر سنوات. وأنّها قبل موتها طلبت من ابنتها أن تودع بنك الخلايا الجذعية بعضًا منها لتتجمّد هناك وتحافظ على حياتها. لأنّها ترغب بحياة ثانية تتواصل مع امرأة ثانية.

-وابنها أين هو الآن؟

(سألت في شغف).

ترفع نظرها عن الكتاب :

-ابنتها توفيت وتركت وصيّة لابنتها هي الأخرى، وابنتها فعلت الشّيء نفسه مع حفيدتها.

يزداد شغفي ويزداد الحوار بيننا حدّة وتوتّرًا:

-وحفيدتها من تكون؟

-أظنّها قريبتك.

-ماذا تقصدين؟

-أأأ..أ..أهي.. أهي أمّي؟

-هي أمّك التي ولدتك لكن بيولوجيا ليست أمّك الحقيقية.

-بيلوجيًّا؟ أنا الابنة الحقيقية لأمّي وأبي.

-أمّك التي ولدتك هي حفيدة المرأة التي نتحدّث عنها . عندما تأخّرت بالإنجاب وقبل أن تنجب بقية إخوتك الذين تربّيت معهم.انخرطت بمنظّمة عالمية ساعدتها على إنجاز الوصية وعملية الاستنساخ .

- لكن الاستنساخ البشري وقع في القرن العشرين؟ هذه المعلومة مؤكّدة.

-ههه..مؤكّدة.. متى قدّم الغرب وأمريكا أساسًا معلومة مؤكدة؟ أنا أظنّ أنّ الاستنساخ وقع في القرن الثّامن عشر، أو حتّى قبل هذا التّاريخ.. لم لا؟

-مبالغة.

-الخوف من الكنيسة والقانون الأخلاقي يحتّمان التكتّم على الأمر لمدّة طويلة.

يعني؟

-أنت المرأة المستنسخة عن الجدّة .

كنت أحثّها على المزيد وملامح وجهي قد خُطفت، وصارت كالصّنم جامدة:

-أي؟

-أنت صبريانا الحفيدة وهي صبريانا الجدّة، قدّر لك أن تعيشي حياتها الماضية.

وقد تمكّن منّي الهلع:

- أتقصدين أن حياتي مجرّد كذبة وما أنا إلاّ محمل لحياتها الماضية.

وتواصل بيننا الحديث، أنا أسأل جزعة، والمرأة الرّسم تجيب باقتضاب:

-نعم.

- وما أشعر به نحو ناظم.. هي من شعرت به؟

- نعم.

-أتعنين حبيبها هي وليس حبيبي أنا؟

-نعم.

- إذًا لماذا أتبنّى هذه القصّة؟

-لهذا كانت صبريانا الأصل حريصة على استنساخها ونقلها إليك كي تعيشيها. تعيشي ذكرى القصّة وتستمتعي بها. أنت ستعيشين للقصّة. لقصّتها، هي أرادت ذلك. وحفيدتها السيّدة خديجة، أعني أمّك التي أنجبتْك، أنفقت كلّ ثروة جدتّها لتكوني موجودة وتعطي حياة للقصّة.

بكلّ ذهول سألت المرأة الرّسم حاملة السرّ:

- تعنين القصّة التي تقرئين؟

-نعم.

- ومن كتبها؟

-أتعنين قصّة "امرأة تعشق جثّة؟"

(سؤال استنكاري تُحسن صياغته دائمًا).

- نعم.

(وقد نفد صبري).

تتنهُّد المرأة الرّسم كتنهّد من تخلّص من عبء كبير. عِبؤها سرّ الرّواية التي بين يديها. سرّ صبريانا الجدّة الذي ورثته أنا. أنا صبريانا الحفيدة التي عاشت حيثيات حياة جدّتها. قصّة جدّتي صبريانا الأولى التي دُوّنت في الكتاب الذي بين يدي المرأة الرّسم. لوحة المرأة القارئة للفنّان الفرنسي ليونار فراغونار.

تأكّدت بالحجة والبراهين أنّ الرّواية كتبتها صبريانا الأصل، صبريانا الجدّة. صبريانا التي عاشت بالقرن الثّامن عشر ولست أنا. أنا أستعيد الأحداث عبر الفلاش باك، عبر عملية استرجاع ليس إلّا. لذلك يتهيّأ لي وأتوهّم أنّني العاشقة، والكاتبة، وصاحبة القصّة، هي أرادت أن تعيش فيَّ وبيَّ، لتختبر قصّتها عند النّاس، وعبر الأجيال.

عند معرفتي هول الحقيقة جاءت كلماتي مشتّتة، متلاشية بما يشبه حالة هذيان:

-فقد عشت حلم اكتمال الرّواية وحفل توقيعها، أكان ذلك مجرّد حلم عائد إلى الماضي؟ حلم خطف لحظة فرحة صبريانا الأصل أو الجدّة والتسمية

واحدة بإصدارها الذي يحكي قصّتها؟ والرّجل الذي انتظرتُه كلّ مساء من يكون؟ ألم يكن حبيبي؟

أجهزت عليَّ المرأة الرّسم بإجابتها دون أن تشفق على حالي:

-لا..لا، هو حبيبها، أنتِ لا حبيب لديك، هي أرادت ذلك. لن يكون لك حبيب، بل ستعيشين قصّتها الاستثنائية. فرحها، حزنها، أملها وقنوطها، حتى موتها ووصيّتها.

-وصيّتها؟

(وأنا مستغربة ممّا تذكر المرأة الرّسم).

-عليك أن توصي بخلاياك الجذعية للاستنساخ حتى تنتشر قصّتها أكثر، وتتوارث عبر الأجيال والقارّات. أنتِ صبريانا الحفيدة وتلك صبريانا الجدّة. ما أعنيه أنّكما جسدٌ وروحٌ هلاميان في المكان والزمان أفقيًّا وعموديًّا.

قلت بصوت فيه بعض الانتصار:

-أنا لا أولاد لديَّ، إذا كان من أعتبره ولدي من ناظم ليس بولدي كما تَزْعُمين عزيزتي المرأة الرّسم مَنْ سَآتمنه على البعض منّي؟ أعني البعض منها، على قصّتنا...قصّتي وقصّتها؟

أجابت المرأة الرّسم بدهاء:

-تلك ضريبة المستنسخ، عليه أن يدفع الثّمن، تدبرّي أمرك.

-حسنًا، هل أأتمنك أنت على هذا؟

(وقد ثقل الحمل عليَّ).

تُخْلي المرأة الرّسم نفسها من المسؤولية:

-أنا مجرّد لوحة على جدار.

-ولكن اللّوحة لا تتكلّم (وأنا أبتسم) بالله عليك قولي من تكونين؟

-أنا صورتها هي.

- وقد تحرّرتُ من الصّدمة:

- لا .. هذا كثير، أنت الصّورة على الجدار وأنا الإنسانة المستنسخة عنها. ما هذا الهراء؟ هل أنا بفلم أمريكي؟

-أنا صورة يدوية لصاحبة الرّواية. رسمها لها جان أونوري فراغونار أيّام الشّباب بعد أن كتبت روايتها ويوم توقيعها. أعجبته الكاتبة فرسمها وهي تقرأ.

-أتعنين أنّك صورة لصاحبة الرّواية الأصل (صبريانا الجدّة) وهي مَن كتبت الرّواية التي بين يديك؟

-نعم وروحها التي ترفرف حول صورتها وكتابها الذي يحمل بين دفتيه قصّتها هي.

روحها ..روح صبريانا الجدّة المتملّكة بصورتها تلهمني بالقراءة، وتُحرّك شفتي فتتخيّلين أنّني آدميّة حيّة تنافسُك حمل سرّ الرّواية. سرّ صاحبة القصّة التي ظننتِ أنها قصّتك، في حين أنها قصّة صبريانا الأولى صبريانا، صبريانا التي عاشت كما ذكرتُ بالقرن الثّامن عشر وعاصرتْ الرّسام أونوري فراغونار. فراغونار الذي كان مغرما بها، وصعق برفضها له أوّلًا لأنّ قلبها كان مع ناظم، ولأنّها كانت ابنة أحد الإقطاعيين فاحشي الثّراء وهو الفنّان الفرنسي المعدم. التقاها بباريس في الحديقة المحيطة ببرج إيفل وطلبَت منه أن يأخذ لها صورًا توثيقية لرحلتها.

الصّورة كان قد أخذها لها الرسّام وهي بزيّ الفتيات الفرنسيات، كانت جالسة في غرفة من غرف أشهر فندق بشارع الشانزيليزا في تلك الحقبة الزّمنية. وكانت لوحة المرأة القارئة من أجمل اللّوحات التي رسمها فراغونار.

قلت والألم يعصرني:

– عينهم على كلّ ما هو جميل في الشّرق منذ القدم، وهذه اللّوحة هي التي خلّدت فراغونار.

المرأة الرّسم مؤيّدة:

-روح الشّرق مُلهِمة.

- لكنّ الكاتبة ذكرت في روايتها يوري لوتمان في حين أنّه وُلد وتُوفي بالقرن العشرين. أهذا أيضًا عاش في الماضي؟ ما الذي يحصل بالله عليك؟

-هذه القصّة، أي قصّة صبريانا الأولى، ليست حِكرًا على زمن معيّن، ولا على مكان معيّن. فهي مثلما تمثّلت الماضي، تتمثّل المستقبل. الرّواية ليست جامدة، هي رواية متحرّكة. هي نصٌّ مُتحرّك، تمّت فيه عدّة إضافات عبر الزّمن وهو في طريقه إليك، كما أنّك ستضيفين جُملًا وفقرات لهذا النّص. وستتركين لأخرى، لا نعلم زمانها ولا مكانها حتى تسجّل في هذا النصّ وتضيف إلى هذه الرّواية. الإضافات تتمّ دون أن تتغيّر القصّة الأصل، أعني قصّة ناظم وصبريانا.

الفصل الثّاني

الباب الأوّل:

ضفدعة خضراء

في غمرة حديثي مع المرأة الرّسم استوقفتُها بكلمة "ما فهمت"، فصَرَخَتْ:

-لا تردّدي هذه الكلمة كثيرًا وإلّا نعتّك بضفدعة بلهاء.

-لا تناديني بضفدعة.

(محذّرة إيّاها).

تصرُّ الثّانية على موقفها:

-بل ضفدعة وضفدعة خضراء.

استشطّت غضبًا، وهممت باللّوحة أريد تحطيمها بين رجلي، فاعتذرت المرأة الرّسم:

-لا بأس، لا تغضبي، أنا لا أقصد ذلك ولا أعلم أنّ الصّفة تغضبك إلى هذا الحدّ، كنت أمازحك.

-لا تمازحيني بكلمة ضفدعة خضراء.

(بسخط).

وهي مبتسمة في خبث:

-ما قصّتك مع الضّفدعة الخضراء؟

والدّموع تترقرق من عيني أفصحتُ عن مكنوني:

– نعم ..وأنا في رياض الأطفال كنتُ ألعب مع أترابي لعبة الغُمّيضة. ولمّا جاء دوري في الاختباء اخترتُ الحمّام بعد أن أغلقت بابه من الدّاخل. واجهتني صورتي معكوسة في المرآة.أحببتها، بدا لي أنّي أجمل فتاة وأعجبني ذلك، تقدّمت من المرآة أكثر حتّى كدت ألتصق بها، دقّقتُ النّظر في شعري الأشقر المتدليّ على كتفي، في عيني، في أنفي الذي بدا لي كبيرًا بعض الشّيء. قلت لا بأس أنا أملك بشرة وردية، نضرة وهي لا تتوفّر عند الكثيرات. حوّلت نظري أسفل رقبتي فرأيت لونًا أخضر. كشفت أكثر بيدي الاثنتين عن فودي، فكانت البقعة الخضراء دكناء وواضحة وتغطّي كامل فودي. خلتُني مريضة فهُرعت إلى معلّمتي برياض الأطفال باكية، شاكية، لكنّها نهرتني قائلة:

-هل يعجبك اللّون الأخضر أيّتها الضّفدعة؟ لماذا لوّنت فوديك به؟

ضحك أترابي، سخروا منّي، ناداني البعض بالضّفدعة وواساني البعض الآخر حين انفجرت باكية. ولمّا رجعت إلى أمّي وسألتها قالت:

-تلك البقعة الخضراء خارطة الوطن وقد رسِمت على فوديك فافتخري بها.

في الغد قلتُ للمروّضة في لهجة تحدٍّ:

-ذلك اللّون الأخضر على فودي وطني الأخضر.

صفعتني وهي تزبد:

-ضفدعة وغبية.

في السّنة التالية دخلت المدرسة، وطلب منّي المعلّم أن أستعرض أنشودة وطني الأخضر فصدحت مغنيّة:

-وطني الأخضر

لون أخضر

يزهر

يثمر على فودي

وطني الأخضر...

قطّب المعلّم حاجبيه ورجّني من كتفي كما برّاد شاي نفد ما به:

-من أين أتيت بهذه الأنشودة؟

كشفت بيدي الاثنتين عن فودَي، وقلتُ مُشيرةً إلى اللّون الأخضر عليهما:

-من هنا.

نهرني وكأنّه يجلدني بلسانه:

-اذهبي واغسلي هذا اللّون الذي وضعته أيّتها الغبيّة.

في الثّانوي سأل الأستاذ عن الوطن الأخضر، فاستبقت المجموعة إلى طاولته، حيث تتكدّس دفاتره وكرّاساتنا وكشفت عن فودي قائلة:

-إنّه مرسوم هنا ..

هذه المرّة لم يصفعني، ولم يصرّخ، ولم ينعتني كالمرّوضة والمعلّم بالغبيّة. على العكس كان هادئا جدًّا. عيناه تسمّرتا بشراهة كعيني نسر على فريسة. تقدّم مني، قدّم أكثر، دسّ رأسه تحت رقبتي وراح يلهث، يلعق اللّون الأخضر.

تكرّر السؤال في الجامعة مع أستاذ الجغرافيا :

-أين الوطن الأخضر؟

فرحتُ بالسؤال محاولةً إظهار نبوغي قائلة في نفسي لا بدّ أنّ إجابتي هذه المرّة ستكون صحيحة .

أعاد سؤاله:

-أين؟

قلت وأنا أشير إلى فودي:

-هنا.

أظهر الأستاذ جدّيته، وبدا لي أنّه اقتنع بإجابتي، ولكنّه صعقني بقوله مخاطبًا زملائي:

-انتهى الدّرس.

ثم التفت إليَّ قائلًا:

-انتظري أنت أيّتها الآنسة وليخرج الجميع.

فرحت قائلة في سرّي لعلّه لا يريد أن يوبّخني أمام الجميع، وتوقّعت نصيبي من كمٍّ هائل من الشتائم، والنّعوت الشائنة، وجام سّخرية لاذعة. لكن على العكس، ابتسم لي وزاغت عيناه، واتّسعت حدقتاه، وقال بعد أن مرّر لسانه على شفتيه:

-هذا المساء أنا بالبيت.

صمت ثم أردف وهو يضع جُذاذة بكفّي:

-وهذا عنواني.

من يومها غادرت الجامعة، وقرّرت أن أتزوّج وكان قريبي عريسي. ليلة زفافنا سمع أهل العمارة صراخه، وشاهدوه يجرّني خارج باب الشقّة، ويدفعني من السّلم وهو يصرخ:

- مشوّهة، ضفدعة، اخرجي من بيتي.

ساعة أو يزيد قليلًا مكثتُها مع زوجي، طلّقني بعد ذلك بالضّرر. أمّا توأميَّ اللّذان كانا ثمرة تلك السّاعة المشؤومة فقد توفيا بالحصبة في عمر السّتّة أشهر. ليسامحني الله لأنّي لم أستطع أن أعطيهما حبّي، لقد كرهتهما لأنّهما نسله، نسل ذلك المتخلّف.

ذات يوم سألني ابني بالتبنّي وهو ابن صديقتي التي تُوفيت في ملجأ العامرية:

-أمّي هل وطني أخضر؟

قلت :

-نعم.

قال:

- كيف؟

قلتُ كاشفة عن فودي:

-ها هو.

ابتسم وضمّني قائلًا:

-الوطن الأخضر اِبن بار، وأمّ رؤوم أو لا يكون..

تذكّرت أن المروّضة والمعلّم وأستاذ المعهد وأستاذ الجامعة قد سخروا منّي ونعتوني بالضّفدعة الغبية. فضحكت كثيرًا، ضحكت حدّ القهقهة. هُرعت الى الحمّام ونظرت إلى المرآة. رأيت نفسي أجمل النّساء ولست ضفدعة خضراء. فقط أنا أحنّ إلى وطني الأمّ الذي لا أعرفه، وطني الذي لا أملك منه غير حفنة تراب جلبها جدّي الأوّل معه عندما هاجر من تونس إلى العراق، جدّي حفظها في صرّة من قماش عمامته. أحبّ العراق جدًّا وأعتبره وطني رغم ما بي من حنين وشوق لا حدّ لهما لوطني الأخضر. وطني الأصل تونس الخضراء كما يقولون.

وقد خبر الصبيّ مقدار حنيني لتونس فسأل بقلق:

-ما أفهمه أنّك يومًا ما ستهاجرين إلى تونس؟

-كيف أترك العراق؟ هل جننت بني؟ هنا وُلدت، وهنا ترعرعتُ، وهنا لعبتُ ودرستُ، وهنا أهلي وناسي وأحبّتي وأصدقائي .

سألني الصّبي مرّة أخرى:

-تتحدّثين بمحبّة وحنين كبيرين عن تونس؟

-هي وطني الأصل، أرض جدّي، لها أحنُّ كلّ يوم. حبّي لتونس يكبر بداخلي منذ الطّفولة مع حكايات جدّي حتّى الحزينة منها .

-أو تحبّين العراق؟

-ومن يقول غير ذلك؟ أنا عراقية المولد وأبي كذلك؟ كما تجري بعروقي دماء عراقية. أنسيت أنّ أمّي عراقية أبًا عن جدّ؟

-آه يا عراق... عراق الحبّ أين أنت؟

-سيعود عراقنا وسيعود الحبّ إلى هذه الأرض. سيعود وستعود أعشاش الطّيور الجميلة. سيعود الهواء النّقي، ستعود البراءة إلى أطفالنا. سنرى ذلك الحبّ بعيوننا، سنعيشه بإذن الله.

-صحيح، حتّى الطّيور هاجرت من هذا البلد، الطّيور لا تعشّش ولا تسمح لصغارها بأن تفرّخ إلاّ في أرض يسودها ربيع الحبّ وليس بأرض تدمّرها الرؤوس الحربيّة والكيماوية.

تململ الصبيّ في مكانه قائلًا:

-ارحميني يا أمّي من عدواك، كلّ يوم تستفحل فيّ أكثر.

سألته مستغربة:

-عدواي؟ سلامتك بنيّ.. كيف؟

أضحكني حين قال:

-أصبحت بفضلك مدمن قراءة.

-هذه ظاهرة صحّية غابت عند جيلك.

فجأة أعلن الصّبي ملله من الحديث، وقطع الحوار بحسم:

-صرتُ أتقن الكلام في السّياسة مثلك، لا أرغب بهذا الحديث. سأخرج إلى شأن لي عند العطّار. الوقت تأخّر، قرابة منتصف اللّيل الآن. الحمد لله أن العمّ جميل ينام أمام باب الدكّان و يتركه مفتوحًا. سأشتري بطاقة شحن لهاتفي، ألا تريدين شيئًا؟

-لكن لا تبتعد بُني، ارجع حالًا إلى البيت. لا ندري متى يعاود القصف، الوقت تأخّر جدًا، والعم جميل ربّما نام أمام باب الدكّان.

الباب الثاني

السرّ عند فريدم هاوس

غادر زيدون إلى دكّان العمّ جميل. تفقّدت أويس، وغيّرت له الحفاظة، ثمّ ناولته رضعة جديدة، لن أنام قبل عودة زيدون، وإغلاق الباب الخارجي بإحكام.

هممتُ بمغادرة غرفة الجلوس فاستوقفتني المرأة الرّسم، وشدّتني بحديث عن السّياسة وأهلها طاوية الكتاب الذي بين يديها:

-على ذكر الرّبيع وعلى ذكر تونس، أرى أنّ ثورة الرّبيع العربي قد سُرقت وفشلت الفشل الذريع. الثّورة انطلقت مع بدايتها في تونس تلقائية شعبية، ولكن منذ الأيّام الأولى احتواها فريق فولكهام.

-فريدم هاوس هي التي أشرفت على تدريب المحتجّين على فنّ التظاهر الجماهيري، وعلى كيفية إشعال الاضطرابات. لذلك تمّ احتواء الثّورة التّونسية وتسييرها منذ الأيّام الأولى، بإرجاع المتدرّبين التّونسيين في مالطا القريبة جدًّا من تونس.والمتدرّبين الموجهين للشّرق الأوسط الذين تمّ تدريبهم في قبرص .

توافقني المرأة الرّسم بإيماءة من رأسها لتشجعني على الحديث فأردفتُ:

- نعم فريدم هاوس هي بيت الحريّات الأمريكية، لكن ليست وحدها من قام بذلك. أنسيت رام إمانويل خبير الدّعاية في مجلس الإعلام الأمريكي ومموّله جورج سوروس؟

أما الكونجرس فقد وافق بالإجماع سنة ١٩٨٣ على مشروع تطبيق معاهدة سايكس بيكو الذي طالما نادى به لويس برنار.

المشروع انطلق منذ عهد جيمي كارتر، وتبنّاه فريق فولكهام في بداية التسعينيات، وتبلور أكثر مع بوش الابن. كما تبنّاه مرشد عام المحافظين الجدد المستشرق الكبير لويس برنار. طبعًا لا ننسى كوندي، معلّمة بوش النّاطق برأيها، ومهندسة سياسته الخارجية في عهده. فعلت ذلك في عهد بوش الابن وحتى في عهد بوش الأب. ولو أنّها قامت بذلك في الكواليس في عهد الأب. كما وُجد بالفريق باحثون كبار كمؤسّس نظرية صراع الحضارات هانتنغتون، ومؤسّس نظرية نهاية التّاريخ فرانسيس فوكوياما.

- أنا أستغرب فقط من سعي كوندي لعبودية العالم، وهي المنحدرة من عائلة عانت مرّ العبودية.

- المال والشّهرة يقتلان المبادئ، وهي الطموحة جدًّا لكتابة اسم عائلتها في التّاريخ الأمريكي الحديث.

- إذًا سايكس بيكو جديدة ما نعيشه. سايكس بيكو هذه نكبة العرب. هي معاهدة تمّت سنة ١٩١٦ بين البريطاني مارك سايكس والفرنسي جورج بيكو. من نتائجها الكارثية وعد بلفور سنة ٢٠١٧. هذا الوعد الذي بموجبه أعلن الصهاينة قيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨، تاريخ النّكبة العربية الأكبر. تاريخ تسليم فلسطين لكيان أسموه إسرائيل تحت تأثير اللّوبي الصهيوني. وما يجري الآن سعي حثيث لتحقيق حلم إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النّيل.

- نعم سعي كبير لتقسيم عدّة دول عربية، ومسح أخرى من الخارطة .البداية بالعراق وسوريا، أنسيت شرط بريمر لانسحاب الجيش الأمريكي من العراق سنة ٢٠٠٧؟ كان الفيدرالية، أي تقسيم العراق، أي حدود الدّم التي تحدّث عنها بيرجنسكي في مقالةٍ في الثمانينيات .هذه الحدود المسطّرة على أسس دينية، وعرقية، وطائفية، وقومية، ستُطبّق بالمغرب العربي كما بالمشرق العربي، لتصبح أغلب الدّول العربيةكونتات صغيرة. هي وثرواتها في قبضة اليد.

-نعم ..نعم الماء، والبترول، واليورانيوم، والشّمس، وكلّ ما هو طاقة نظيفة.أوووه..الواحدة والنّصف صباحا،سأذهب للنّوم.

-وَاعْ..وَاعْ..وَاعْ..

-مالك بني؟ أنت لم تكفّ عن البكاء منذ الفجر؟ حفاّظتك غير مبلولة ولست بجائع أو عطشان؟

وَاعْ..وَاعْ..وَاعْ..

أووف..يا الهي ماذا أفعل؟ ما الذي يؤلم هذا الطّفل؟ سأجهّز لك مشروب الينسون والنّعنع. يبدو أنّ السّبب انحباس الغازات ببطنك. زيدون يصرّ على إعطائك الرّضعة أحيانًا وينسى أن يسندك على كتفيه لتتجرّع. أوووف ..زيدون..أووف.

-وَاعْ..وَاعْ..وَاعْ..

-آتية..آتية..زيدون..زيدون..اذهب إلى أخيك...رأسي..أووف.. زيدون..اذهب إلى أخيك..ألا تسمع.

-أمّي..اتركيني أنام، البارحة لم أنم، حال شروق الشّمس سأذهب إلى العمل. لا هدوء في هذا المنزل منذ قدوم أوّيس..أوف.

-واع..واع..

-أوووه..يا للحظ، القدّاحة عند جمال، يبدو أنّهما ناما عند مضيّفهما. ربّما تركها قرب المنفضة بقاعة الجلوس..سأرى.

-إززززززت..

-لا بدّ من تشحيم مغالق الأبواب في هذا البيت، كلّما فتحت بابًا أصدر أزيزًا. يا إلهي...ماذا تفعلان؟ متى رجعتما؟ على حدّ علمي لستما متزوّجين؟ ما الذي يحصل في بيتي؟ أفلتت جوري من حضن جمال، لافّة مُلاءة وردية حول نفسها. في حين طأطأ جمال رأسه وهو يلتقط قميصه من الأرض.

كلاهما لم ينبس ببنت شفة. فورًا أخذت القدّاحة وتوجّهت إلى المطبخ. جهّزت مشروب النّعناع واليانسون لأوّيس. شربه وغطّ في نوم عميق. خرجت وجلبت الخبز وضعت لجوري وجمال الفطور. جلسا إلى الطّاولة وقد حسّنا من فوضوية منظرهما. ابتلعت غيظي وفضّلت الصّمت كي لا ينتبه زيدون لما يجري وهو المراهق.

حوالي الثّامنة صباحًا، أخذ زيدون شطيرته اليومية وقنينة الماء في قفّة من سعف النّخيل وتوجّه إلى الورشة حيث يعمل. بينما خرجت جوري مع جمال للتبضّع.

أغرى المرأة الرّسم ما بدأناه من حديث في الشّأن السّياسي:

- ذكرت الطّاقة النّظيفة، الغاز العربي هو هذه الطّاقة النّظيفة، أليس كذلك؟

- وقد شقّت صدري تنهيدة تنفلج لها قمم الجبال:

- نعم ثروة كبيرة من الغاز وخاصّة بالجزائر وسوريا، لذلك المحنة السّورية تزداد تعقيدًا. وخيوط العنكبوت تنسج حول الجزائر. (سعلتُ ثلاث مرّات..) ثم أردفتُ:

- تحدّثنا كثيرًا ولم تشرح لي كيف تعرفين كلّ هذا وأنت على جدار؟ لا تقولي من أحاديث السّاسة وهم يقفون أمامك ليشاهدوك؟ فهم لا يقفون أمام لوحة واحدة. وهنا قد يفوتك الكثير من الأحاديث المهمّة والرّابط بينها.

-الكثير من السّاسة أو من الخبراء في الجوسسة يصطحبون إلى المعرض الوطني بواشنطن زوجات رؤساء حكّام بعض الدّول في العالم، الغاية من الزّيارة أوّلا وكما تعرفين إظهار المركزية الثّقافية. أمّا الغاية الثّانية فإبراز عناية المواطن الغربيّ مهما تكن اهتماماته، أو الطّبقة التي ينتمي إليها بالثّقافة

والفنون بمختلف مشاربها. في حين أنّهم في الغالب لا يفقهون من الفنّ شيئًا. وفي إحدى المناسبات جاء أحدهم برفقة إحداهن وتحوّل الحديث من الفنّ إلى مغازلة. وهو يقف أمامي مباشرة، نسيَ أن يغلق أحد أعداد مجلّة القوّات المسلّحة الأمريكية أرمند فوسز جورنال. فاستطعتُ قراءة مقال حدود الدّم بالتلصّص على محتواها.

شاطرتها الرأي:

- نعم عديد المجلاّت التي تتحدّث باسم السّياسة الأمريكية مثل وول ستريت جورنال، وألتايم،والشّرق، وكومنتاري، وغيرها كثير.

بلهجة المتهكّمة سألتُ:

-خلتك تجهلين هذا، ولا همّ لك إلاّ هذا الكتاب الذي بين يديك أيّتها المرأة الرّسم؟

بتعالٍ كان ردّ المرأة الرّسم:

- أعرفُ ما لا تعرفينه، أنا عشت ردّها من الزّمن في المعرض الوطني للفنون بواشنطن.حيث تُحاك الكثير من المخطّطات السياسية للسّيطرة على

العالم العربي.أتعرفين يلتقي عديد السّاسة القادمون من بعض الدّول ذات التوجّه الاستعماري والمتبنّون لإستراتيجية الهيمنة في المتاحف، يلتقون كذلك في القاعات الرّياضية، وفي ملاعب الغولف، والمسالك الصّحية. يلتقون لغرض ظاهري وهو الاستمتاع بعطل سنوية، واغتنامها للرّاحة والترفيه عن النّفس، وللشّعور بالاستجمام. في حين أنّ الغاية الخفية اللّقاء؛ مباحثة أخطر الخفايا السّياسية.

في أريحية هذه المرّة، وأنا ألعب بأطراف خصلات شعري:

- نعم وتصديقًا لكلامك أيّتها المرأة الرّسم أضيف أنّني أعرف ذلك. بحكم أنّني كنت أشتغل بالخطوط الجوّية العراقية ،كنت كثيرة السّفر، ومحبّة للمتاحف، وقد لاحظت ما كنت تذكرين.

كثيرا ما سمعت ساسة يتحدّثون في شؤون الشّرق وهم يبتسمون أمام لوحة من لوحات بعض المتاحف. الشّيء نفسه يُنتهج سواء في أمريكا أو بريطانيا أو فرنسا أو روسيا. باختصار في الدّول الاستعمارية الفاعلة في السّياسة العالمية، يزورون المتاحف ويتظاهرون بانبهارهم بجمالية الفنون واللّوحات الفنّية خاصّة. للأسف هم غالبًا لا يفقهون من تلك اللّوحات ولا من الفنّ شيئًا.

كنتُ أسافر كثيرًا في عواصم العالم ولا أفوّت فرص الاطلاع على السّمات الثّقافية لتلك العواصم. أغرمت بذلك منذ صغري. أبي كان أستاذ تاريخ، وكان كثيرًا ما يحدّثني عن حضارات الشّعوب وثقافاتها.

لكن انتظري، تحدّثتِ عن فريق فولكهام، يعني مواكبة لعصرنا بكلّ حيثياته، ولست فقط لوحة على جدار، إذا..هه..لا بأس بك إذًا؟

تستعرض المرأة الرّسم ما تعرفه عن الموضوع:

- أليس فريق فولكهام هو الفريق الذي ينتمي إليه بوش لتنفيذ مشروع معاهدة سايكس بيكو الجديدة سايكس بيكو جديدة بخارطتها الجديدة. ومن يتزعّم نظرية تطبيق المشروع اليهودي المتأمرك لويس برنار؟

اليوم الخامس لجوري وجمال معنا. كنت قد رفضت أن يمكثا عندي بعد الموقف المخجل الذي رأيتهما عليه اللّيلة الأولى، إلّا شريطة أن تنام جوري معي وينام جمال بغرفة زيدون. ونجحت حسب علمي في إبعاد الزّيت عن النّار ليلا. أمّا بالنّهار فهما غالبًا ما يكونان خارجًا.

الرّابعة والرّبع مساء، بعد أن تناولت حساء حارًّا لعلاج رشح أنفي، جلستُ أطرّز قبّعة صوفية زرقاء لأوّيس.

-ترررررررن..ترررن...تررررررررررررررن

-قادمة.

-مرحبًا.

-كيفك جمال؟ كيف كان يومك؟ آه..لا أرى معك جوري..أين هي؟

-جوري اللّعوب..انفصلتُ عنها. رجعت إلى منزلها وكنتُ سأفعل. لكن خشيت أن تقلقي علينا فأردت أن أخبرك قبل أن أغادر.

- ما الذي جرى وأنتما على انسجام كبير وهي وَلهى بك؟

- هههههههههه...ههههههههه..جوري ولهى هههههه..قولي شيئًا آخر.

- لا أفهم.

- جوري ولهى بملذّاتها ليس إلاّ، جوري تخونني.

- ماذا؟ خرجتما معًا صباحًا؟

- نعم وتنصّلت منّي بحجّة شأن لها مع المزّينة. أمّا عنّي فقصدتُ المقهى لمواعدة صديق قديم وعندما لم أجده قلت أتمشى قليلًا.

- وبعد؟

- وبعد..إم.آه..الشّيطانة...رأيتها تدخل خرابة مع أحدهم، تنصّت عليهما

وسمعتها تغازله كما تفعل معي.

- ماذا سمعت؟ لعلّك فهمتَ خطأ فكل المباني خربة بعد الحرب؟

-آآآه اشتقت أن أنام بحضنك (هذا ما قالت) كم أنا مغفّل!

وبعد:

-ارتمت في حضنه وهي تقول:

-دفّئني بأنفاسك والتهمني بشفتيك.

- آه صبريانا ..لقد ضبطتُ جوري الولهى بحبّي في وضع أكثر خجلًا من الذي ضبطتنا أنت فيه. آه الخائنة، اللّعوب، تبّا لها، اللّعينة.

حاولت أن أهدّئه لكن دون جدوى. دخل غرفة زيدون وأقفل على نفسه. لم أشأ أن أقتحم عزلته لعلمي ما به من أشجان وألم. ولمّا عاد زيدون من الورشة أشرت عليه ألّا يحدث ضجّة عند إيوائه إلى سريره ففعل.

في حين طال بي السّهر أمام شاشة التّلفزة. لم أجد ما يمكن أن يشدّ اهتمامي فنهضت أُطفئ جهاز التّلفاز للمغادرة إلى غرفة نومي، حيث يغطّ كلّ من أمّي

وأوّيس في نومها. لكن صوت المرأة الرّسم استوقفني من جديد، وأجبرني على الجلوس من جديد قبالة القارئة. في الحقيقة كنتُ أودّ ذلك لأنّ النّوم يجافيني.

- تطرّقنا سابقًا إلى أنّ بعض السّاسة الذين يزورون المتاحف يأتون للحديث في الشأن السّياسي وخاصّة السّياسات الخارجية. أعني التّخطيط للغزو، والاستعمار المباشر وغير المباشر. ووضع اليد على ثروات هذا البلد، أو ذاك، وتأديب هذا البلد أو ذاك. تعرفين عاقبة رفض تطبيق ما تمليه أمريكا ضمن السّياسة الدّاخلية أو الخارجية لبلد ما. أتذكرين تصريح زيجينو بريجنسكي في مجلّة القوّات المسلّحة الأمريكية أرمند فوسز جورنال؟

أومأتُ برأسي وأنا أجيب بعد أن زممت شفتَيَّ رافعة حاجبيَّ في حُزنٍ كبير يترجم خطورة المسألة:

-تقصدين مقال حدود الدّم الذي تحدّث فيه مستشار الأمن القومي الأمريكي بريجنسكي؟ كان ذلك المقال عن ضرورة الإسراع لإشعال حرب خليجية أخرى. نشر إبّان احتدام الحرب العراقية الإيرانية، ودعا لتطبيق مشروع معاهدة سايكس بيكو الجديد، المشروع نادى به لويس برنار كما ذكرت .

تحتجّ المرأة الرّسم مرّة أخرى:

– صبريانا ألا ترين أنّ الحديث في السّياسة مملّ وقد أطلنا؟

–بلى معك حق، دعينا من السّياسة .

– المرأة المثقّفة جدًّا أيضًا مملّة لنعد إلى قصّة صابريانا الأصل ضاحكة) أعني قصّتك).

ضحكنا معًا.

–اسمعي صبريانا..عندما أنزلق إلى أحاديث السّياسة استوقفيني أرجوك (وهي تضحك). لا أريد للسيّاسة أن تفسد متعة القراءة لديَّ،كما تفسد حياتكم على أرض الواقع. لستِ ضفدعة خضراء ولا ضفدعة غبية.. أرجو الصّفح، لم أقصد ذلك.

–أعتذر منك، سأتيقَّنُ من إحكام غلق الباب.

– وسأنام..تصبحين على خير.

–تصبحين على خير.

الباب الثالث

ومِنَ الحُبِّ ما قَتَل

منتصف النّهار قبل قليل. أذّن لصلاة الظّهر. بعد دقائق سيعود زيدون. عليَّ أن أجهّز الغداء. وجبة سريعة تكفي لذلك. هه.. أسمع الباب الخارجي قد فُتح وأُغلق أظنّه هو..أووف..ليس هو.

-مرحبًا صبريانا.

-مرحبًا جمال، استرح دقائق ويحضر الغداء.

-طاب يومكم.

-هه حضر زيدون، طاب يومك بُني، اغتسل وبدّل ثيّابك ريثما أجهّز الغداء.

-ماذا ستجهّزين؟ أمّي إنّني جائع.

-خبز عروك مع سلطة الشّمندر. المكوّنات حاضرة وجاهزة بالثلاّجة للطّبخ.

-شكرا أمّي..أحبّ الخبز عروك.

– هنيئًا مسبقًا بُني..لن أستغرق وقتًا طويلًا.

مع الثّالثة بعد الزّوال خرج كلّ من زيدون وجمال، أمّا أمّي فكعادتها ساهمة في غرفتها.

جهّزت لنفسي شايًا بحليب، وجلست أرتشفه بتؤدةٍ وحبٍّ كبير. متنقّلة بين محطّة فضائية وأخرى.

تنحنحت المرأة الرّسم مرّة وأخرى دون أن ألتفت إليها.أخذت كتابها المفتوح فوق حجرها وانتظرت موافقتي وهي تحدجني بعينيها المستفسرتين .فرأيتها فرصة لتمضية الوقت، قلت للمرأة الرّسم:

–المعذرة واصلي قراءة كتابك، أذكر أنّك توقّفت عند حادثة الطّائرة التي سقطت بناظم. كما تحدّثت عن إخباره لصبريانا تلك (أعني صبريانا الأصل)، بأنّ ناظم قُبيل وفاته بأيّام قضّاها في الفراش على إثر حادث سقوط الطّائرة، عرف حقيقة مشاعر حبيبته صبريانا نحوه.

وهي تحكّ أرنبة أنفها، وتحرّك رقبتها يمنةً ويسرةً، تستأنف المرأة الرّسم القراءة بصوتٍ عذب وأسلوب مشوّق، مُتعرّضة إلى الحوار الذي دار بين شبح ناظم وصبريانا:

-عند سقوطي من الطّائرة وأنا في طريقي إلى بريطانيا للعلاج انتابتني حالة غريبة.نعم غريبة جدًّا. لقد استمعت إلى أصوات جاءتني مشوّشة في البداية. لكن عندما ركّزت معها علمت عدّة أشياء، عدّة أسرار. عرفت كلّ أسرارك صبريانا، وسمعت كلّ حديثك طوال حياتك. كما عرفت أسرار الخونة، المرتزقة، والدكتاتوريات. فهمت جيّدًا الرّوح الاستعمارية في هذا العالم.لقد عرفت أسرار دوّل، ومخطّطات، واستراتيجيات، ومافيا، ومعسكرات.

-ماذا ؟ ناظم حبيبي ..هل شوّشك القبر؟

-لا أبدًا.....هي ذكرياتي الأليمة في تلك الدّيار..أعني عالمكم معشر مَنْ تعتبرون أنفسكم أحياء .في تلك الحادثة، حادثة السقوط من الطّائرة، أصبحت أسمع بقوّة رهيبة تفوق سرعة الضّوء.لذلك سمعت تقريبا كلّ الحديث،و كلّ الكلام من أوّل ما ابتدأت الحياة على البسيطة، وكلّ البرمجيات الصّوتية التّي تسبح في الفضاء منذ آدم وحوّاء إلى ذلك الوقت.

-مستحيل!

(بلهجة المتشكّكة)

-أتريدين أن أبرهن لك على صحّة كلامي؟ إليك أحاديثك المازحة مع صديقتك نوال بالجامعة، وكلّ ما كنت تقولينه أيّام شبابك.

-صدقتك ولكن..

- نعم ولكن...مشيئة الله أن يمنّ علي بتلك الموهبة الخارقة للعادة.كانت هدية من السّماء في أخريات حياتي. لأعرف وأنا نازل إلى الأرض، في حادث سقوط الطّائرة أنّك أحببتني مثلما أحببتك أو أكثر. وأعرف أنّك تألّمت مثلما تألّمت أو أكثر. كان ذلك عزائي ومصيبتي في الوقت نفسه .

-إذا فقد عرفت؟

- نعم.

(بكلّ أسف وحزن).

-أتعلم ناظم.. منذ رحلتَ رحلتُ معك، ولا أدري ماذا يفعل في هذه الدّيار الجسد. قلبي عندك، روحي عندك، وتاريخي عندك، وما تبقّى لا يهمّ. خمسٌ وعشرون سنة وأنت العصا التي تدلّني على الشّوارع والمدن، واليد التي تهديني زهورًا وردًا، وكُتبًا.

أتعلم مرّ عيد ميلادي هذا العام والعام الذي قبله، والسّبع العجاف من قبله، والعام الذي سبق. انتظرتُ طويلًا أن يقول أحدهم عامك سعيد. أن يدقّ بابي أو يرنّ هاتفي ولكن إلى الآن أنتظر.

عشرة أعوام مرّت وأنا أنتظر أحدهم يفعل ما كنتَ تفعل. حياتي معك كان لها طعمٌ مختلف.حياتي معك كانت بطعم أفتقدُه الآن بشدّة كنّا نتحادث ونتجالس ونتثاقف، ونقرأ الجرائد والمجلاّت والكتب معًا. كنّا نتبادل أخبار النّاس والعالم والأدب. ها هي غزّة تحترق بعدك وأبكي وحدي في عزلتي أطفالًا، ونساء، وشبابًا من ذلك القدس المغتصب. وها هو العراق في حرب أهلية طاحنة. أمّا سوريا فهي تتصحّر بامتياز بفعل جريمة إنسانية كبرى.

حدّثتني طويلًا عن حنظلة ناجي العلي ومرارته، وعن تدفّقها في شرايين الأجساد علقمًا ونارًا .

صبريانا (أقصد صبريانا الجدّة ولست أنت..هههههه...) وهي تفرك جبينها بيدها مطأطئة رأسها برهة ثم ترفعه مواصلة حديثها مع شبح ناظم الذي دفن ذلك العصر:

-آه..عمومًا سعدتُ قليلًا بمعرفتي أنّك عرفتَ سرّي قبل موتك وخفّ مصابي.

سألها الشّبح:

-ما مُصابك؟

وكأنها تتنفّس الصّعداء:

-أنّك متّ وأنت تجهل أنّك حبّي الوحيد.

الشّبح في سخرية:

-ذاكرتك تخونك .. أنت أيضًا اِعترفت لي وأنا أنازع بعد سقوطي من الطّائرة مباشرة كما تعلمين. تَذْكُرين بقيت عدّة أيّام أنازع، وتحسّنتْ حالي لساعة عقدت فيها قراني عليك. لقد اِعترفت لي وأنا على فراش الموت أنّك تحبّينني. أنسيتِ ذلك؟

قاطعته بسرعة:

-والآن..؟

-ماذا الآن؟

-أنا هنا وأنت هناك..يا إلهي! ما هذا العذاب؟

الفصل الثالث:

الباب الأول

الفرصة المعجزة

طول المساء لم تصمت المرأة الرّسم وعيناها لم تفارقا كتابها، أمّا عنّي فمُصغية لها باهتمام:

-اكتشفت صبريانا (الجدّة) أنهّا تتحدّث إلى رجل دُفن قبل ساعات قليلة من ذلك اليوم. وهي تدرك تمام الإدراك أنّ الطبّ الشّرعي، المجتمع شرّعوا موته، ودفنه، ففغرت فاها. غير مصدّقة ما حصل. وعرف شبح حبيبها ناظم بحكم معرفته الطّويلة بها في الحياة الدّنيا ما يجول بخاطرها، فحاول تهدئة روعها. وطال الحوار بينهما رغم إجاباتها المقتضبة جدًّا:

-تتساءلين: كيف تتحدّثين إلى ميّت بنظرك؟

-نعم.

وقد أدرك كم اِختلطت عليها الأمور:

-ولكنّك فعلًا تتحدّثين إليَّ.

-نعم.

-وأتحدّث إليك.

-نعم.

- أنت حقيقة.

-نعم.

-وأنا حقيقة.

-نعم.

-أنا موجود وأنت موجودة.

-نعم.

-إذًا أنت فاعلة.

-نعم.

-وأنا فاعل.

-نعم.

-حتميّة وجودك موجودة وحتميّة وجودي موجودة.

-نعم.

- نعم ..نعم .آليًّا..تردّدين نعم. هذا جيّد منك، وخطوة إيجابية، ولكن سأبرهن لك على صحّة استنتاجي النّابع من تماهى قلبي مع قلبك. منذ ربع قرن والقلب يعشق الرّوح كما يعشق الجسد.

-نعم.

- بعض جسدي مع جسدك، كما بعض روحك مع روحي.بعض روحي تزاوجت مع بعض روحك وروحك مسكنها جسدك.

-إذًا أنت هو؟

-أوتشكّين في ذلك؟

-لا..لا..ولكن.

-موتي وكفني وجنازتي؟

-نعم.

-كلّها أوهام، أوهام أهل الدّنيا.

-أَوَلَمْ تمُت؟

-موتي جزئيّ.

-وحياتك؟

-حتمية.

-إذًا أنت حيّ؟

-نعم.

- يالله ما هذه الفلسفة؟

-أنا حيّ في كلّ مكان عرفناه معًا، في المبادئ، والقيم، والمعارف، وإنجازاتنا، وأعمالنا المشتركة، وفي أعمالك،إنجازاتك اللّاحقة.

-فهمتُ والله فهمت واقتنعت. أنت حيّ، نعم حيّ. يجب أن أفرح، أرقص، وأزغرد. يجب أن أُكفكف دمعي الجاري، لأغسلَ حُزن قلبي بهذا الفرح الغامر. أنت حبيبي الغالي وستبقى.

(بصوت هستيري).

-أو ستزورينني مرّة أخرى؟

-إن كنت ستحافظ على موعدك معي لا مانع لديَّ من الحضور كلّ ليلة.

-كنت أعرفُ طوال حياتي أنّك امرأة استثنائية وأنّ حبّك استثنائي. أنت امرأة حياتي صبريانا. أنت حزني وفرحي، وأنت ما عشتُ من العمر في تلك الدّيار.

-وأنا الآن معك وكما كنت دائماً، ولن أفوّت فرص لقائك.

-وأنا بدوري سأنتظرك كلّ ليلة.

تواترت أحداث الرّواية وتشعّبت وشعرت المرأة الرّسم بالتّعب. تململت في مكانها محرّكة رأسها يمنة ويسرة، عندها اِغتَنَمْتُ الفرصة لمقاطعتها:

-إذًا هي الأخرى قد ذهبت إليه بعد دفنه كما فعلت أنا؟(وأقصد هنا صبريانا الجدّة التي عاشت في القرن الثّامن عشر).

قرأت المرأة الرّسم بعد أن قلّبت عدّة صفحات من الكتاب الذي بين يديها:

-عند آخر حفنة تراب وضعوها على قبره غادر الدّافنة المقبرة مطأطئين الرؤوس. يجرّون أرجلهم جرّا، الحزن يغطّي الوجوه، والعيون متقرّحة من كثرة الدّموع. عادوا إلى بيت والديه ليقدّموا التعازي لأمّه وأبيه وإخوته. ثمّ تجمهروا حول طاولات وموائد ليأخذوا نصيبهم ممّا صُفَّ عليها، من لحم خروف محمّر، من طواجن وسلطات ومشروبات غازية وشاي مع أفخر المكسّرات.

أرجعت المرأة الرّسم خصلة من شعرها إلى الوراء، أمّا أنا فتذكّرت جنازة حبيبي ناظم. تذكّرت كيف كنت أشاهد ما يحصل في الجنازة بألمٍ كبير. يومها قلتُ في سرّي:

– يا لهذا الإنسان كم هو سريع النّسيان! منذ ربع ساعة كان الكلّ يبكي وينتحب ويُعدّد خصال المرحوم، ويتحسّر على شبابه. وحال مواراته التّراب، وحال عودتهم انهمكوا في المأكل والمشرب، وفي الهمس، والهمز، واللّمز، والضحكات المكبوتة والمعلنة.

تذكّرت أيضًا ما دار بيني وبين العجوز، جارة عائلة ناظم التي كانت يومها تجلس قبالتي. علامات اللّوعة على فَقْد ناظم كانت بادية على وجهها الحزين. رغم الذّاكرة المتّقدة عند تلك العجوز. فقد تجعّد وجهها كحبّة تين ذاوية، وأدارت أسنانها. اِبيضّ شعرها ولثم ثدياها أسفل بطنها المتهدّل، وتقوّس ظهرها، واِنحنَت رقبتها إلى الأمام. أتذكّر كلماتها وكلّ ما دار بيننا من الحديث الذي افتتحته العجوز بجملة ورثتها عن الأجداد:

–رحم الله ناظم. الله حقّ.. والموت حقّ. والنّسيان حقّ.

–رحم الله ناظم. الله حقّ.. والموت حقّ. والنّسيان حقّ.

–نعم يا اِبنتي الموت حقّ. كلّنا سنغادر وكما بكينا ناظم سيبكون علينا ويُبكى عليهم.

(وقد تهدّج صوتها من مرارة الحياة).

وتذكّرت تعليق زوجة أخي ناظم وهي تمسح دمعة تنزل من عينها اليسرى؛ مخافة أن يشاهدها أخوه المريض رأفة بحاله:

-عرفته قبل أن أعرف زوجي، وكان طوال حياته خير الأخ وخير الصديق. ناظم خير من يعرف حقّ الصداقة وخير من يقدّر قيمتها. كان مفتاح أسراري وقفلها. لم يخذلني يومًا، ولم يتنكّر لجميل ولم يَخُنْ. لذلك أبكيه كأخ وليس كشقيق لزوجي. يا لله كان أقرب من زوجي إليَّ.

استطردت العجوز:

-أعرفه منذ اليوم الأوّل لولادته، كنت جارة لهم سنينًا. كانت والدته مريم صديقتي منذ كانت شابّة. تعاشرنا على الحلوة والمرّة. كانت لمّا تغضب من زوجها أو حماتها تغادر بيتها لتقيم عندي أيامًا ولأكثر من شهر أحيانًا. كذلك كنت أفعل، حتّى أنّ زوجي سي حسونة رحمه الله وزوجها عبد الهادي أصبحا صديقين. باختصار كنت أعرف ناظم منذ كان صبيًّا صغيرًا. لقد كان محبًّا للجميع، وكنتُ أحبُّ أخلاقه الدّمثة، اِبتسامته الحييّة، براءته، حِلمه. كان ولدًا بارًّا بوالديه، مُحبًّا لجدّته وإخوته، مُتسامحًا ومُتصالحًا مع نفسه ومع الآخرين، كان زينة أولاد الحيّ. كنت أجدُه وسيمًا بسمرته المحلاّة بحمرة وبعينيه السّوداوين الواسعتين الكبيرتين، وشاربيه الكثيفين، وشعره الأسود

الفاحم الذي كان يمشّطه إلى اليمين قليلاً، كان زينة ما أنجب الحيّ. رحمه الله كان كثيرًا ما يقيم عند جدّته ولكنّه لا يغيب عن الحي.

كلّ فتيات الحيّ كنّ تتسابقن لكسب ودّه وحبّه. حتىّ عائشة اِبنتي، زوجة القاضي سامي القربوص اِبن الحيّ المجاور، كانت مغرمة به قبل زواجها، سعت جاهدة للفْتِ اِنتباهه إليها، كنتُ أُشجّعها على ذلك لعلمي بحسن أخلاقه وطيب معشره، لكنّه كان يعتبر نفسه مجرّد أخٍ لها. أنت تعرفين ابنتي عائشة، أليس كذلك؟

أيّدتُ كلام العجوز بحركة من رأسي، لكنّ العجوز لم تقنع بإيماءة الرّأس وبقيت شاخصة إليَّ، تنتظر منّي جوابًا. ففهمت مغزى نظراتها وأجبتها:

-نعم.. نعم أعرفها. هي طويلة، هيفاء، شقراء، إنّها جميلة جدًّا، عرفتها ليس في الحيّ وإنّما في الجامعة. فقد كانت ناشطة جامعيّة وذات كاريزما، قياديّة وسط زملائها ورفاقها، حتّى أنّني قلت ذات مرّة بأنها متسلّطة.

اِبتسمت العجوز رُغم الظّرف الحزين وقد أعجبها رأيي في اِبنتها، مستأنفة حديثها عن ناظم وابنتها:

-كان خير أخ لها، وقد صارحها ذات مرّة حين اِعترفت له بحقيقة مشاعرها بأنّ طباعهما المختلفة جدّا لن تجمعهما كزوج وزوجة.

سكتتْ برهة، تأمّلتْ وجهي وأردفت:

- لا أنكر أنّي حزنت جدًّا حين علمت بما قاله لابنتي. لكن الزّواج كالموت بمشيئة الله اِبنتي تزوّجت سامي قربوص الذي يعمل قاضيًا، وهي سعيدة معه وقد أنجبت ثلاثة أطفال رحمه الله. لقد بكَيتُه كولدي. ظلمته الحياة طويلًا .ثم ها هو يموت هذه الميتة . مسكين ناظم ..آه..ما أظلمك يا حياة!

الباب الثاني

لقاءُ الرُّوح بالرُّوح

بعد طول استماع إلى المرأة الرّسم وهي تسرد قصّة صبريانا وناظم وبعد أن ذكّرتني بحيثيات جنازة حبيبي المتوفَّى. أحسستُ بالتّعب وأحسست أكثر بالعطش. خطوتُ بضع خطوات نحو زاوية المطبخ الذي هو في ركن قصيّ من قاعة الجلوس التي كانت على الطّراز الأوروبي. شربتُ كأس ماء بارد من الثلاّجة الفضيّة، وأعددتُ لنفسي فنجان قهوة. استطلعت من النّافذة حركة الشّارع؛ أسفل شقّتي مراقبة المشهد من فوق. مكثت أمامها لأكثر من ساعة وأنا لا أعلم أنّ خصلة من شعري صارت كحبل رقيق من كثرة ما فتلتها بغير وعي بين أصابعي.

عندما هدأت حركة الشّارع، عدتُ إلى مقعدي وأنا على علم أنّ صاحبة الرّسم قد قرأت عدّة صفحات من كتابها. أرهَفَت السّمع إليها:

-حين علمت بموته بكيتُ كما لم تبكي أيُّ امرأة في التّاريخ، ورثيته كما رثت الخنساء رجالها، إلى أن ذوى منّي البصر ونحل منّي الجسد.

أدركتُ حينها أنّ البطلة (صبريانا الجدّة.. بطلة الرّواية التي تقرؤها المرأة الرّسم) عادت إلى المونولوج الدّاخلي، وإلى حديثها مع نفسها. سألتُ المرأة الرّسم:

-هل فاتني الكثير من أحداث الرّواية؟

المرأة الرّسم دون أن ترفع عينيها عن كتابها الذي تقرؤه ساخرة:

-إذا فاتك الحديث قل سمعت، وإذا فاتك العشاء قل تعشيت.

دون أن أعبأ لذلك، حثثتُها على القراءة قائلة:

-وماذا بعد؟ أكملي .. أكملي، قراءتك مغرية .(ورحت أرتشف فنجان قهوتي التي بردت بين يدي).

بصوت حزين قرأت المرأة الرّسم ما دوّنته صبريانا الجدّة، بطلة القصّة التي ورثتُها عن حزنها الكبير لفراق حبيبها الذي مات:

-يوم حملوه في الشّراجع وشيّعوه خِلتُني لن أعيش يومًا بعده من شدّة حُرقتي عليه وفَقْدِه ولوعتي. لكن بعد رجوع من أسرع إلى دفنه تحت التّراب بمقبرة الطرّف الجنوبيّ للمدينة أحسستُ أني أريدُ أن أكون معه في مسكن ما بعد الموت. أن أختبر وحشة الموت ورهبته معه. أن أجلس إليه حتّى يستأنس المكان ويتآلف معه.

جلستُ ساعات وساعات إليه. قارب الفجر على البزوغ، كنتُ سعيدة بذلك المكان ونسيتُ أنّي في مقبرة، وأنّ مَنْ أجلس إليه مات قبل ساعات قليلة.

لم تراودني الرّغبة بالمغادرة أو الخروج، ونسيتُ أهلي وإخوتي الذين سيكونون في حالة بحث وقلق عليَّ. المرأة الشرقية تبقى ضعيفة مسلوبة الإرادة، ولا بدّ لها من حماية اجتماعية وهذه الحماية تتزعّمها العائلة.كنتُ وحدي في طرف المدينة وليلًا، أُجالِسُ وحدي الأموات. ومَنْ سمَّوهم أمواتًا .صرختُ في الفضاء المطبق حولي:

-أأنا ميّتة أم حيّة؟ أأنا من العالم الآخر؟ أم من هذا العالم؟ أأنا موجودة أم غائبة؟ ما الحدّ الفاصل بين وجودي وغيابي؟ وبين موتي وحياتي؟

أجابني صوتٌ أعرفه من خلفي مع يدٍ حنون تربّت على كتفي:

-أنتِ على قيد الحياة. موجودة من ذاك العالم. وأنا حيّ موجود على طريقة هذا العالم، عالمي وعالمك اختلفا ولكنّهما ما ابتعدا، أنا لم أمُت لأنّي حيّ بروحي المرفرفة في الفضاء، وفي الكون، وفي الأشياء التي عرفتُها وأحببتُها، وفيك، وفي روحك، وفي جسدك.

سكتت المرأة الرّسم فجأة. فحثثتُها مرّة أخرى على المواصلة لكنّها احتجّت:

-أليست قصّتك هي قصّتها؟ هاتي ما عِشتِه أنت من مشاعر ذلك اليوم.

-آه أيّتها المرأة الرّسم، بلى، صحيح. هذا ما يبدو. ليلتها سمعتُ حشرجةً خلفي، ثم صوتًا آخر لكنّه أجشّ، فيه بحّة، وفيه بعض ألم .الصّوت الذي أتاني من بعيد أعرفه. صوتٌ ألفتُه. هو صوت جدّي عامر الذي مات قبل موت ناظم بسبع سنوات.

التفتّ إلى شبح شيخ التّسعين سنة، فإذا هو على وقاره نفسه، ورصانته، وحكمته يناديني:

-اِشتقتُ إليك يا ابنتي صبريانا. كيف تنسيني ولا تزورينني؟ منذ سبع سنين وأنا هنا، أنتظر أن تزوريني، الكلّ نسيَني. آه من النّسيان حتّى ولو بعد الموت.

قلتُ مدافعة عن نفسي وعن بقية أفراد الأسرة:

-جدّي أنت تعرف أنّنا نحبّك، ونحنُّ إلى ذكراك ولكنّها مشاغل الحياة. عندما نأتي لزيارة قبرك لن ترانا ولن نراك.هذا ربما ما يؤخر زيارتنا إليك.

لكنّ شبح جدّي احتجّ قائلًا:

- ألا تعرفين أنّ الأموات يسمعون لكن لا يجيبون،ثم ها أنتِ ترينني اللّيلة.

-حدث استثنائي في عالم الإنسان وقد حصل.

وبطيبته المعهودة سألني جدّي، عفوًا شبح جدّي رحمه الله:

-كيف هي أحوال العباد؟

-جدّتي تُوفيت،كذلك إخوتك الثّلاثة. العراق غزته أمريكا، واحتُلّ، وأَخَذَ حُريته، لكن على الورق فقط. البلاد دمّرها العنف وطحنتها الطّائفية بين ورثة بني العبّاس وورثة بني أميّة. سنّة وشيعة، إضافة إلى نِحلٍ ومِللٍ أخرى، وما أكثرها في العراق! هم يتحدّثون عن طائفية وفيدرالية وسيّدة الموقف حرب أهلية.

آه يا جدّي أخبار العراق الذي تحبُّ لا تسرُّ عدوًّا ولا صديقًا .أردتُ أن أضعك على علمٍ بما حَدَثَ بعد رَحيلِك. ماذا سأحكي لك؟ هل أحكي عن المغرب العربي والمشرق العربي اللذين يضطجعان فوق بركان يغلي؟ أم عن فلسطين الملطّخة بالطّين بأيادي أبناء، وإخوة، وعمومة في العرق والدين؟ هه.. من تونس وبثورة الياسمين بزغ بصيص أمل ضعيف في الخلاص. لكن سُرقت الثّورة، ودُهس الياسمين؟ هل أحكي لك عن ليبيا التي تمزّقت كجلد ثور، وغرقت في بركة من دم؟ أم أحكي عن سوريا التي اتفق العالم على ذبحها؟ جروح أخرى وكثيرةٌ فُتحت باليمن، والصّومال، والسودان، وغيرها يا جدّي .لذلك الصّمت أفضل، أحفظُ لماء الوجه..

أبشّرك برحيل القاتل لأطفالنا بعد أن ضربه منتظر بحذائه. ودخل البيت الأبيض رجل أسمر يُقال مسيحي متأسلم أو مسلم متمسّح. ذلك غطاء الديمقراطية الغربية. وقوف على الرّكح وأداء دور المنقذ أمام العالم الثّالث بامتياز. هو الآخر رَحَلَ وترك الكرسي للثّري الأحمق الذي سيزجّ بالعالم في حرب عالمية ثالثة قبل رحيله.

همهمَ شبح جدّي :

-أخبار رهيبة في سبع سنين.

وكان تعليق شبح ناظم:

-الأخبار نفسها ستجدينها بعد سبع سنوات ثانية وثالثة ورابعة. عالم البشر، عالم الاقتتال والمآسي، والدّموع، والدّم، والدّمار، والألم.

رفعت المرأة الرّسم رأسها، تثاءبت قليلًا واضعة يدها على فمها في حركة أنيقة ونظرها يهجم كفريسة على أسفل البناية في الشّارع المقابل. فوق عينيها تراقص حاجباها محاولين القفز إلى الأعلى، مسّدتهما بيدها اليمنى، ثم وضعت الكتاب على المنضدة أمامها، وراحت تتأمّل ملامح وجهي، وقد غرقت في ذكرياتي المؤلمة، والغارقة في العجائبية والغرائبية.

سمعتُ جلبةً كبيرةً بالخارج. أسرعتُ إلى النّافذة فرأيتُ شابّةً، يافعة، في السّابعة عشرة من عمرها. كانت الفتاة تنتحب أمام صورة جدارية كبيرة للشّاعر نزار قباني، رسمها أحدُ المهوسين بالشّاعر على واجهة أحد المحلّات. أرهفتُ السّمع والفضول يدفعني لمعرفة مُصاب البنت .فإذا بالمراهقة بأعلى صوتها تخاطب الصّورة الجدارية التي أمامها:

-بعد رحيلك نزار بعدّة سنوات أدركتُ كم كنت تقاسي وكم كنت تعاني ك...م عشتَ شقيًّا. آه يا صديقي .. أتعس النّاس هم الشّعراء.هم يجمّلون الحياة، يقدّمونها في زيٍّ بهيٍّ. ووحدهم يكتوون بنار الحروف، يصطَلون بحبرِها وهم يبتسمون.

الحياة لم تعطِ الشّعراء غير راحلة السّفر. لم تعطِهم غير العذاب والموت البطيء.كنت أستمعُ إليك، وأستمتعُ، وأقول هذا الطّير الشّادي غنّى للحبّ. كنت أحسدُك يا صديقي نزار على القلب الذي تحملُ، وأقول في سرّي ربّما يجيء دوري وأقع يومًا في الحبّ. ووقعت يا صديقي. أحببتُه وبجنون. كان صاحب عينين زرقاوين مثلك، لكنّه لا يجمّل الحياة كما كنت تفعل. كان ذلك الممثّل البارع، تقمّص دور العاشق المتيّم الولهان، أتعرف ماذا قال حبيبي يا نزار؟ قال في لهجة تحدٍّ:

- اِختاري بيني وبين القبر.

أعجبني ما قال وأرخيتُ لقلبي العنان. أحببتُه بلا زيف ولا رتوش. أحببتُ سيّئاته كما أحببت إيجابياته، ناظم كان حبيبي وكان خطيبي الذي وضع في إحدى أصابع يدي اليسرى خاتمًا به سجنني في بؤبؤي عينيه، قبل موعد الزّفاف بأيّامٍ اِكتشفت فيه الذّئب المكشّر الأنياب. خانني يا نزار.. نعم خانني.

خانني، لكنّه في الوقت نفسه لم يخن غير نفسه، وقلبه، وإنسانيته. رميتُ خاتمه في قاع البئر. دفنتُ قلبي بين الأحجار.لم أعد أؤمن بالكذبة الكبيرة. الحبّ يا نزار كذبة كبيرة. كنت قد أَدْركتَها أنت قبل رحيلك؛ ولكنّك لم تشأ أن تصدمنا.

لم تشأ أن تصدم قرّاءك، أعني نحن، أحبّاء كلماتك في الحبّ ..لم تشأ أن تجعلنا نعيش الوهم الفظيع الذي عرفتَه أنت.

بعد أن عشتُ التجربة واِكتويتُ بنارها، عرفتُ يا صديقي أنّك حين صَرَّحتَ بأنّك أحببتَ عشرين ألف مرّة، لم تحبّ ولا مرّة واحدة. وأنّ بلقيس معبودة قلبك، لم تعد كذلك بعد موتها بسنوات، أنت فكّرت بغيرها. كتبت الشّعر في غيرها، وضاجعت غيرها.

أرثي لحالك يا صديقي كما أرثي لحالي. أنت شاعر الحبّ، تكتشف وفي الأواخر من أيّامك أنّك لم تحبّ. رَنَوتَ طوال رحلة عمرك أن تَعشق، وتُعشق كما ليلى وقيس، كما جميل وبثينة، وكما عنترة وعبلة، و..و..و .. ولكنّ الحبّ الآن يا نزار تغيّر طَعمُه وشكله، تغيّرت طقوسه. وتغيرت وجهته بتغيّر المصالح المادّية، فظيع جدًّا ومُحزن جدًّا ومرّة جدًّا أن تدرك بعد رحلة عمر أنّك لم تعش الحبّ، ولم تعرفه وإنّما عِشتَ الوهم.

كلُّ ما كتَبتَه عن الحبّ زيف يا نزار. لأنّ الحبّ لم يكن واحدًا بالنسبة إليك، والحبيبة لم تكن واحدة. لقد خانك قلبُك يا نزار. الملوم الوحيد هو قلبُك. لقد زيّن وجمّل وقدّم الصّورة التي يريد عن الحبيبة التي يريد في الفترة الزّمنية التي يريد.

آه يا صديقي كم أشعر بالحزن والألم والمأساة من أجلك! لا شكّ أنّ الحبيبة الوحيدة التي عرفها قلبك هي اللّغة. حبيبتك هي اللّغة يا نزار. أنت لم تعشق، ولم تحبّ، ولم تهوَ سوى اللّغة. كلّ ما سواها وهمٌ، وكلُّ ما سواها حُلمٌ جميل، وكلّ ما سواها كذبة كبيرة.

عرفتُ ما حجم مأساتك حين أدركتُ مأساتي، أنا لم أعشق ولم أهْوَ ولم أحبّ. أنا عِشتُ بِامتياز وَهْمَ الحبّ، كما احترف قلبي بِامتياز كذبة جنون

الحبّ، حين بدا لي أنّي أحبّ صاحب العينين الزّرقاوين، أتعلم بعد رحيله ماذا حصل؟ سأقول لك ماذا حصل. بعد رحيله وجدتُني أبحثُ عن حبيبٍ جديد، وعن خطيبٍ جديد يضع خاتَمًا جديدًا في إحدى أصابع يدي اليسرى، وأَسْجُنُ نفسي من جديد في بؤبؤي عينيه.

مجرّد التّفكير في آخر يجعلك تدرك أنّك لم تعش الحبّ. إنّما وهم الحبّ، وهذا أفظعُ شعورٍ أُدرِكه الآن، كما أَدْرَكتَهُ أنت من قبلي، قلبي وقلبك كما قلوبهم مجرّد لعب صغيرة داخل أقفاص صدورنا التي قُدَّت من صفيح ومن نحاس ومن عاجٍ، هي قلوب بلا حياة، مجرّد لعب نلهو بها وتلهو بنا، وهذه قمّة المأساة.

في الأعلى ساح السّواد على السّماء فجأة، فإذا بها ترتدي جلبابًا يمتدّ من عنان السّماء إلى أخمصي رجلي الفتاة المُنتحبة بالشّارع. رماها البرق بخيوطه الفضّية الخاطفة الجميلة فأشاحت بإحدى يديها على وجهها المبتلّ بدموعها. وقفت مترنّحة تحت غربال يَنخُلُ على رأسها البحرَ الأبيض المتوسّط.

اِنفضّ الكلّ من حول الفتاة المُنتحبة بعد أن أغرقت المياهُ أحذيتهم وأسفل بناطيلهم ومعاطفهم. كانت كلمات المواساة تأتيها من النّوافذ التي تُفتح وتُغلق بشكل سريع:

- ما كلّ من يضحك مع النّاس سعيد...ما أكثر من يضحك ونفسه حزينة.
- الأحزان لا يمكن أن تنتهي، والبشائر لا يمكن أن تختفي، كلّ ما عليك أن تدرّبي نفسك على الصّبر عن الأولى، والشكر عند الثّانية.
- أصعب ما على النّفس أن ترى من تحبّ يقع في حبّ شخص آخر.
- لو لم تكن الحياة صعبة لما خرجنا من بطون أمّهاتنا نبكي.
- لو كانت الحياة وردة لنجح الجميع باستنشاق رحيقها.
- إذا كانت لك ذاكرة قوية وذكريات مريرة فأنت أشقى أهل الأرض.

بعد هذا الوابل من الأمثال العالمية، والحكم الإنسانية الشّائعة، جاء دوري لأقول لها قبل أن أغلق نافذتي أنا الأخرى، تاركة الفتاة المنتحبة هائمة على وجهها في الشّارع:

-نحن باقون، وللحلم بقية.

وهي كلمات من قصيدة لمحمود درويش، أردتُ أن أختم بها معها علّني أُرجعها إلى صوابها. فالفتاة كما يبدو متعلّقة بالشّعر والشّعراء، مع أنّي لم أقرأ لها شيئًا ولم يُنشر لها كتاب. لكن ربّما كان لها بعض المحاولات ككلّ المراهقين، تُسجّلها بدفتر مذكّراتها.

كان المساء ثقيلًا، المشهد خلّف جراحًا وندوبًا بنفسي. لكنّني كما أفعلُ دائمًا اجتررتُ مرارتي بصمتٍ. تهالكتُ على أريكتي القديمة؛ التي كلّما فكّرت في التخلّص منها، راودتني فكرة تجديدها. قبل العيد الماضي غطّيتها بقماش جديد، ووضعت عليها وسائد من كلّ الألوان المثيرة لتتناسب وكل الفصول.

كنت أقول دائمًا:

-أريكتي جديدة لَمَ أرمِها، سأحيطها بديكور مختلف، كمصباح جميل يجعل ألوانها تتوهّج، أو لوحة حائطية تمويهية تجعلك تشاهد شلَّال الماء ينزل وتُسمعك خَريرَه واصطدامه بالأرض، أو فرش سجاد يتلاءم ولون الأريكة، أمّا السّتائر فيمكن أن تكون مخملية أو بيضاء عليها بعض النّقوش الرقيقة. كنت أشتري المفارش المستعملة وأستعمل أقمشتها للغرض.

وهكذا في كلّ مرّة أمدّ الأريكة القديمة بعمر إضافي. فأحسّ بالرضا لأنّي أعدتُ تصميمها وجدّدتها بنفسي، أُحاولُ إضفاء مَسْحَةِ بعض الجمال ببيتي، رغم نظريّة جمالية القُبح التي تجتاح بلادي العراق، ومدينتي بغداد، هذه النّظرية التي سوّق لها مشعلو الحرب، وأعداء الجمال، والتّاريخ الضّارب في القِدَم في هذا البلد العريق عبر الزمن.

أسندتُ ظهري إلى الأريكة الشّهيرة التي تكاد تبلُغُ عمر الحدائق المعلّقة كما يقول لي أصدقائي تهكّمًا. فأضحك برضًى كبير من موهبتي في فنّ التصميم والبريكولاج.

عَشيّتها شعرتُ بالإرهاق النّفسيّ الكبير كنت أشتري المفارش المستعملة وأستعمل أقمشتها للغرض. وبالفراغ في عقلي وروحي. لم أستطع أن أركّز على شيء.لم أستطع أن أسيطر على أسناني التي تتماسّ في مباراة شدّ كبيرة وتشعرني بالتوتّر العضلي وبالعصبية. قلبي اِزداد نَبْضُه وتسارَعَ، ضيق في صدري اشتدّ صهيله. الغثيان غالبني، موجة حَرٍّ لفحت كامل جسدي واستقرّت بجمجمتي. فكّرت بكأس شاي بالنّعناع واللّيمون علّه ينفع لحالتي، أو كأس حليب دافئ. بالأخير نهضتُ وأعددتُ كأس بابونج مع شريحة ليمون وورقة نعناع أخضر طازجة.

قبل أن أُدنيَ الكأس البيضاء الشفّافة إلى شفتي نظرتُ إلى محتواها. فبدت لوحة فنّية رائعة الجمال. اللّون الأخضر الطّحلبي المائل إلى الأصفر، واللّون الأصفر المتوهّج، واللّون الأخضر الأدكن في تموّج مُثير. قلت بصوت مسموع وأنا أقذف بكلّ ما في الكأس في أحشائي:

– لو كان أبو نواس هو الذي رأى لون الكأس الآن لقال دون أن يعرف ما بالكأس:

ألا فاسقِني خمرًا وقل لي هيَ الخمرُ ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهرُ
فما العيْشُ إلَّا سكرَةٌ بعد سكرةٍ فإن طال هذا عندَهُ قَصُرَ الدهرُ

بعد ترديد البيتين.. ابتسمت مُهمهِمةً:

-ما لي اليوم أختم نهاري ببيتين لأبي نواس؟ استغفرتُ ربّي وطلبت للشّاعر الرّحمة والمغفرة. فلا يدري بمقامات العباد عند الله إلا هو. ليس لي الحقُّ بتكفيره أو الحكم عليه. ألا تكفي أزمة العصر والنّزعة التّكفيرية التي أغرقت العالم الإسلامي والإنساني في محيطات من الدّم؟ فالفنّ يُبيحُ الكذب وقول ما لا يُفعل، من باب الجمالية والتأنّق في الأغراض والكلمات، أليس أعذب الشعر أكذبه؟

أُذّن لصلاة المغرب فقمتُ أؤدّيها. وألومُ نفسي على عشيّتي التي انقضت في الاهتمام بأحوال الغير وفي مراكمة الذّنوب.

وأنا أُسبّحُ قابلتني صورة لأبي الذي ذهب إلى الدنمارك ومن هناك توجَّه إلى البقاع المقدّسة ليؤدي مناسك الحج. الصّورة التي أحتفظ بها قد التقطها بأيّام شبابه وصنعتُ لها بنفسي إطارًا بأيّام شبابي أيضًا. الآن أنا كهلة وأبي عجوز كنتُ أشتري المفارش المستعملة وأستعمل أقمشتها للغرض. هدَّه المرض وأتعبته السّنون.

استدرت إلى حيث صورة أخرى خلفي مباشرة، كانت قد التقطت له يوم زفافي من ابن عمّتي جميلة. تلك الصورة عكست طيبة أبي ومدى محبّته لي.

هاجمتني نَوْبةُ سُعالٍ، شربت جرعة ماء ووقفت أقارِنُ الصّورتين؛ ماسحةً دمعًا يسحُّ حارًّا على خدّي مردّدة بحبّ وبصوت مسموع:

-أبي حبيبي ترجع لنا بعد حجّ مبرور بإذن الله وذنب مغفور بألف سلامة. آه.. أبي، هل هذه الصّورة الثّانية التي أنت عليها الآن تشبهك؟ تشبه الصّورة الأولى؟

آه..أبي..حبيبي كم أشتاقُ إليك!

لو تخلعُ مَسحة الحزن. لو يترجّل الرّماد عن صهوة زرقة عينيك. لو يضطجع النّخل على عمودك الفقري ويعدل الخريف عن جني عراجينك. لو يكفّ الثّلج عن سرقة لون ضحكتك وهدم جسور ما بين شفتيك. هذه الصّور التي شذّبها الزّمنُ لرجلٍ يُشبهُك أبي. يُشبهني حين أنظر في وجهي. في صورتِك أبي وأنت تُطارد عصافير حقلك. وأنت تتسلّق برج مدينتك. وتصطاف أمّي في بحر عينيك لابسة حلّة من زُرقتهِ، أبي سليل الورد البرّي. ابن السّنابل "ابن النّمارق والبيارق". كم كانت جدّتي تفاخر بوسامتك.

-ترررررن...نرييين..تررررن.

-كم كرهت هذا الهاتف الخلوي!

-تررررررن.تررررن..ترررررر.ترر.

-لا أريد لساعات يومي أن تفسدها ثرثرات الهاتف. لي الكثير ممّا يمكن أن أقوم به في منزلي الصّغير الذي أعتبره عالمي الكبير بنباتات بذور الكتّان وأزهارها الأنيقة، الموزّعة في كلّ فنائه. أنا سعيدة بالعصافير المزقزقة على جدرانه والأرانب التي تنطّ هنا وهناك. كما أُربّي الدّجاج الذي يملأ الأرجاء بنقنقته.

بيتي هو عالمي الكبير في مساحة مائة وعشرين مترًا مُربّعًا، جهّزته أيّام السّلم والرّغد بمكيّف وببيت حمّام كان فاخرًا فيما مضى. لكن سقط سيراميك جدرانه بفعل القصف المتواصل واليومي، سعيدة أكثر بمكتبتي، التي تحتضن كلّ جدران الرّواق، وقاعة الجلوس، وغرفة ولدي زيدون، والمكتب، وغرفة النّوم، وحتّى المطبخ. هذا البيت الصّغير والأنيق، بَنيتُه قبل غزو العراق بسنة واحدة، حين كنت أشتغل مضيّفة طيران براتبٍ مُرتفعٍ.

كنت محظوظة ببيتي الذي لم يَطَلْ القصفُ والتفجيرُ سوى واجهته الأمامية والحمّام، رغم هدم بيت عائلتي الملاصق له ليلة الهجوم على بغداد،

هاجر إخوتي وأبي بعد الحادثة مباشرة مع من هاجر لأبقى مع أمّي المريضة نفسيًّا وابني بالتبنّي زيدون.

-ترررررن...ترررن.

أوف..آلو.....لا يجيب..يبدو أنّها حركة معاكسة من أحدهم. سأرى الفيسبوك ماذا فيه اليوم؟ هذه صفحة أمراض في المجتمع التي أتابعها باستمرار.ههه صديقتي التي تقرأ الكتاب باللّوحة ما زالت منهمكة في بعض صفحات كتابها.

أعذر هوسها بكتابها الذي حملته بين يديها أكثر من قرنين وهي مستندة إلى الجدران الباردة والعيون النّهمة محملقة بها، ذكرت المرأة الرّسم أنّها كانت تبادل تلك العيون النّهمة الحملقة أحيانًا ردًّا على وقاحتها، وتغضُّ الطّرف أحيانًا أخرى، محاولة إخفاء حُزنها بين طيّات كتابها، كتابها الذي لفحه النّور وصار لونه حائلًا بلا إثارة في قبضة إطار ذهبيّ يأسرها ويسرق من عينيها نورهما، كروحها التي ملّت السّجن وانعدام الحركة.

لعقود طويلة ضاقت الدّنيا بما رَحُبَت على المرأة الرّسم. ترنّحت مشاعرها على بوابات قلبها وقفصها الصّدري الذي تشدّه أضلع وجع السّنين. كالمطرقة كان بندول السّاعة يهوي على رأسها. بريق عينيها اختطفته الأضواء الخاطفة،

والسّاطعة في خطوط دقيقة حولها. هذه الخطوط شاهدة على ثقل السّنوات، وعدد اللّيالي الباردة والمتوهّجة أحيانًا بدفء الزّوار وصراخ الأطفال وهي كالصّنم ساكنة.

رغم ذلك عندما كانت الحركة تهدأ وكان الصّمت يخيّم على أروقة المعرض الوطني للفنون بواشنطن كانت تشعر بالضّيق والملل، كانت الكآبة تسيطر عليها في انتظار يوم جديد وزوّار جُدد.

كنّاسة القدر كانت تُخاتل بندول السّاعة والتقويم الزّمني في المتحف. أمّا ظنون المرأة الرّسم فكانت كيومٍ عاصفٍ في هيجانها. طالما قذفت بها خارج المتحف وخارج عيون زوّاره النّهمة أحيانًا واللّامُبالية أحيانًا أخرى.

صمتت المرأة الرّسم فجأة، في حين توجّهت إلى المطبخ لتجهيز العشاء.

-مرحبًا صبريانا.

-مرحبًا جمال.

بخطوات ثابتة وئيدة تقدَّم باتجاهي وبيده فنجان وسيجارة. وَضَعَ الفنجان على المنضدة أمامي والسيجارة بالمنفضة. بقامته الفارعة دون امتلاء على خلاف رجال الشّرق. اعتدل في وقفته كبرج بابليّ شامخ. طوّق خصري

بيدٍ، وباليد الأخرى أبعدَ خُصلة متمرّدة عن عيني. اقترب منّي، اقترب أكثر، حتّى كاد جسده يلتصق بجسدي.

كنتُ ذاهلة، مصدومة، مصدومة منه ومصدومة من نفسي. مصدومة من جرأته، ومصدومة من ضعفي.

همسَ بأذني:

-آه..آه..آه.. أحزاني في الحبّ لا تنتهي، حبّك كالشلاّل المنهمر في جسدي وروحي.

تراجعتُ قافزةً إلى الوراء:

-على مَهَلٍ ..على مهل. من أين أتيت بهذا الحبّ وبهذا العشق وبهذا الغزل؟ قبل يوم فقط كنتُ مع جوري وكنت تتوجّع من خيانتها؟ وقد اعترفت بحبّك الكبير لها. لا تجعلني أطردك من بيتي. الزم حدّك. أنت قريبي ولا داعي لهذه الذئبوية التي تتصرّف بها معي. هذا جزاء استقبالك في بيتي.

-كم هي صعبة تلك اللّيالي التي كنتُ بعيدًا فيها عنكِ. أنا يا صبريانا لم أعشق ولم أحبّ سواك. وما جوري إلاّ سحابة ركبتها لأرى النّور في الضفّة

الأخرى من اللّذة الزّائفة. فقط لأنساك. لأنساك أنتِ. لستُ أدري ما الّذي يتميّز به المرحوم ذاك..ما اسمه؟ آه..ناظم. ما الّذي يتميّز به ناظم عنّي لتعشقيه طول عمرك؟ كم هي صعبة وشاقّة تلك اللّيالي التي كنتُ أبحثُ فيها عن طيف صدرك لأحنو إليه ويضمّني؟ بين أهدابي نقشت صورتك سنينًا. أنت الآن عزباء، ما الدّاعي لأن أخبئ مشاعري أكثر؟ أنا أحبُّك، نعم أحبُّك، من العذاب أن تحتاج من لا يحتاج إليك. وأن تحبّ من لا يشعر بك.

-لا تقلبها ميلودراما. أرجوك..اخرج .اتركني وحدي..أرجوك.

-صبريانا..

جمال ..أرجوك..أرجوك أخرج..

خرج جمال..وتهالكتُ على الأريكة في عصبيةٍ وحزنٍ كبيرين..

جلستُ على طرف الكنبة وأنا أقضم أطراف أظفاري من الغيظ.

-ترررررررن..تررررررررن...تررررررن.

ها..إنه الهاتف..لن أُجيب..لستُ بمزاج يسمح..

-ترررررن..ترررن..ترر..

-لا تنقصني في هذا اليوم إلاّ ثرثرة الهاتف..ههه..الآن..لن يرن.. فصلتُ الخطّ. سأعدّل مزاجي بكأس بابونج، لا لن أفعل، لا أقوى على القيام والوقوف ولو دقيقة في المطبخ. أظنُّ أن عندي أقراص كالسيبروناط، هي معدّلة للمزاج، أين هي..؟ تركتُها هنا في درج صغير يتوسّط طاولة على يساري بجانب الكنبة التي عليها أجلس؟ آهاه..ها هي، لم يتبقَّ بالعلبة إلاّ قرص. الحمد لله وجدتُ واحدًا..سأذوّبه في هذه الكأس من الماء أمامي.. (بلق) (كششششش..كشششش).أخيرًا ذاب. (هوووب)..(هووب). لاذعة لكن أتيت على كلّ الكأس. سأستلقي الآن، لعنك الله جمال، عكّرت مزاجي، وخلخلت توازني.

غفوتُ قليلًا أملًا بقيلولة مُريحة، لكنّني لم أفارق روحي الضّجرة، الضّاجة بأحزانها. أفقتُ على صوت المنادي لحضور جنازة رئيس منتدى المخترعين العراقيين ومؤسّسه البروفيسور حازم الدرّاجي، العضو العراقي الوحيد في الاتّحاد الدّولي للمخترعين. مات في حريق غامض الملابسات ألمّ ببيته. المسكين ما زال في الخمسينيات. موت الدّراجي خسارة للعرب ككلّ وليس للعراق فحسب. ذهب ضحية مخطّط تصفية الأدمغة العراقية. هو عالم بيولوجي كبير، اهتم بالطّيور.

وأساسًا طيور النّعام..آآآآآآآآآآآه..آه، رَحِمَك الله يا درّاجي. رحم الله أدمغة العالم العربي. أووف، لِمَ الحياة على هذه الأرض تزداد رداءةً؟! أوف.. أوف. سأخرجُ قليلًا، مللتُ هذه الجدران.

-أمّي، أوّيس بالغرفة نائم، سأخرج ولن أتأخّر.

-أين ستذهبين؟ لن أبقى وحدي مع هذا الطّفل الصّغير.

-هو نامَ للتّوِّ، لن أتأخَّرَ، لا تقلقي، سأُغلق باب الشقّة بالمفتاح من الخارج، وسأُكلّمك بين الحين والآخر. لا تبتعدي عن هاتفك الخلويّ، إلى اللّقاء.

طق طق..مللت نزول الدّرج كلّ يوم عديد المرّات. ها هي سيّارة ليالي أمام بيتنا، يا للمصادفة!

-مرحبًا ليالي.

-مرحبًا صبريانا..إلى أين تذهبين؟

-لا أعلم أين والله ..أحسستُ بالملل فخرجتُ.

-هذا حال الأغلبية السّاحقة هنا للأسف.

-طيّب، حسنًا فعلتِ، وأنا مثلك، لكن وجهتي معروفة، هل تذهبين معي في جولة بسيّارتي؟

-يالله "سوق على مهلك سوق" هههههه.

-هههههه لن ننزل من السيّارة لكنّنا سنتجوّل في أحياء بغداد وضواحيها ومعالمها.

-أين بغداد التي نعرف؟

- بغداد دائماً جميلة، أنسيت أنّها تضمّ تراث أكثر من ألف عام. سنذهب إلى ضفّة دجلة من جانب الرّصافة سأُريك آثار مَعْلمٍ زاد عمره عن أربعة قرون.

-أعرف الرّصافة هي المدينة الإسلامية الأولى في بغداد أيّام حكم بني العبّاس، أي بغداد القديمة.

-التجمّع السّكني كان في الكرخ أمّا الرّصافة فكانت معسكرًا تقريبًا ثمّ فيما بعد توسّعت المدينة.

-انظري سوق الصّفافير، وهذه المنطقة تسمّى باب الأغا. هنا تصنع وتُطرق وتُنقش وتُباع الأواني النّحاسية، من كاسات وصحون وملاعق، وأوانٍ منزلية، وفوانيس وغيرها.

-في الجهة المقابلة أيضًا جامع مرجان، وذاك الشّارع هو شارع الرّشيد بمنطقة الشّورجة. انظري..لقد هُدمَ قِسمٌ كبيرٌ منه.

-بالرّصافة أيضًا وهناك على ضفّة نهر دجلة، ما قلت إنّني أريدُ أن أُريّك إيّاه عند خروجنا.

-لا تقولي خان الرّماحي الكبير؟

-نعم هو الخان نفسه، كيف عرفتِ؟

-أعرف أنّك تعشقين معمار الخان، أنسيتِ أنّنا درسنا معًا في المرحلة الإعدادية بالمدرسة المستنصرية. كنّا كلّما مررنا من هنا تقفين مشدوهة، ظننتُك وقتها ستتخرّجين مهندسة معمارية لولعك بجمال المعمار.

- افتحي الرّاديو قليلًا.

-لا نريد أخبارًا عن القتل، والتّفجير، والإرهاب، خرجنا لنُروِّح عن أنفسنا.

-افتحيه.... الرّاديو عند التجوّل بالسيّارة يُعجبني.

- ههه ..أمرك سيدتي ههه، فَتَحْتُهُ .

هنا بغداد، فُجِّرت صباح اليوم ساحة عدن بشمال العراق والحصيلة أكثر من ستّين قتيلًا.

- يا إلهي أغلقيه فورًا. لا أريدُ سماع المزيد.

- قلت لك صبريانا لا أخبار بالرّاديو إلّا وبدايتها بقتل ..فجّر..دمّر، سأسمعك أغنية جميلة تُنسيك قليلًا هذا الهمّ الذي نعيش، إنّها عندي في سي دي. تفضّلي أعطيني رأيك فيها، هذه من اللآلئ الفنّيّة.

"سلّم بعيونك الحلوة
تدري سلام العين قلبي يحبّ سلوى
سلّم ..سلّم ..ما اتسلّم
سلّم على الحيران يا زين ما عيونك
يا وردة البستان الكلّ يحبّونك

***

سلّم على الحيران يا زين بعيونك
يا وردة البستان الكلّ يحبّونك
أهواك يا عيوني يا البيك لاموني
غيرك قلا أهوى

***

سلّم يا ريم البيد
بعيونك أحييني
ممنون الك شتريد أهديلك عيوني
أشكيلك أحوالي ياللّي عذبت حالي"

-الله..الله...هذه الفنّانة العراقية الرّائعة أمل خضير. الله ما أجمل صوتها وما أروع أغانيها.

-فعلًا أغنية رائعة، شكرًا لك. انظري هناك، جهة اليمين. كم هي جميلة تلك الشّناشيل! أظنها ميزة بغداد.

-نعم لبغداد حضارة كبيرة، ألا تذكرين السّاعة العجيبة التي تتوسّط المدرسة المستنصرية والنّافورة الجميلة التي تتوسّط السّاحة؟ كانت أيّامًا جميلة أيّام السّلم والأمن.

-من المضحكات المبكيّات أنّ أبا جعفر المنصور سمّاها مدينة السّلام، ولم تنعم بغداد بالسّلام أبدًا.

-إييه..فعلًا بغداد دائمًا تخرج من حرب تدخل في أخرى، ليالي.. تأخّر الوقت، لنعُدْ.

-فعلًا تأخّر الوقت.

-لنسلك طريقًا مُختصرة.

-هذا ما سنفعل، ما أحوال زيدون الآن؟

-المسكين يشقى كثيرًا في الورشة.

-وأمّك؟

-كما تعرفينها على حالها.

-صبريانا من فضلك ناوليني قارورة الماء القريبة منك، أحسُّ بعطشٍ كبير.

-هاكها..ها قد وصلنا أمام بيتي.

-انتظري ريثما أجدُ مكانًا نقف فيه.هه.. ها هو.. صبريانا حبيبتي... هوّني على نفسِك.

-تصبحين على خير ليالي. شكرًا على الجولة، انتبهي إلى نفسك.

- تصبحين على خير عزيزتي صبريانا.

-أمّي..أمّي..أنا جئتُ. اعذريني التقيتُ ليالي وقمنا بجولة بالسيّارة. أرجو ألَّا يكون أوّيس قد أتعبك بالبكاء.

-لا أوّيس لم يستيقظ إلَّا الآن، ولكن قلقتُ عليك.

-أممه..ما أشهى القبلة على خدّك أمّي. اعذريني جعلتُك تقلقين عليَّ، سامحيني أمّي..أممه..هه.أطالَ اللهُ عُمرك.

الباب الثالث

الأعاصير ..أرواحٌ مُعذّبة

والعالَمُ يَضيق..

كان صوت البومة التي بنت عُشّها على الشّجرة اليتيمة بالرّصيف المقابل لشقّتي أنينًا مُوجعًا، يشقّ بصرخة غاية في الحدّة نسيج الصّدر. بعينيها الثّاقبتين، كانت البومة تفترش بصوتها القلب، وتفترش الرّوح، وتأخذ ما تبقّى من الوعي .

صفحة كتاب الوجوه تزيدني كآبةً، ووجْهي مضخّة حُزن تغمر مسائي وتلوّن غرفتي. فقط صديقتي سجينة الإطار الذّهبيّ يمكن أن تفهمني، وتُدرِكُ ثقل ما يجول بخاطري. الحروف الهاربة على الشّاشة الفضّية تشتغل كالمشرط على وجهي. وجهي صار لوحة مبهمة، لوحة موغلة في السوريالية بألوانها القاتمة المتداخلة. الجراح تنزفُ من كلّ مكان منه، لكن من ينظر لا يرى دمًا .فقط أنا من تحسُّ به وأراه عندما أنظر بالمرآة على الجدار الذي قُبالتي مباشرة. وجهي كوجه دراكولا، ذلك الخرافي مصّاص الدّماء الذي روّجت له السينما الأمريكية، لتروّع صغارنا الذين أصبحوا بعد نيّف من الزّمن رجالًا.

أمريكا .. هذا الاسم المرعب، المُخيف، مجرّد ستّة حروف، ألف بهمزة.. آلام المضطهدين. ميم للوجع المكتوم تروي قصّة السّود، السكّان الأصليين الذين دَحَرَهم المهاجرون البيض واستعبدوهم. الرّاء بنطقها يسمع التأوّه وصرخة الألم المكتوم في الحناجر. ذلك التأوّه هو أنين المستعبدين، عذابهم تذكّر به الرّيح كشريط غنائي يُعاد ثم يُعاد على آلة قراءة الأقراص الصّوتية المدمجة.

في نعيق البومة ذلك المساء، حكاية الأعاصير المدمّرة على المساحة الجغرافية الأمريكية كلّ عام. وهي أرواح من عُذّبوا، وقُتلوا، واغتيلوا من السّود زمن بعث أمريكا القوية. أمريكا البيضاء وليست السّوداء، زمن التمييز العنصري المستفحل في المدارس، والأحياء، والمدن.

هذه الأرواح المعذّبة قد يكون أحدها إعصار " أوكلاهوما" الذي يقتل المئات ويشرّد الآلاف كلّ عام، وقد يكون" أركن سو" الذي يُجبر الآلاف على أن يسكنوا الملاجئ. بعد أن يحرمهم بيوتهم الجميلة التي أخذها الأجداد الغازون من أهلها السّود إمّا أرضًا وإمّا عقارًا. وقد يكون "أيوا" ببروقه القوية، وبكراته الثّلجية الكبيرة التي تقذفها طيور أبابيل.

طيور ثائرة على الظّلم وما يُراق خارج الأراضي الأمريكية وبآلتها الحربية من الدّم. وقد يكون" لينوي" الذي يزحف كتنّين هائج فائق السّرعة على شمالها الشرّقي.

هذه أمريكا، اسم جميل، حروفه وجع وظلم وانبهار بما تروّج التّرسانة الإعلامية والسّينما التي تُمجّد الفرد الأقوى والأذكى والأجمل والأغنى والأقدر على سياسة العالم وقيادته.

وإن ذهبنا إلى حرف الياء في اِسمها؛ نجده يُحيل على معنيين متناقضين، أوّلهما الوجع، وثانيهما الدّهشة والافتخار الذي يصل حدّ الغرور. وفي الكاف تشبيه، وكلّ بلدان العالم تريد أن تتشبّه بها. وفي الكاف تعليل، وهي التي تجد تفسيرًا وذريعةً لكلّ عمل شائن تقوم به، خُذْ مثلًا أسلحة الدّمار الشّامل المزعومة في العراق، النووي في أفغانستان، وقضايا نزلاء سجن أبو غريب بالسّاحة الخضرا، ونزلاء سجن جوانتنامو حسب أمريكا مجرّد إرهابيين وقتلة للشّعب الأمريكي.

في الكاف كذلك اِستعلاء وأمريكا فوق الجميع. فوق المواثيق الدّولية وفوق الأمم المتّحدة، حتّى مجلس الأمن علامة واحدة يعترف بها.. هي علامة قِفْ.. إنّها أمريكا. أمريكا أوّل العالم ونهايته.

يُشير حرف الكاف أيضًا إلى المبادرة وهذا دور أمريكا. أن تكون سبّاقة، بادرة بالجميل والحسنات عند الأزمات والكوارث الإنسانية، هي دائمًا المبادرة، الكريمة وبالعطاء جزيلة. في الحروب بالغَوث إن أرادت المبادرة. أمّا إن عَصَوا أمرها فبترسانتها أيضًا مبادرة، ألف المدّ في اسمها ترسانة إعلامية كبيرة، تغزو العالم وتقلّصه، لتحمِله في كفّك أو جيبك، لتقل إنّها أمريكا.

أمريكا..مجرّد ترديد هذا الاسم إذا لم تعلّل بليّة كبرى .قضيّة قد تُحاكم عليها في محكمة لاهاي، وقد تُسجن بسببها في سجن جوانتنامو. قد يسمع بك العالم ويتزاحم الحقوقيون في التّنديد، أو تذهب لقمة سائغة للكلاب بين أسلاك فولاذية شائكة، تنحت بندوبها في روحك أشهر المواثيق الدّولية التي تُنادي بحقوق الإنسان والحرية والسّلم الدّوليين.

المواثيق ستتذكّرها وأنت بجوانتنامو، هي ستذكّرك بنفسها، بحيثيات بعثها، بتواريخها. ستقول لك بأنّها بُعثت أيقونة في يد الظّالم، ليستبدّ بظلمه ويشرّع نهب أرضك وقتلك. هذه هي المواثيق الدّولية، وهذه أمريكا. لكن الشّعب الأمريكي بريء من كلّ سياسات أمريكا، ولا أظنّ أنّنا نكرهه.

صار الوقت مساء. بعد العشاء وأخْذِ حمّام رجعتُ إلى حاسوبي المحمول، محاولةً دَفْن همومي في شبكاته العنكبوتية .متصفّحةً معرض الصحافة العالمية. حوّلت الفأرة إلى موقع صحيفة أسعى دائمًا لمتابعتها. كانت صدمتي رهيبة،

وكان ذهولي كبيرًا، من الخزي الذي يلفّ الإنسانية، من العبودية الجديدة المتمثّلة في الوسائط الاتّصالية الحديثة.

النّت، هذا الاكتشاف الكبير، الرّائع المهيب، حوَّل العالم إلى قرية صغيرة، بل إلى أسرة واحدة في بيت صغير. قلّص المسافات وقزّم الهامات، ورفع البروتوكولات.

هذا الاكتشاف مثلما قرّب بين المتباعدين والأحبّة، وخدم الطبيب والمريض والأستاذ وطالب العلم والحرفيّ والفنّان والأديب، أحدثَ ثقبًا عميقًا كثقب الأوزون في العلاقات الإنسانية، ومثلما جمعها قطّعها، وأحدث فيها شروخًا يستحيل معها لملمة أو جمع.

صحيفة جورج تايمز قد تفرّدت بنشر خبر في صفحتها الأولى بخطّ عريض:

-الرّجل العربيّ الذي يقتل ابنته عارية في الحمّام وينتحر بشفرة حلاقة، التفاصيل تقول إنّها وحيدته المدلّلة. فتاة في سنّ السّابعة عشرة، وفي آخر المرحلة الثّانوية. لا يفصلها عن الثّانوية العامّة إلاّ أيّام. وهو الأستاذ الجامعيّ اللاّمع والمثقّف العربيّ الكبير. أمّها طبيبة وناشطة في عدّة جمعيّات حقوقية وخيرية، وكانت قبل الحرب عارضة أزياء مشهورة.

هم أفراد أسرة صغيرة، هاجرت مع من هاجر إلى النّرويج، الأمّ مشغولة دائمًا وعلى سفر دائم. والأب مشغول بطلبته، وجامعته، وبحوثه، ونزواته.

اشتكت البنت الوحدة والإهمال. وليكّفر الأب عن تقصيره، اغتنم مناسبة عيد ميلادها السّنة الماضية، ليهديها جهاز كومبيوتر مجهّزًا بخدمة الإنترنت مسبقة الدّفع قائلًا:

-من الآن يا اِبنتي لن تشعري بالوحدة أو بالقلق. كلّ العالم في بيتك، وبإمكانك أن تتحدّثي مع من تشائين من أصدقائك. وسيصير لك أصدقاء من كلّ أصقاع العالم. وبإمكانك حتّى أن تطلبي المشورة والعون من أيّ أمٍّ في هذه الدّنيا، وفي أيّ وقت تشائين. لست بحاجة أكيدة لأمّك بعد اليوم. هذا الكومبيوتر هو كلّ عائلتك ساعة غيابي وأمّك عن البيت.

وزاد غياب الأب والأمّ، وكثُرَتْ انشغالاتهما، وتعدّدت حُججهما الصّحيحة، والواهية وزادت حالة الاغتراب لدى البنت. تعمّقت وحدتها لأنّها البنت الوحيدة أصلًا. أصبح كلّ عالمها وكلّ ما يربطها بالكيان البشري الكومبيوتر. وتعلّقت برجل في الخمسين، كان يضع صورة شابّ في الثّلاثين وهامت به وأحبّته. هي ببراءتها، وهو بنزوات الرّجل الخمسيني المهمل من زوجته. واعدها وواعدته، وشاءت المصادفات أن يكون من نفس مدينتها،

واتفقا على أن تلتقيه ليلة عيد ميلادها بأحد النُّزل الفاخرة في المدينة خير من أن تقضيها وحيدة.

وهكذا لن يَفطن والداها للأمر، لأنّ الوالد تحجّج بكثرة انشغالاته في العمل، والأم كعادتها خارج البلاد وهذه المرّة لتحضر مؤتمر أمّهات العالم. فالرّعاية بالنّسبة لهما نقود، ولباس، وأكل، وهدايا لا غير.

جاء الموعد، إنّها التّاسعة ليلًا، ككلّ ليلة تسلّلت الخادمة إلى غرفة عشيقها حارس باب العمارة تحت السّلالم، لتأخذ نصيبها اليومي مما لذّ وطاب من فاكهة الغرام.

بسرعة فائقة لبست سيلين وتبرّجت وتوجّهت إلى النّزل. ثمّ مباشرة إلى الغرفة التي حجزها عشيقها الافتراضي. طلبت أفخر أنواع النبيذ، والسّجائر، والأطعمة. تركت الباب مفتوحًا، ودخلت الحمّام بانتظار حبيبها الذي اشترط أن يلتقيها بالحمّام.

أتت الأشواق بالمراهق في سنّ الخمسين، طامعًا في تلذّذ لحم من تحت العشرين. دَخَلَ وعِطره يسبقه إلى الغرفة. نزع ملابسه، ثم دفع باب الحمّام، وغريزته تحدّثه بأحلى وليمة جنس وشباب. ويا لهول ما رأى! ابنته المدلّلة عارية كأوّل يوم ولادتها، عارضة أحلى المفاتن، فاتحة أحضانها لمعانقة الخواء.

طار عقله، جُنّ جنونه، صُعق. لم يجد بُدًّا من خَنْقِها في الحمّام. وتقطيع شرايينه بشفرة حلاقةٍ، والموت إلى جانبها عاريًا كأبيه آدم ساعة نزل الأرض باحثًا عن حوّاء.

أووف.. ما هذا العار؟ ما هذا الخزي؟ ماذا أقرأ هذا المساء؟

وَقْعَ الخبر كان أشدّ من صواريخ الكاتيوشا، وقنابل FB16 التي تنزل هنا هناك، في وطني الجريح.

قُصَّتي تحكّني، مستعجلة ما تبقّى من الشُعيرات البيض على الظّهور بفروة رأسي.

هنا أنا كالعادة أجِدُ يدي اليسرى تزمّ شفتي السفلى. لعلّي أريد أن أمحو من ذاكرتي ما قرأتُه للتّوّ.

لا أريدُ أن أصدّق أنّ حال بعض من هم خارج العراق أفظع ممّن هم داخله. أعرف أنّ مَنْ في الدّاخل معاناتهم ككلّ معاناة أي شعب عانى الاحتلال، ويعيش الحرب والفتنة الدّاخلية.

أمّا بعضُ مَنْ هُم في الخارج، ففي التّيه، والضّياع، والتشظّي. لا رادع دين أو هويّة، لذلك يزيدون الوطن الأمّ هوانًا على هوانٍ، ووَهنًا على وهنٍ.

لَعَنَ الله هذا العالم الجديد. لَعَنَ الله هذه الثّورة الاتصالية التي ساهمت في تردّي الأخلاق، وانحلال الرّوابط الأسرية، واستفحال غريزة الجسد البهيمية التي كادت تؤدّي إلى زنا المحارم.

تك..أخيرًا استطعت أن أغلق الكومبيوتر، أحسُّ براحة كبيرة عندما أدفع برأسي إلى الخلف ثم يمنة ويسرة كما أفعل الآن.

سّأقف وأمشي قليلًا ..أووه خطواتي متعثّرة كأنّني دجاجة مقيّدة. أحسُّ بخدر بيدي، ورجلي، وبتكلّس برقبتي.

رغم أنّني اِتخذت قرارًا لا رَجْعَة فيه منذ أكثر من شهر، وهو أن أتحرّر من عبودية الكومبيوتر وعبودية النّت أساسًا..لا، إنني دائمًا أعودُ إلى سجّاني بكلّ حبٍّ وشوق. أنسى نفسي إلى أن أفقد الإحساس بالزّمن، وأشعر بالألم في عضلاتي ومفاصلي.

صمّام الأمان بالنسبة لي، ولمن مثلي من بنات جيلي، في بلد اختلط فيه الحابل بالنّابل كالعراق يتجسّد فقط في الهروب. الهروب عبر البصر من النّوافذ التي تشرع العالم الخارجي على مصراعيه، فالشّارع الذي يتوسّط المدينة، يمرّ أسفل نافذتي تمامًا. المدينة متدثّرة بسماء ذهبية جميلة وقت غروب الشّمس المذهل.

عارية أمام عيني بواجهاتها الزرقاء الباهتة المغلقة الحزينة. بقرميدها المغطّى بزقّ الحمام. بأسطحها المطحلبة من كثرة النّدى، بالملابس المصطفّة على حبل كقوس المطر.

مشهدٌ يُوحي لك بأنّ قوس قزح بألوانه الرّائعة يهب سكّان المدينة ملابسهم، ويترك فوق كلّ سطح ما يكفي ويلزم أفراد أهل بيته.

سماء الأنهج والأزقّة بين الأسطح هي الأخرى لها مهرجانها المحتفي بالألوان. يافطات، إعلانات الماركات التجارية المحلّية والعالمية، كالفرنسية، الصينية، واليابانية، والأمريكية. المحظوظ من يحصل على بضاعة أمريكية الصّنع. أمّا المرأة التي تحصل على دجينز أمريكي أو حافظة يد، فهي المحسودة من قبل صديقاتها، المرغوبة من قبل أصدقائها، لأنّها تلبس ماركة أصلية.

الحقيقة لا تلبس الماركات الأصلية المستوردة إلاّ من تتوفّر لها النّقود. والنّقود سرّ بلاء أهل المدينة النّائمة في بالون أحلام يتدحرج بهم وراء البحار. قد يصل وقد ينفجر ليصبح ما فيه لقمة سائغة للقرش.

أسفل الشّارع النازف بالآهات والدّموع والنّاس الذين يطاردون الوهم، طفولة يستسيغها الحزن لُقيمات. الكثير منهم يتسابقون إلى الحسد، والافتراء، والكُره، متعفّنون في كهوف نفوسهم المريضةبفعل داء الطائفية المقيت.

في السّماء هناك شّعلة ذهبية. تلك الشّعلة المتلألئة في ناحية الغرب منها. النّور يبتسم لخيط المطر الذي يربط أسطح المنازل بعضها ببعضٍ، خيط المطر الذي يتزيّن به أهل المدينة ويتمايزون.

لِمَ لا يأتي الجمال إلّا من الغرب؟ لِمَ تشرق الشّمس من ناحية الشرق وتغرب في المساء من ناحية الغرب؟ أَمُقَدّر لنا نحن الشّرق أن تلد الشّمس عندنا ولا تبيت ليلتها عندنا لترحل إليهم في المساء بهذا الجمال البهيّ؟ ذهبية متلألئة؟

ههه ..لا حول ولا قوة إلَّا بالله ..ههه. حتّى ابتسامتي صارت باهتة، شاحبة، سأغلق هذه النّافذة التي تربطني بالعالم الخارجي أسفل وأمام شقّتي. لأضع حاجزًا وصدًّا أمام فحيح أفكاري المُنذِر بخطر داهم.

صمتُ الغرفة كصمتِ الكهوف المهجورة المنسية. صمتٌ يُجهز على آخر رمقٍ للفرح بها؛ مجلببة باللّون البنيّ الحائل، أكلت رونقه السّنون، فبدا كئيبًا لا روح فيه.

لا أخفيكم شيئًا.. روحي تلفّعت برداء أسود. نهاري كان مُتعبًا، وليلي على الأبواب كيف سيكون يا ترى؟ لا أظنّه أفضل، مُطارَدة أنا من كابوس الدّم المراق.

قاطعتُ جهاز التّلفزة، وقاطعتُ الفضائيات، قاطعتُ الجرائد وأكشاكها. أحاول ألَّا أتعاطى مع الإنترنت لكن الكابوس يُلاحقني، يتحوّل أحيانًا إلى حصان راكض ورائي. حصان من دمٍ، هيئته هيئة حصان. ومنسوبه وقوّة دفعه كأعتى المحيطات، وأوسع البحار.

هَجَمَ الظلام والغرفة تلتحِف بالسّواد، كلّما أشعلُ شمعة أوقظَ ذكرى، نصفي ميّت، ونصفي الآخر حيّ. شمس يومي بزغت فضّية، ساطعة بالضّوء، وغربت ذهبية، ثم اِنصهرت إلى سائل أحمر تحوّل إلى سواد. ربّما هي الدّماء المتخثّرة التي تُطارِدُني كلّ ليلة.

أنزفُ من الدّاخل، أنزفُ ذكرى، وألمًا، ودموعًا، وحسرةً على الإنسان والإنسانية، أنزفُ على المدن التي تُسرَق من سطوحها بخيط المطر. ذلك الخيط الذي يسرق البيوت من أسطحها. يربط بعضها ببعض ويرفعها إلى فوق. يرفعها ثم يبتعدُ ويبتعدُ. يبتعد إلى حيث لا يعلم أحد. بعد ذلك تختفي بعض المنازل بجدرانها، ونوافذها، وشُرفاتها المرصّعة بالقرميد، والأدهى والأمرّ أنّ سكّانها أيضًا يختفون .

قيل إن عائلة العمّ أسامة، وعائلة النّاجح، وعائلة وفاء، والخالة فائزة، وأولاد تراكي العرجاء، أمسوا ولم يصبحوا، كانوا يسكنون بيوتًا مُصطفّة

متجاورة. آخر شاهد عيان قال إنّه رأى خيط المطر يربط سطوح منازلهم، ويرفعها عاليًا، ثم ينأى بها بعيدًا.

غربت الشّمس، وحلّ الظّلام، ولم نعلم ما حلّ بهم. كلّ ما نعلمه أنّ أهل الحيّ المقابل لمنزلي استيقظوا صباح أحد الأيّام ليفاجؤوا باختفاء هذه المنازل بعائلاتها.

الفضول يدفعني لأعرف ما الذي حلّ بهم؟ أبحرتُ في النّت باحثة عن خبر عنهم يشفي غليلي، بعد بحثٍ مُضنٍ وجهدٍ كبير، وجدتُ أنّ أولاد تراكي العرجاء يبيعون العلكة في شوارع نيويورك، وأنّ عائلة أسامة يصنعون شريحة الطّماطم بجنوب إيطاليا، وأنّ الخالة فائزة تعمل بأحد المطاعم الخاصّة بالكبّة المشوية في ألمانيا، وتعمل الخالة وفاء ماسحة أحذية تحت مبانٍ بالشانزيليزا، أمّا البقية فلم أعثر لهم على أثر وقد تُدلي الأيّام القادمة بما يفيد عنهم.

كي لا أشهد اِحتضار آخر نطفة ضوء سأغمض عيني. فالنهايات تُرعبني، كلّ شيء يذكّر بالموت يُرعبني، فوبيا الموت تُطاردني. أعلم أنّني مريضة، وعليّ عيادة طبيب نفسي لأتخلّص من هذا الرّعب المميت أكثر من الموت ذاته.

ما هذا؟ برهة صغيرة أغلقت فيها عيني لأجد ظلامًا يطبق في صمت مطبق. أنا أتجرّع مرارة تدفّقت إلى حلقي. حتى ظلّي تلاشى، اِنصهر مع

الظّلام. هل أخذه هو الآخر قوس المطر؟ أجيبيني يا ظنوني. ربّما فعلها ظلّي؟ لعلّه ذهب يستطلع المكان؟ لعلّه ذَهَبَ يهيّئ الظّروف الملائمة لي؟ ربّما أحظى أنا الأخرى بفُرصة الجلوس تحت جدار بالشّانزيليزا، أو وول ستريت، أو نيويورك. أو ربّما أُمنّي النّفس بشريحة طماطم شهية تحت لفح الشّمس بجنوب إيطاليا؟

أطْبَقَ الظّلام وكشف عن عضلات اللّيل المغرية الفاتنة. اللّيل وسيم، وله كاريزما خاصّة وهيبة خاصّة. اللّيل رهيب ومهيب. اللّيل كتاب كبير يُطبق دفّتيه عليّ. إنّي أذبُلُ بين صفحاته كوردة جميلة، ربّما كانت مليحة وجميلة قبل أن توضع في كتاب. ربّما كانت غضّة نضرة، ربّما رائحتها العبقة كانت تعمّ المكان.

آه أيمكن أن تعودي أيتها الأيّام؟ أم أن شبابي قد تكسّر كموجٍ على صخورك الباردة؟ يبدو أنّني الآن على سواحل تسكنها العواصف الثّلجية التي تُقتَل فيها أحلى العصافير المُغرّدة أيّام الرّبيع؟

الرّوح غابة من الأشجار العارية. تحاول أن تستتر وتلتحف باللّيل. هذا السّواد القاتل. هذا الألم الذي علّمني أن أتميّز بمادّة الإحصاء، وأحسن عدّ قتلى العالم، وقتلى الحرّية، وقتلى الرّغيف الشّهي.

علّمني أيضًا أن أقرأ ملامح وجهي في بركة دم على الرّصيف، أو وسط الشّارع. ذلك الدّم الرّاكد الذي تحوّل لونه من أحمر إلى أسود، وتغطّى بقشرة رقيقة لامعة شفّافة كمرآة.

لعلّكم تتساءلون في سرّكم مثلي عن لون دم الحكّام الذين باعوا وخانوا وتاجروا بجميع الدّماء؟ حملوا تراب أراضيهم على أكتافهم إلى الضفّة الأخرى من الأرض لتوزيعها مجّانًا. لأنّ أرض الشّرق مطلوبة، باهظة الثّمن، نادرة وفريدة.

يا إلهي! قيل إنّ تُربة الشّرق الملفوحة بالشّمس تشفي من الأمراض، وتمدّد في عمر الإنسان، وتُعطيه الخلود إن أدمن عليها. لذلك تربة أرضنا مطلوبة، مرغوبة، في الأسواق العالمية معروضة. أرضنا العبقة بالياسمين، والرّافلة في الجرجير الأخضر النّدي.

آه..آه..ثمّ آه مرّة أخرى. فاض صدري ألمًا،أغرقني، تعثّرت أنفاسي بوحل ما تركه الأجداد على جدران أضلعي .أحملقُ إلى السّواد الذي يجذبني إليه كمغناطيس. يُسقطني في سرداب دمعة تمرّدت على خدّي. دمعة حاصرت ذقني، في اِنتظار غَزو عنقي الذي تسلّقَته الذكريات الحزينة المؤلمة. وغطّت مساحة عرضه خطوطًا عميقة جدًّا. تلك الخطوط حُفِرت بجرّافة السّنين ذات السكّاكين الحادّة .

لا تلوموني قبل قليل استبدّ بي الضّعف. أخفيتُ وجهي براحتي ورحت أنتحبُ، أبكي نفسي، أبكي وطني، أبكي الإنسانية جمعاء.

ليس لي إلّا الدّموع، فقط الدّموع تجعلني أستنهِضُ هِممي من جديد، أستجْمِعُ قوايَ. تعوّدت أن أبكي كي لا أحسّ بالضّعف، والوهن، والعجز.

تلك الدّموع سِحر، بل مرهم، بل دواء عجيب وناجع جدًّا للنّفوس المريضة والمتألّمة. الدّموع التي تعوّدت غسل السّواد، وإزاحة كلّ الشّوائب عن الصّفاء والضّياء في العيون والنّفوس. من عادتي أن أثرثر أمام المرآة لأرتاح من ثِقل آلامي، لا أكفّ عن الكلام. أحيانًا برابط بين الكلمات والجمل، وأحيانًا بلا رابط منطقي أو لغوي. مفعول الكلام بالنّسبة لي ولعدد كبير من النّاس كمفعول الدّموع، يُريح النّفس من عنائها.

أفعلُ ذلك فقط في بيتي الصّغير، بعيدًا عن كلّ النّاس، بعيدًا عن العالم ومشكلاته. داخل عالمي الخاصّ جدًّا.أو عندما أكون وحدي في البرّية كنخلةٍ شامخة لا تعبأ بمهبّ الرّيح، جذوري عميقة في الأرض، ورأسي في عنان السّماء.

قال أبي إنّي ولدتُ ظُهرًا، كلّ شيء ساعتها مُشرق، وجهه، وجه أمّي، وجه جدّتي سالمة.البيت بدا مُشرقًا، الأرض صافية ومُشرقة، السّماء أيضًا بدت أكثر صفاء وإشراقًا.

ذَكَرَ والدي أنّ شجرة اللّوز التي بحديقة المنزل كانت مُزهِرة جميلة يوم ميلادي. وأنّ البيت كان يحيط به مرج قمح أخضر كبساط من الجنّة. كنت أقحوانة غرفة أبي وأمّي، ريحانتهما التي نَثَرَت البهجة بكلّ رُكْنٍ فيه.

لمّا كبرت قليلًا، وبدأت أحبو كان يحلو لأبي أن يمشّط شعري الذّهبي بمشط من العاج الفاخر. حصل على ذلك المشط إبّان الحرب في ستينيات القرن الماضي من مستعمرة فرنسية في الجزائر. أهدته إيّاه تقديرًا منها بعد إعطائها وبناتها الأمان، وحمايتهن، ومساعدتهن ليسافرن بسلام إلى فرنسا ويتركن الحيّ لأهله، وأصحاب الحقّ فيه كما البلد بأكمله. أبي علّمني حبّ الأرض من الماء إلى الماء، وعلّمني أن الحياة هي الماء، قَدِمَ من العراق وتطوّع في حرب تحرير الجزائر.

تناثرت السّاعات والأيّام والأسابيع والشّهور والأعوام كتناثر أوراق شجرة اللّوز التي شاخت في حديقة المنزل. بيتنا الذي تصدّعت بعض

جُدرانه، وتهدّمت أخرى في غارة جوّية أمريكية على الحي. كما تشقّقت أبوابه ونوافذه وأصبح مَهجورًا بعد هجرة والدي وإخوتي إلى الدنمارك.

شاخَ أبي، شاب شعري الذّهبي، تكسّر المشط الباهظ الثّمن. تربة الحقل التي كانت مخضرّة بسنابل القمح الغضّة جرفتها الرّيح وصارت حُفرًا.. حُفرًا، بفعل التفجيرات التي طالت كلّ شبر من العراق تقريبًا. كفّ المطر عن النّزول بفعل غضب السّماء ممّا يجري بأرض العراق، وماتت الإبل القليلة التي كانت سند العائلة أيّام الشدّة، كما مات راعيها عم حسن المسكين.

أما وجهي الطّفوليّ الصّبوح فقد هذّبته على طريقتها ملامح الحزن والخيبات الكبيرة والمتعدّدة التي مررت بها. راحتا يدي اللّتان كانتا ببياض المرمر النّاعم، صارتا مرقّطتين بالسّواد كجلد الأفعى.

تلك الأفعى التي كانت تتربّص بكتاكيت جدّتي الحبيبة. كلّما طاردتها بعصاها المعقوفة، اِنعطفت نحو النّهر الذي لا يبعد عن البيت كثيرًا. والذي ينحدر تحت الجسر الخشبي القديم. كثيرًا ما كانت الأفعى تعود لنفس المكان، وتعود جدّتي لمطاردتها في عملية كرٍّ وفرٍّ.

قال لها جدّي ذات مساء:

-سالمة نوّارة قلبي، اتركي الكتاكيت للأفعى واسْعَيْ دائمًا على إكثار عدد الكتاكيت قُربانًا للأفعى كي لا تأكلك أنت. الكتاكيت تفديك بأرواحها، وتحميك من هذه الأفعى المجلجلة.

السّاعة الآن تقارب الثّامنة مساء. بدأت بعض النّجوم تكشف عن أسنانها الضّاحكات وتتلألأ، أمّا غُرفتي فمظلمة كجلباب جدّتي الأسود.

غادرتني ذكرياتي فجأة لمَّا أحدث زيدون ضجّة بصحن سقط من يده على أرضية المطبخ.

يا الله! ماذا أفعل الآن لهذه المشكلة؟ التيّار الكهربائي انقطع وقد نسيتُ أن أشتري شمعة من عطّار السيّدة محاسن زوجة علي حمدان.لم يبقَ سوى نور النّجوم الخافت. ذلك النّور الذي يخطف نظري ويبهرني بشدّة.

تلك النّجوم العالية جدًّا، البعيدة جدًّا، القريبة جدًّا حين تنظر إليها وأنت مُستلقٍ على ظهرك. تمدّ يدك لتأخذ واحدة فتقبض على الخواء. ذلك الخواء الكبير جدًّا، الشّاسع جدًّا تمامًا كالفضاء الذي تسبح فيه النّجوم. كلّ نجم في فلكه يسير ولا يصطدم بالآخر. كيف يفسّر ذلك علميًّا؟ لا أعرف، لكن أعرف أنّها مشيئة الله العزيز القدير.الله..خالق الكون، وما عليه، وما فيه.

هه، شاكرة لك يا خالق الأكوان، أرى العالم يضيء في مقلتي. تباشير النّور تحبو على وجهي. تُؤرجحني الأمنيات كما فانوس في قارب مُتأرجح، كما ندف الثّلج في طريقها إلى كفّ طفلٍ.

هذه ملاءة ناصعة البياض تفترش سريري، سأخبئ رأسي تحتها. سأستقدم من ماضيّ البعيد ذكريات الصّبا، بصورة تلك الفتاة الشّقية بالفصل والمشاغبة أبدًا.أذكر أنّه لولا تميّزي لما قُدّر لي أن أواصل دراستي، ولا لأساتذتي أن يغفروا لي كلّ حماقات سنّي. أتذكرّ ذلك الهيكل العظميّ الواقف في إحدى زوايا مخبر العلوم الطّبيعية بمعهدي. أتذكّر رُعب أستاذتي السيّدة نورا ذات مساء بعد أن اِنتهى دوامها. وبعد أن هُرع التّلاميذ إلى حافلاتهم التي تُقلّهم إلى أحيائهم حيًّا حيًّا، ليؤثثوا ببيوتهم ليلة أخرى فيها الكثير من الشّغب والإثارة. الشّغب الطّفولي البريء يمكن أن يساعد أهلهم وأولي أمرهم على اِحتمال ما ستطرحه الأيّام القادمة.

بهذا العراق أرض الأعراق تتناسل المآسي والأهوال كتناسُل الأمراض والأوبئة. الأطفال في وطني ضحية عادة ربط الدّين بالسّياسة مهما كانت الدّيانة، وضحية التفتّت العرقي والمذهبي .

كان الوقت ظُهرًا لمّا سمعت مصادفة الأستاذة نورا تأخذ إذن المدير. الإذن لم يكن للمغادرة وإنّما لتبقى ساعة أخرى بالمخبر إثر اِنتهاء الدّوام اليوميّ

عند السّاعة السّادسة. كانت تعتزم ترتيب ما به من فوضى قبل أن تداهمها العطلة الصّيفية. سمعتها حيث كنت واقفة بمكتب السكرتيرة المكلّفة بإسناد بطاقات الحضور. كنتُ أنتظرُ من هذه الأخيرة أن تمدّني ببطاقة.

لمعت عينايَ ككلّ طفلة مُشاكسةٍ في العالم، وقرّرت أن أشاكس أستاذتي مساء، عند انتهاء الدّوام وخروج زملائي، اِختبأتُ وراء أحد الصّناديق الذي يحتوي على بعض مكوّنات المخبر. بقيت بضع دقائق حتى اِنهمكت الأستاذة جسدًا وفِكرًا في ترتيب خِزانة مجاورة للباب.

في غفلةٍ منها أخذتُ مِيْدَعةً بيضاء وجدتها معلّقة على المشجب. غطّيت بها الهيكل العظمي بعد أن رفعت يدي إلى الأعلى فبدوت تمامًا كشبحٍ. ثم بخطوات وئيدة وأنا أحمل الهيكل العظمي تقدّمت من الأستاذة، قَرَصْتُها من جنبها فالتفتت مذعورة. ثم صَرخَتْ وسقطت مغشيًّا عليها.

ساعدتها على اِستعادة الطمأنينة وهدّأت من روعها. بعد دقائق سألتني الأستاذةُ وملامح الرّيبة على مُحيّاها :

- كيف تكونين موجودة وأنت من المفروض أنّك غادرت صبريانا؟

ارتبكت في البداية، ثم برّرتُ وجودي في تلك السّاعة بأنّني كنتُ أراجعُ دروس غدي.

وأنّ مراجعتي كانت مع زميلة من الزّملاء الدّاخليين الذين ينحدرون من الأرياف المجاورة، وتؤمّن لهم إدارة المعهد مبيتًا. وأنّني لمّا كنت خارجة من المعهد سمعت صرختها فأسرعت لنجدتها. وما كان من الأستاذة إلاّ أن تصدّقني، وتنطلي عليها الحيلة، وتزيدني نقطتين في الامتحان لحُسن تصرُّفي.

في استرجاع ذكريات الصّبا اللّافتة، كانت الصّور تتزاحم برأسي وأنا متكوّرة حول نفسي تحت الملاءة البيضاء. تخيّلتُ نفسي ميّتة في كفني الأبيض. تخيّلتُ كيف سيهجم على جثّتي الدّود من الدّاخل والخارج. من داخل جسدي المتحلّل، ومن الشّقوق الصّغيرة في طبقات الأرض. وبين حجر اللّحد والتراب الذي يغطّيه. ثم تذكّرتُ حبيبي ناظم وتخيّلته كومةً من دود ينخره ولا يترك منه إلّا العظام.

تخيّلتُه هيكلًا عظميًّا، كذلك الهيكل الذي كانت تراه بمخبر العلوم الطّبيعية في المعهد.

دقّ الباب فجأة وعلى غير العادة في ذلك الوقت، فارتعبتُ ولا أعرف السّبب. وحشة الجدران ضاعفت وحشتي. أحسستُ أنّي أُذبح حتّى آخر وريد. دقّ الباب مرّة أخرى. قمتُ من سريري، مشيتُ بحذر مادّة يدي في الفراغ. ارتطمتُ بمرايا خزانة الأحذية في الممرّ فجرحت أصابع راحة يدي اليسرى بحوافّ المرايا فوقها.

تسلّلت الكوابيس إلى رأسي. خبا اللّون الأبيض النّاصع البياض الذي يُشعرني بالسّلام وراحة النّظر. هذا الظلام يُذكّرني بنهاية دربي في الحياة، وبالكفن، وبالدّود، وناظم.

ترى من الطّارق؟ من جاءني السّاعة؟ علاقاتي بأهل الحيّ محدودة جدًّا؟ دائمًا أنظر إليهم من فوق، من وراء بلّور نافذتي. أعرفهم جميعًا وأعرف أخبارهم دون أن أضطرّ لربط علاقات مباشرة مع الكثيرين منهم، فتحت الباب لأجد إحداهن واقفة أمام وجهي مباشرة، وفي يدها شمعة ودون أن تُلقي التّحية قالت:

-أنا جارتك ميساء، أعرف أنّك وحيدة هنا. لمّا انقطع التيّار الكهربائي فجأة عرفت أنّه لا يوجد لديك شمع لأنّ شقّتك بقيت مظلمة، فجئتُك بواحدة.

قلتُ في همهمة:

-شكرًا.. شك..را..لُطف منك سيّدتي.

في رصانة امرأة الستّين وكأنّها مرآة اِنعكست على صفحة وجهها تجربة السّنين ردّت السيّدة:

-اللّيل مطمورة أحاسيسنا، والبيت صندوق همومنا، والنّاس بالنّاس ناس. أنا ابنة العراق العظيم (وهي تقصد التضامن الذي ذكره ابن خلدون عند حديثه عن علم العمران البشري في مقدمة كتابه).

قلتُ وأنا أنظر بريبة إلى السيّدة التي حشرت نفسها في زمرة مشاعري المتضاربة المتناحرة:

– لا عليك سيّدتي، نحن بخير. عدوى شكّ الجميع بالجميع انتقلت إليَّ .صرت أفضّل العزلة والخوف من الظّلمة على الاختلاط بالنّاس. أخذت الشّمعة من المرأة، فأنزلت الأخيرة يدها التي كانت تحمل الشّمعة، لتمسك بيد طفلة صغيرة تنظر بذعر إلى التي فتحت بابها لهما.

حاولت أن أهدّئَ من روع البُنيّة، وأنا التي غصت قبل قليل في سديم روحي المعلّقة في مشجب الخوف من الظّلام، والخوف من الملاءة البيضاء التي كانت تغطّيني، أردتُ أن أشكر المرأة قبل أن أغلق الباب، فسبقتني المرأة برجلها اليمنى إلى الدّاخل، ما كان منّي إلاّ أن أفتح لها الباب الموارب على مصراعيه لتدخل وتجلس بالصّالون .قُبالة الإطار الذي يضمّ رسم المرأة التي تقرأ كتابها.

علّقت جارتي الفضولية على الأثاث ذي الطّراز القديم وعلى انزوائي، و..و.. لتسأل في الأخير عن اللّوحة الجميلة، سرّي الكبير والصغير.

قلت لها بأنّها نسخة للوحة أهدتها لي صديقة فرنسية أمريكية جلبتها معها من واشنطن لتهديها الى أحد زوّار اللّوفر ككلّ سنة، وكنت محظوظة بحصولي على واحدة. ذكرتُ لها باقتضاب بأنّني سافرت إلى الهند، وروسيا، وبريطانيا، وعدّة عواصم غربية وعربية أخرى، لكن وحدها باريس سكنت في مُهجة القلب. ذكرت أنّني لا أعرف سرّ اِنجذابي إلى هذه المدينة. لكن أعرف أنّها باريس الجميلة. المدينة التي تتربّع فوق أهداب عيني وأنّ حبّها الوريف في قلبي يضيء الأنوار في عتمتي.

مددتُ للطّفلة كأس حليب وللمرأة كأس عصير الهندي الذي أصنعُه بنفسي وأخبّئه في ثلّاجتي كواجب للضّيافة.

حاولت صرف اهتمام المرأة عن أمر اللوّحة، خشية أن تتكلّم الأخيرة وتفضح سرّي لهذه المرأة الحشرية. هذه المرأة التي اقتحمت بيتي وحياتي غصبًا عني. اقتحمتها بشمعة. شمعة أمل وبصيص خافت .

إلى أيّ مدًى وإلى أيّ حدٍّ يمكن أن يمتدَّ ويكبر.. ذلك الأمل؟ قد تحترق كامل الشّمعة قبل أن ينقطع النّور الكهربائيّ من جديد. ويعود البيت إلى عتمته من جديد وأعود إلى وحشتي. وقد يرجع النور الكهربائي سريعًا ويبقى باقي الشّمعة جذوة أمل تنتظر.

لماذا تحشر هذه المرأة نفسها فيما لا يعنيها؟ وما دهاني حتّى أسمح لغريبة بدخول بيتي في هذه اللّيلة المظلمة؟

بدت لي المرأة حشرية وتضايقتُ من وجودها. تخيّلتُها أمريكا. أمريكا التي تغتنم نكبة الآخرين؛ وتنتظرها لتحشر نفسها في سياساتهم الدّاخلية والخارجية. أمريكا التي تبيعهم أمنًا غذائيًّا بإرهاب عالميٍّ. وتشتري نفطهم وخيراتهم لتقتلهم بصواريخ الآربيجي وصواريخ الأرض أرض وصواريخ التوماهاوك.

أعرف أنّ أمريكا لا تقدّم شيئًا لسكّان العالم مجانًا أبدًا. بدت لي السيّدة شيطانًا في صورة إنسان طيّب محبّ للنّاس. تمامًا كما كانت كونديليزا رايس التي كانت تذهب إلى دور اليتامى، وتمسح على رؤوس الأطفال. ثم تخرج لتجلس مع القادة الحربيين ورئيس البيت الأبيض وقادة الكونجرس. وتوقّع معهم وثيقة الهجوم على إحدى المدن العراقية ليلًا ليقتّلوا مَن يقتّلون وييتّموا ما تبقى من أطفالها.

أووف.. شتشت ..شتشت، أظفاري تكاد تسلخ فروة رأسي، شت شت، قصّتي يكثر بها الشّيب لذلك تحكّني ..هذه هي أمريكا.

الجارة في حيرة:

–هَهْ..ماذا قلت؟

ارتبكت وأنا أحاول اخفاء حقيقة الأمر:

-لا..لا..فقط سمعت صوت تفجير عن بعد فقلت هذه أمريكا.

غادرت المرأة بيتي بعد أن عصرت روحي، وأهلكتها بأسئلتها الحشرية وغير البريئة. تنفّست الصّعداء متمنّية لو يرتاح بلدي ويرتاح كلّ العالم من حشرية أمريكا. عندها فقط سيجد العراقيون رغم الخلافات الكبيرة سبيلًا للصّلح، والوفاق، والتّعايش مجدّدًا بسلام. وسيعيش العالم بسلام. أعرف أنّ ما للعراق من تاريخ عريق وحضارة متميّزة يكفلان عودة الطّمأنينة والسّلام لأهله.

خرجت المرأة والطّفلة الصّغيرة، وبعد خروجها مباشرة رجع النّور الكهربائي. أطفأت النّور من جديد وهذه المرّة إراديًا لأرتاح. تمدّدتُ على سريري واضعةً يدي تحت رأسي بعد أن شبكت راحتيّ. تسلّل نور شرفة البيت المقابل لشقّتي ومن وراء زجاج غرفة نومي إلى عيني المغمضتين.

طلبت النّوم كثيرًا لكنّه تأخّر كثيرًا. أنا ابنة المدينة التي يفرّخ الحزن في شرفاتها، وقرميد أسطحها، وأبوابها، ونوافذها.

كلّ يوم أُمَنّي النّفس بكِسرة خبز مَطهوّة على طاجن فوق موقد يشتعل ببقايا النّخيل اليابس. كنّا نحصل على تلك البقايا عند جني التّمر من الواحة كلّ خريف. كان يكدّس في بهو البيت الكبير الذي هو تحت شقّتي مباشرة.

بالنّسبة لي ليس أشهى من قضم الخبز المدخّن الرّائع، وتلذّذ طعمه. وهو أشهى عندما أقضمه قطعة قطعة في جولة مسائية يرافقها الرّذاذ، وتختفي فيها الشّمس تحت السّحاب الخفيف. لكن هل ذلك ممكن الآن؟ وكلّ الشّوارع مُلغَّمة بقنابل موقوتة، مزروعة في كلّ منعطف وزاوية، وفي كلّ سيّارة رابضة تنتظر أطفالًا أمام مدارسهم؟

حتّى الأجساد غير مؤتمنة، هذه الأجساد التي غالبًا ما تلتحف بالسّواد، يمكن أن ينفجر أحدها أمامك فجأة ليزهق روحك ويزهق عدّة أرواح أخرى.

آه ..الممنوع يسيّجُني ويشدّ الخناق عليَّ. ممنوع التجوّل بشوارع المدينة. ممنوع كسرة الخبز المطبوخة على مهلٍ وسط حديقة المنزل، في ظلّ تواتر صفّارات الإنذار وانتشار الهلع الذي يجبر الكلّ على حفر قبو داخل إحدى الحجر.

يُتّخذ القبو ملجأ كلّما دوّت صفّارة الإنذار، أو داهمهم المحتلّ، أو ابن العمّ الذي يقتل باسم الخلافات التّاريخية بين الشيعة والسنّة. ما تمزّق في الرّوح كثيرًا ومتعدّد الألوان ومن الصّعب رتقه بالدّموع والآهات.

مرّت الذكريات عاصفة بخاطري ومرّت الساعات مشحونة بالأسى. تناولتُ قارورة بُنِّيَة اللّون بها حبّات مهدّئة دقيقة الصّغر. براحة كفّي قذفتُ عددًا منها في فمي دفعة واحدة مع كأس من الحليب الدّافئ.

تقلّبتُ على جنبي الأيمن، فالأيسر، فالأيمن مرّة أخرى. عبثتُ بأصابع يدي، ثمّ بشعر رأسي. مرّرتُ يدي اليمنى على جبيني ثمّ على أنفي وضغطّت على أرنبته قليلًا. ثم حرّرتها ومسحتُ على محيط فمي.

غادرتُ الوسادة وجلستُ مُقرفصة على حافة السّرير. لأحني أصابع راحة يدي اليسرى الأربع إلى الأسفل تحت ذقني في شكل كرسيّ صغير، ضاغطة بإبهامي على الجهة اليمنى من عظمة الفكّ.

صُوّر كثيرة تُؤرّقني، صورة وطني الذي غمرته الدّماء حتى آخر حبّة تراب واحدة منه. صورة ناظم الذي ظلمته. صورتي أيّام شبابي التي أهرقتها سُدًى. صورة زوجي الأوّل الذي ورغم قصر عمر زواجنا، قد طمر طموحاتي، وأحاسيسي، وزهور قلبي الغضّة دون أن يسأل، حيث أنجبت منه توأمين وماتا.

هأنا بعد طلاقي منه وزواجي من ناظم. أُعيلُ طِفلًا يتيمًا. ابني زيدون، تبنّيته بعد فِقدانه كلّ أفراد عائلته. فقد قتلوا في حادثة تفجير لمنزلهم وبعض

المنازل الأخرى بسيّارتين مفخّختين وهم نيام بعد صلاة الفجر مباشرة. وهأنا أيضًا رفقة فلذة كبدي الرّضيع، ابن رجل ميّت ترك سائله المنوي في بنك للجينات. ابن ناظم حبيبي الذي لم يعلم إلّا في آخر أيّامه بأنّني أحبّه مثلما أحبّني دائمًا. بعد موته بتسع سنوات رفعت قضيّة إلى المحكمة طالبتُ فيها بضرورة الحمل من زوجي الذي تزوّجت به وهو يحتضر. حيث ترك لي تفويضًا خطيًّا ممضيًّا ومختومًا جاء فيه:

العراق ٢٠ مارس ٢٠٠٣

*أنا المواطن العراقي ناظم إبراهيم أسمح لبنك الجينات العالمي بحقن رحم زوجتي صبريانا عمر متى أرادت الحمل بحيواناتي المنوية المودعة لهذا الغرض. وذلك ليتحقّق أملي بالإنجاب من امرأة حياتي، حبيبة قلبي دائمًا ونوّارته صبريانا عمر. وأرجو أن يولد اِبني ويكبر في عراق مستقلٍّ بلا قتلٍ ولا دمٍ.

الإمضاء

ناظم إبراهيم

يوم تمنّيت الإنجاب من حبيبي الميّت زُرتُ قبره وبكيتُ كثيرًا. بكيتُ لأنّني عاجزة عن ذلك. بل رأيتُ الأمر مُستحيلًا. لكن شيئًا ما زَرَعَ في عيني الباكيتين الأمل. صوته الجهوري الجميل:

-ما من عائق يا صبريانا.

تسمّرت في مكاني من شدّة الذّهول، والصّدمة، وأصابني الخرس من هول وغرابة ما سمعت، لكنّه قال مرّة أخرى:

-نعم ..ليس مستحيلًا.. بإمكانك أن تنجبي منّي.

ظننت أنّني أحلم، فركت عيني وأذني. عاد الصّوت من جديد. حاولتُ أن أعرف مصدره المكاني. فإذا به يخرج من القبر الذي أنتحبُ قُربه وإذا بأحلى حوار يدور بيننا مذ عرفتُه:

-صبريانا حبيبتي.. غاليتي.. لا تبكي.

-ن.ا..ظ..م..نا..ظم..ناظم.. هذا أنت من جديد.

-نعم حبيبتي هذا أنا...وإن رغبت حقًّا في الإنجاب يمكنك ذلك.

-أتمزح معي أيّها الميّت. (وأنا أغالب ضحكة مع دمعة).

-ههههه.. أنت الميّتة لأنّك تظنّينني كذلك.

-هههههههههههه..هههههههه

-هههههههههههههههه..هههه عزيزتي كنتُ أعلمُ وقبل هذا الوضع الذي أنا فيه.. أنّك ستودّين في يوم ما الإنجاب منّي. وهي رغبتي التي اِنتظرتُ طوال حياتي تحقيقها. قبل موتي كما تسمّينه، أودعتُ على ذمّتك في البنك الجيني الدّولي مقابل كلّ ثروتي بعض المني. لتنجبي لنا ولدًا أو بنتًا يحمل اسمي ويكون بارًّا بك بعد غيابي ممّا يجعلني مطمئنًّا عليك قليلًا.

- ن.ا..ظم..أنت مذهل..(وأنا أكاد أُقهقه) حبيبي.. هذا كلّ مُنايَ، كيف فكّرتَ بهذا؟ كم أنت

رائع..كم أنتَ غالٍ عليَّ.. أحبُّك.. أحبُّك.

-الآن تقولينها؟

-للأسف نعم.

-أنت ظالمة.

-وكثيرًا.

-لم تظلميني فحسب، بل تجنيتِ على نفسِك أيضًا.

-للأسف نعم مرّة أخرى....آه..وآه..

-لتكوني أمًّا لولدي إذًا.

-سيكون ذلك بإذن الله، ولو كان ذلك آخر ما أفعلُه في حياتي.

-كوني أمّا حنونًا، بل لا داعي بأن أوصيك. ستكونين أروع أُمٍّ بالكون، أعرفُك، أعرفُ حنانك، وتفهّمك.حدّثيه كثيرًا عنّي وعنك بل عنّا. علّميه أن يحبّ الآخر ولو اِختلف معه، أُريدُه عراقيًّا حقيقيًّا، أريدُ لابني أن يُوحِّد العراق ويُلملم شظاياه المبعثرة. كفى وطني سيّارات مفخّخة.كفاه سكاكين ورقابًا مقطوعة. قولي له أن يُطهِّر مياه دجلة والفرات من الجثث المتعفّنة .وأن يزرع ضفافهما وردًا ورياحين ونخيلًا يطرح تمرًا لذيذًا.علّميه أن يسبح في مياههما وأن يمدّ كفّيه للحمام..كي يأكل منهما.

-سيكون ذلك يا عمري.

-بوركت حبيبتي، والآن عليك أن تعودي إلى البيت، المقبرة موحشة هنا.

-أنا معك كيف أشعر بالوحشة؟

-قارب الفجر.

-وإن يكن؟

-لست خائفًا عليك من أهل القبور بل من أهل الدّنيا، لا يكلّون من الشرّ. يفرّخونه كما تفرّخ مياه دجلة المثقلة بالجثث ..الناموس الذي يهجم على السكّان ليلًا ويمتصّ ما بقي بعروقهم من دم.

-صحيح، الشرّ كثير هنا ولا تدري من أين ينقضّ عليك.

-اذهبي في أمانِ الله، وارجعي لي حاملًا بابني. آه نسيت، تركتُ لك تفويضًا تستظهرين به للبنك الجيني العالمي ببريطانيا كي يقوموا بعملية الإخصاب في الظّروف القانونية. إنّه بمكتبتي، في الدّرج السّفلي، ستجدين ملفًّا أزرق عليه صورتك. ستجدين أشياءك الصّغيرة التي اِحتفظت بها منذ الصّغر. وستجدين رسائل كتبتها لك ولم تصلك.

قرصتني بعوضة فشوّحت بيدي، عادت البعوضة مرّة ثانية فأعادتني إلى واقعي وإلى حجرتي وسريري البارد بعد أن سرحت في ذاكرتي وآلامي.

قاربِ الفجر على البزوغ، ابني وليد يغطّ في نومه لا يعلم هذا الطّفل الصّغير أنّ حيثيات وظروف حملي به موجعة، وغريبة بعض الشّيء . هو الطّفل الذي حملت به بعد موت أبيه بتسع سنوات.

طال اللّيل بشجونه ولم أستطع أن أنام، ولم أستطع أن أُغالب القلق، أو أهزم الأرق. كلّما أغمضت عيني تسابقت الكوابيس إلى رأسي، وتركتني فريسة ظنوني وأوجاعي، تنهّدت ومسحت على وجهي وأنا أخاطبه :

-ولدي الحبيب، ولدنا الغالي ثمرة حبّنا المستحيل. هدية ناظم لي بعد موته. كان أعظم شيء فكّر فيه ناظم في حياته. والدك ناظم عندما حفظ حيواناته المنوية في بنك جيني وكانت حكمة منّي أن قرّرتُ إنجابك بُني.

لقد أحببتُ ناظم قبل موته في سرّي صحيح، لكنّي عشقته وهو جثّة. قصّتي تستحقّ أن تكون رواية "اِمرأة تعشق جثّة".

"امرأة تعشق جثّة.." كتاب في جنس الرّواية موجود بالمكتبات، وللمرأة الرّسم على الجدار الذي يقابلها مباشرة نسخة منه فعلًا. هل أصبت بأوّل سمات مرض الزهايمر الذي، قد يكون أودى بحياة عمّتي ميساء في مراحله الأخيرة لمّا امتنعت عن الأكل والشّرب.

أعرف أن اللّوحة جلبتها بنفسي من باريس، بعد أن حظيت بها هدية من صديقة فرنسية-أمريكية. تعرفت إليها في اللّوفر وكانت قد جلبتها معها من واشنطن. واِكتشفت وأنا بمطار شارل ديغول وفي قاعة الانتظار هناك أنّ المرأة التي بالرّسم تقرأ رواية تحتفظ بها منذ القرن الثّامن عشر اِسمها" اِمرأة تعشق جثّة". فوجئت بالمرأة الرّسم تسرد قصّتي مع ناظم. وهي قصّة تُورِثَتْ جيلًا بعد جيل كما تقول المرأة الرّسم إلى أن وصلت بين يدي المرأة اللّوحة. المرأة القارئة للفنّان جان أونوريه فراغونار.

أصبحت اللّوحة عبئًا ثقيلا عليَّ، حيث تزاحمني في غرفتي وتقلّ نومي وراحتي بصوتها المرفوع ليلًا نهارًا ساردة أحداث الرّواية.

أهربُ من صوت المرأة الرّسم حينًا، وأعود لأستمع إليها حينًا آخر، وأُجادلها أحايين أخرى .

اعترفتُ في لحظة صفاء للمرأة الرّسم أنّني أجد في قراءتها وقصّتي معها شيئًا طريفًا وعجيبًا.

نعم ..عجيب أنْ تُسرَدَ قصّتي مع حبيبي ناظم من قبل رسم لامرأة بيدها كتاب. هذا الكتاب هو رواية. رواية كتبت منذ القرن الثّامن عشر.

تحيّة للكاتبة التي كتبت روايتها بهذا الحسّ العالي على مستوى الافتراض في زمن مضى. كتابها عبارة عن قصّة توصي بها إلى امرأة ستعيش بين القرنين العشرين والحادي والعشرين، وشاءت المصادفات أن أكون أنا .هل كانت الكاتبة تقرأ المستقبل؟ أيمكن أن يكون توارد الخواطر؟

بل تواتر الأحداث، وحبكة القصّة في خيال الكاتبة، زائد الحسّ المرهف الشّفيف، قد يجعل هذه الكاتبة تتوقّع أشياء قد تحدث مصادفة.

أيمكن أن يكون الأديب هذا الذي ميّزه الله عز وجلّ بموهبة الكتابة أن يكتب أشياء ويعتقد أنّها صحيحة، وعلى ضوئها يتصرّف لذلك أوصت

مؤلّفة الرّواية، أعني صبريانا الجدّة (صبريانا الأولى) بالرّواية إليَّ؟ إليَّ أنا؟ ألستُ صبريانا وبطلة القصّة تُدعى صبريانا؟ أليس حبيبي ناظم وبطل الرّواية كذلك ناظم؟ ألم يمتْ حبيبي وأنجبتُ منه بفضل تخصيب لحيواناته المنويّة التي حفظها في بنك الجينات الدّولي؟ كلّ الأحداث تقول إنّني أنا؟ أنا محظوظة أن أولد في ذهن الكاتبة كبطلة افتراضية. شاءت الأقدار الإلهية أن تجعلها حقيقة، وهذا إن دلّ على شيء فيدلّ على رفعة أهل الأدب وأرباب القلم.

في الغد سمعتُ دويّ صواريخ تسقط بالجوار. سارعتُ لفتح النّافذة المطلّة على الشّارع الخلفيّ لبيتي أستطلع الأمر. فعانقني صباح مكفهرّ بغُبارِه، ورمادِه، وسواد سمائه التي التحفت بالدّخان.

كانت الشّمس ترمقني وتبكي. أصبحت على عويل الثّكالى، وبكاء اليتامى، وتأوُّه الجياع والمرضى. بالماضي كانت هذه النّافذة تبتهج للصّباح الجميل المشرق الذي يستضيف الشّمس العاشقة للوجوه المليحة، لمتفائلة، لمحبّة للنّاس، وللحياة، والوطن. أمّا اليوم فأين الوطن؟ أين هي الحياة الضاحكة؟ ما من حياة في وطن اِعتاد الدّم، وتعطّش لمزيده. الكلّ نسي آدميته، الوطن أشلاء وخرق عند الدّاخل والخارج.الصّباح ولادة وأمل

وحياة جديدة. لكن بالعراق، صار روتيننا يوميًّا لإحصاء الموتى والاستعداد للأسوأ.

أغلقتُ النّافذة في اِنتظار دوري من شظيّة تَذهَب ببيتِي وكتبي وذكرياتي وجسدي وشارعي. شارعي الذي كان يعجّ بعارضي الكتب على الرّصيف، وبالقرّاء والمشرّدين. كان أحلى ما أشاهده مع قهوة صباحي التي يحلو لي أن أرتشفها واقفة مطلّة عليه. شارعي الذي ما وجدتُ مثله في كلّ بلدان العالم التي جبتها.

بالماضي اشتغلتُ مضيّفة طيران وكانت شمسي تشرق كلّ يوم في بلد من بلدان العالم.

إيييييه...آه..آه... فقدتُ وظيفتي وما عدتُ أخرجُ من بيتي تقريبًا إلّا للضّرورات القصوى منذ دخول الأمريكان ذلك اليوم المشؤوم على العراق والعراقيين.

الفصل الرّابع

الباب الأوّل

مطرقة الذّاكرة..تَضرِبُ صبريانا...

السّابعة وعشرون دقيقة صباحًا. قمتُ على عَجَلٍ. جهَّزت فطور زيدون. تناوله على عَجَلٍ وخرج دون أن يتزود بشطيرةٍ كالعادة، فيوم الجمعة يعمل إلى الظهيرة فحسب.

أعددت فطور جمال المُكوَّن من البيض المقليّ مع الجبن في الزّبدة مع الخبز الفرنسي المقرمش من فوق والمنفوش من الدّاخل كغزل البنات. الحقيقة أنا أيضًا أحبّ الخبز الفرنسيّ، فهو خبز لذيذ.

قصصتُ بعض حبّات طماطم وخيار، ونكّهتمهما باللّيمون، والفلفل الأكحل، وبزيت الزّيتون الذي لا نستعمله إلّا لتتبيل السّلطة.

صوت وردة كان يصدح من جهاز التّلفاز الذي تركه زيدون مفتوحا كعادته:

"مقادير

مقادير يا قلب العناء

مقادير وش ذنبي أنا

مقادير وتمضي حياتي

مشاوير وأتمنّى الهناء

مقادير..مقادير.."

كان جمال قُبالتي يتناول فطوره في صمتٍ لكن لمّا سمع الأغنية طافت بوجهه الأحزان.

قلت مالك يا ابن الخال:

صمت مرّة أخرى فلم أزعجه وواصلت تناول فطوري في صمتٍ مثله.

بعد أن رتّبت غرفة نومي والمطبخ ولّمعت الأحذية. دخلتُ صفحتي على الفيسبوك وبدأتُ بتصفّح أرشيفي من تعليقات وصوّر مميّزة وخواطر. أُعجبت ببعض الصّور الفوتوغرافية لوطني، كانت قد التُقطت قبل الغزو ثم الاحتلال.

صوّر لبحيرة الحبّانية الجميلة التي تضمّ الكثير من ذكريات طفولتي مع أترابي وأصدقائي. مع ناظم حبيب قلبي الغالي. وصوّر أخرى لمدينة الكاظمية وبهائها. لشبه جزيرة الفاو المعتّقة برائحة السّمك الطّازج الجميل. للزّوارق الصّغيرة الحالمة مع شمس الصّباح، ومبسم الأصيل على ضفاف نهر شطّ العرب. لمنتزه الزّوراء الرّائع الذي طالما سابقت إخوتي في ممرّاته، وراوغتهم وأنا ألعب معهم لعبة الغُمَيضة بين الأشجار الفارعة الجميلة.

ما زلت أذكر حمحمة الجياد الأصيلة وصهيلها تلك التي كانت تُحدث دبكة غاية في الانسيابية والتميز. كنت أخاف كثيرًا تلك الجياد وأهابها.

وفي الوقت نفسه كنت لا أفوّت فرصة الحضور بمنتزه الزّوراء كلّما سنحت الظّروف، فقط من أجل مشاهدة الجياد.

أتذكّر كلّ تفاصيل هذه الصّور. إنّها حيّة بذاكرتي رغم الجراح والآلام. ورغم اِنمحاء بعضها بفعل الحرب والتخريب. وبفعل اليد العالميّة المجرمة المُشوِّهة لتراث الشعوب وحضاراتها.

أتذكّر كلّ شيء بحبّ وبافتخار، وبأسى وحسرة شِبَاك الصّيد ببُحيرة الثرثار. كان يحلو لي أن أفردها بزيارةكلّ ربيع مع خالي أحمد الذي يمتهن الصّيد البحري والمائي بصفة عامّة. إذ كنت أصطحبه أيّام العطلات لأنعم بوجبة سمكٍ مشويّ بنكهة مدخّنة شهيّة أتناولها معه في الهواء الطّلق.

لم أنسَ ما حبا الله به العراق من نعمٍ وجمالٍ طبيعيين. كنهر الفرات الذي زاده جمالًا جسره الخشبيّ، الذي يمتدّ على شاكلة سكّة حديد، وهو توأم لنهر دجلة الذي يحاذيه.

النّهران الآن قبران كبيران للعراقيين. آلاف مؤلّفة من الجنود الأحرار البواسل، ومن الأطفال والنّساء والرّجال الشّرفاء، ألقي بهم موتى وأحياء ليستقرّوا جُثثًا متحلّلة في مياههما. اِختفى جمال النّهرين، كما اِختفى الصيّادون،

واختفت أهازيجهم، واختفى السّمك. واِختفى في ركامه ورماده ودمائه ودموعه وطني الحبيب .وطني الذي مزّقته الطائفيّة، والحروب الأهلية، والفِتن، أكثر ممّا مزّقه الاحتلال الأمريكي.

أمريكا التي جاءت تفرض ديمقراطية واهية على دبّابة. سرقت ملح العيون، نفط البلاد، وبسمة الشّفاه في وجوه الأطفال.

لا أمان، لا خبز، لا مأوى، وطني الآن كوم من الأشلاء، وأخرى من المزابل.

حرّكت الفأرة باتجاه صورة يروق لي أن أشاهدها دائماً.

صورة شدّت العالم عندما التُقطت وعُرضت. إنّها لأشدّ رؤساء الولايات المتّحدة الأمريكية دموية وحُمقًا. صورة له مع صحفيّ عراقيّ شامخ أصيل وهو يرميه بحذائه وتحتها كلمات لإحدى الحرائر العربيات يقول نصُّها:

-اِنتظر يا منتظر

أنا أمّك التي بالقبر تنتظرك وتنتظر حذاءك المنتظر

حملتك تسعًا

أرضعتُكَ

هدهدتُك

أطعمتُك سُهدًا من رحيق الوطن

حبوتَ

كبرتَ

وأنا أنتظرك أن تنتعل حذاءك الذي كان ينتظر أن يقبّل بنعاله وُجوهًا كانت تنتظر

قُبلة نِعالك أشرف من وجوههم يا منتظر

بل الصّفع

الصّفع بحذائك خير منتظر

سلمت يداك التي رمتهم بحذائك يا منتظر..

مبتسمة مرّرت إصبع الشّهادة بحبّ على صورة الصّحفي الوطنيّ الشّجاع، هامسة:

- ليحيّ الله الرّحم التي فيه زُرعتَ وتَخبّطت أيّها الأصيل اِبن الأصيلة.

هه..ها هي شارة ورود رسالة قصيرة. قصّة قصيرة جدًّا كتبتها صاحبتُها بدمِ نصف كبدها:

-على الرّمل رَسمتْ خارطة وقالت هذا وطني

جاءها الإسرائيلي وخطّ جدارًا فاصلًا قائلًا :

-شطره لي..

أووف..تأكلني العصبيّة من صمت العالم ومن بني صهيون. من بعض الدّم الفاسد في عروق بعض الحكّام المتبجحين بالعروبة وهم أشدّ أعدائها.

في الخارج مرّة أخرى رُجَّت الأرض رجًّا وكشفت السّماء عن بروق. كاد الضّياء يخطف نور عيني، بسرعة هُرعت إلى النّافذة من جديد أستطلع الأمر.

ويا لهول ما رأيت! شارع المتنبّي كوكبة غبار وبعض شظايا لحم آدميّ من قطع أصابع، أيادٍ وأرجلٍ، أنوف، وشفاه، وأثداء، ومؤخرات، و..و... وقوارير ماء وعصائر وفودكا، خرق ملايات، حصّارات نسائية، أطعمة معلبة، هواتف جوّالة هنا هناك..فياجرا..أحمر شفاه ..أغلفة كتب .. فواتير ودنانير متناثرة.. نفايات العصر وزبالة الإنسانية في أشهى تشظّيها أمامها.

إني أحسّ بالدوّار ممّا أرى، غالبني القيء من الرّعب وقوّة الصّدمة.

-يا الله ما الذي يجري؟ ما الخطيئة التي اقترفناها لندفع ثمنًا كهذا؟

يخيّل لي أن ّما خرج من فمي عند القَيء أشلاء آدميين أعرفهم، وقرأت عنهم، أو سمعت ما يرتبط بهم. وليس ما أكلته ليلة أمس من الخضراوات، وبعض الحلويات التي أرسلتها لي صديقتي التّونسية أسماء عبشوق.

ههه أحبّ دمائي التّونسية ودماثة أخلاق التّونسيات. السّنة الماضية أرسلت لي صديقتي التّونسية عائشة قطعة قماش. خاطتها لي عباءة السيّدة نور التي تسكن في الشّارع الخلفي لبيتي مباشرة وأطلّ على بيتي من شبّاك بيت المُونة.

قطعة القماش جاءت في وقتها حيث لم يبقَ لي من اللّباس إلاّ القليل الذي عثرت عليه تحت الأنقاض.

ضاعت ملابسي لمّا هدم بيت أسرتي كأغلب البيوت التي تهدّم يوميًّا في بلد مزّقته الحروب والتفجيرات..آه..آه ..يا ربّي.

أوف ..أحسّ بمغص في معدتي. ما هذا الذي يخرج من أحشائي؟ أيمكن أن أكون آكلة لحم بشر ولا أعلم؟ إنّي أرى ملامح رجال ونساء مشوّهة تخرج من بطني.

هي لمعاوية بن أبي سفيان، وعمر بن الخطّاب، وعثمان وعلي، و.. واِمرأة العزيز، ومريم العذراء، والحلّاج، واِبن رشد، وصلاح الدين الأيّوبي، وماو سي تونج، وأنديرا غاندي، وتريزا، والسيّد ياسين، وغيرهم كثيرًا.

أكُلّ هؤلاء أكلتهم ولا أعلم؟ أيمكن أن أكون دراكولا الأفلام الهوليودية أو أنّي أعاني اِنفصامًا في الشخصيّة؟ أَوَ قد أكون من الذين يرتكبون أفظع الجرائم في ساعات نومهم ولا يتذكرون؟

هذه الملامح من الوجوه التي تراءت لي هي لشخصيّات لم تتعاصر بل هي من عصور مختلفة؟ إذًا ما الذي أتى بها إليَّ؟ أيمكن أن أكون من الذّين يعيشون حياتهم وحياة الآخرين في الحلم؟ لذلك التبسَ الواقع معي ولا أعلم؟ أشياء كثيرة تداخلت عندي منذ خروجي من متحف اللّوفر ورجوعي من باريس.

آآآآآآآآآآآآه...آه..باريس كانت آخر رحلة لي مع شركة الطّيران الوطني قبل الاحتلال.

بعد تلك الرّحلة فقدتُ وظيفتي، وتدهورت ظروفي المادّية، وقلّت مدّخراتي.

آآآآآآآآآآآآه، الألم شَرَخَ صدري، وأفاض الدّمع من عيني.

رجلاي ثقيلتان لا تقويان على حملي. جَررتُهما جرًّا إلى الحمّام. رميتُ بجسدي السّاخن في الحوض. شعرتُ ببرودة الماء تنعشني وتلطّف حرارة جسمي قليلًا.

التفتُّ يمنةً ويسرةً، درتُ في مكاني إلى كلّ الاتّجاهات باحثةً عن من أو شيء يفسّر لي ما يجري، لكن دون جدوى. عليّ أن أقتنع أنّني اِمرأة اِختلط لديها الحلم بالواقع وتشابها. وأنّ كلّ العجيب والخارق سأعيشه في هذا البلد الذي يأكل أبناءه ويطحنهم كما هم يطحنون شعيره وقمحه المشبعين بالدّم.

كان اِرتفاع صوت مذياع السيّدة وفاء جارتي الشّرقية العجوز المتقاعدة من التّعليم العالي يشدّ سمعي رغماً عني. لا أستطيع أن أطلب منها خفض صوت الجهاز لعِلمي مدى شغف السيّدة وفاء جارتي الطّيبة، المثقّفة، بالرّاديو وبالبرامج الإذاعية خاصّة الثّقافية منها والأدبية. وهذا البرنامج بالذّات "أوراق الورد" يشبع هوسها بما فقدته من تفاعل مع طلّابها بالجامعة عندما كانت تحاضر في مادّة اللّغة العربية وآدابها. هو من إعداد وتقديم إحدى عميدات الإعلام في الوطن العربي بخبرتها الطّويلة، وثقافتها الواسعة. يكفي هذه الإعلامية فخرًا استضافتها لأعمدة الأدب والفكر في الوطن العربيّ، كالبيّاتي ودرويش، والجواهري، ونزار، وحنا مينا، ومنيف، والمسعدي، وغيرهم ..

ابتسمت سرًّا تقديرًا لجارتي المثقّفة وللمذيعة المتمكّنة من مادّتها، وأصختُ السّمع إلى صوت الرّاديو القادم من بعيد.

كان الصّوت جهوريًّا جميلًا، وكانت مخارج الحروف واضحة وجيّدة والقصيدة للبحتري :

وإذا ما رَأيْتَ صُورَةَ أنْطَا كيَةَ ارْتَعْتَ بَينَ رُومٍ وَفُرْسِ
والمَنَايَا مَوَاثِلٌ، وأنُوشَرْوانَ يُزْجي الصّفوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ

وإذا ما رأيت صورة (أنطاكية)

ارتعت بين روم وفرس

والمنايا مواثل (وأنوشروان)

يزجيالصفوف تحت الدرفس

القصيدة ذكّرتني بسنوات الفرح والمرح في ساحة إيوان كسرى رفقة أترابي الذين فعلت بهم الحرب ما فعلت.

أغلب ممّن أعرفهم إمّا هاجروا وتشتّتوا كالعصافير في أنحاء العالم أو قُتلوا وغرقوا في المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسّط. أو أُقعدوا بسبب إعاقات عضوية عميقة. الكثير منهم هاموا على وجوههم كالهوام، مجانين يبحثون عن عقولهم في الشّوارع والسّاحات العامّة والخرائب المنتشرة.

أحيانًا يُخيّل إليَّ أنّ القدر عاقبني لأنّني قد أكون آخر من تبقّى من رفقة الطّفولة الجميلة.

إيوان كسرى أو طاق كِسْرى كما يسمّى باللّهجة المحلّية العراقية، بقايا أحد قصور كسرى آنو شروان، جنوب مدينة بغداد .مقام دفن الصّحابيّ الفارسيّ الشّهير سلمان بيك. المبنى والقوس الجميل والكبير نسبيًّا يحضران بذهني الآن.

كم أتمنّى لو ترجع بي السّنوات قليلًا إلى الوراء؛ لألقى أترابي هناك، وأعْقِدُ معهم مواثيق وعهود عدم الفُرقة، كم أتمنىّ الآن أن أزور القصر القديم، وأن أملأ نظري برهبة التّاريخ العراقي وعظمته، حتّى هذا بفعل اِنعدام الأمن لا يتوفّر لي. أنا تونسية الدّم والأصل، ولكنّ العراق هو وطني الذي أعرف، بعروقي تجري دماء تونسية كأبي وجدّي وبعيني عراقي الكبير....أوووف... وطني وطن ممزّق وحزين .

الباب الثاني

هَذيانُ الغَالِبِ والمَغْلوب

دَمٌ عربيّ أصيلٌ مجاني. دم عربي أصيل صافٍ كالعسل المصفّى.بلا إيدز ولا فيروس بي، ولا.. ولا.. دم عربي أصيل، والعشر لترات بربع دولار فقط، من يشتري؟ من يشتري دمًا عربيًّا أصيلًا؟

تبًّا! ما هذا الذي تنشره جريدة جورج تايمز. دمائي تفور وحنقي يزيد. ما هذا؟

هه.. خبر آخر، إلهي زدني صبرًا، إلى أين يسرون بنا؟ منظّمة الصحّة العالمية تطرح بالأسواق حبّات صغيرة. تناوُلُ الواحدة منها يُغني العربيّ طوال حياته عن الماء. لا حاجة للعربيّ للماء بعد اليوم.أليس الماء هو أُسُّ كلّ حروب معنا تقريبًا، العربيّ الآن لا يحتاجه، وأرضه غنيّة بالأنهار والوديان والمياه الباطنية، إذًا هي بُشرى لنا سنأخذ كلّ مائه.كلّ ماء البسيطة لنا يا للرّوعة!

آآآآآآآآآآآآآآآآآآه..آه..آه.. ماذا لو أشعل بساتين الشّموع بهدبي؟ هل تزهرُ؟ هل تثمر؟ هل تقطف ثمارها يدي؟ أم تقطفها العواصف؟ قل يا ظلّي الواقف قُبالتي في الممرّ الشّمسي المتسلّل من النّافذة داخل الغرفة..أجبني.. ارفع صوتك.

نعم ..نعم فهمت إشاراتك. أعرف أنّك أخرس .فالظلّ لا يتكلّم. أنت تريد أن تقول لعبة شطرنج تائهة عن لعبتها الوطن، والجائزة تراجيديا الرّغبات المنسيّة. أشجار اللّوز تغفو ناعسة، السّنابل حملها كاذب وهي كاذبة.

أووف ..أراني كغيري أستأنس الأمر. ما أكثر حماقاتنا، نحن أسنان المشط والدّود ينخرنا؟

هل نجد الصّندوق الأسود بعد تفجير أحلامنا؟ هل نجد أسماءنا؟ هل نجد أجسادنا الهائمة؟ هذيان الغالب والمغلوب أسطورة بابليّة قديمة.آه ..الخوف عمّر القلوب، والأغلال شلّت الأيادي، وبالإبرة والخيط كُمّمت الأفواه وسُجنت الحناجر داخلها. مجرّدُ علامات سنبقى، مجرّد تفاصيل وللإنتروبولوجيا حقّ التأويل.

آه وآه على آه.. طال حواري معك يا ظلّي ..ههه..أظنّني أتقن المسرح الشّعري. رِحَمَ الله صلاح عبد الصّبور رائد من روّاد المسرح الشّعري العربي، وألهمني الصّبر على هذه المواجع.

يومي بدا صعبًا من بدايته بهذه القنابل والصّواريخ المتهاطلة على المدينة. قلبي يُعتصر ألمًا وحسرة، ماذا عساي أفعل؟ كلُّ وطني العربيّ يشتعل

ويتمزّق، كلّ الخارطة العربيّة تصغُر وتصغر.. في بداية كلّ قرن تصغر وتصغر. كلّ بداية قرن معاهدة سرّية لتمزيقه. سايكس بيكو جديدة بتسمية جديدة والنّتيجة واحدة. القدس بقرار ترامب عاصمة إسرائيل وأمريكا تنقل سفارتها إلى هناك.

سيبقى الشّعراء يرثون أوطانهم ما بقيت حيواتهم كما رثى البحتري أنطاكيا.

السّادسة والرّبع مساءً.. آهاه ..مُداعبتي للفأرة وللوحة مفاتيح جهاز الكومبيوتر وقتًا ليس بطويل تؤتي أُكُلها أخيرًا. خبر يثلج صدري ويشحن معنوياتي طاقة إيجابية.

عجوز بريطانية تخرّجت في الجامعة في سنّ الخامسة والتّسعين. وحصلت على الماجستير في سنّ الثّامنة والتّسعين وعندما بلغت المائة ألّفت كتابًا بعنوان "اليأس خيانة".

صورة وجهي المعكوسة على مرآة حاملة الأحذية تبتسم في مكر، أعرف لماذا فعلت، هه.. الصّورة تعرف مثلي أنّ الحياة عند الغرب لا تتوقّف إلى آخر رمق منهم. يعطونها حقّها ويحترمونها. بل هي تبدأ عندهم بعد سنّ التّقاعد. قبل ذلك هي للعائلة والأولاد والعمل وبعد التّقاعد هي للذّات فحسب.

لممارسة الرّياضة والاهتمام بالصّحّة وللسّفر، وللدّراسة كما فعلت هذه المسنّة. حقًّا إنّ مثل هذه المرأة تستحقّ الاحترام، ليس كما عندنا حيث يمثّل التّقاعد الموت المحقّق بالنسبة للكثيرين وللكثيرات من هذه الشّريحة الاجتماعية.

المسنّون عندنا يهملون أنفسهم ومظهرهم، ويتكاسلون ويتواكلون ويتبرّمون بالحياة. وينعزلون لمعاقرة آلامهم وخيباتهم وشعور الذّنب لديهم، ليتني أستطيع تغيير هذه العادة في مجتمعاتنا.

شعور الخيبة يلمّ بجيلي وأبناء عصري وأبناء وطني الكبير بصفة عامّة. وألمّ بوطني الصّغير الذي أصبح رقعة شطرنج لتباري المخابرات العالميّة، والتّيارات الماسونية، وهدفًا لمعتنقي الهرمجدون.

أشعر بأنّي وأبناء جيلي ووطني في بَحْرٍ مترامي الأطراف. معاناة بالجملة من فقدان الوجهة بكل مسمّياتها ومستوياتها، من المعاناة النّفسية، إلى الزّمنية، إلى المكانية، إلى الجغرافية، إلى الفكرية، إلى السياسية، وغير ذلك كثير.

أخيرا.. ههه.. يا لرّوعة ما أقرأ على النّت هذا المساء! تونسية حصلت على الدّكتوراه في اللّغة والآداب الفرنسية في سنّ السّادسة والثّمانين. هذه السيّدة باشرت دراستها الجامعية بعد تقاعدها من التّعليم في المرحلة الابتدائية وتزويج أبنائها.

جميل جدًّا هذا الخبر يفنّد ما قُلته قبل قليل عن المسنّين في عالمنا العربي. والدّليل ما فعلته هذه التونسية الشّجاعة، حقًّا أحيّي فيها روح المبادرة وعموما هذا ليس بغريب عن النّساء التّونسيات.

مضى الوقت ثقيلًا ذلك المساء، جلست متهالكة على أريكتي القديمة الطّراز. كانت تستند إلى جدار متصدّع ككلّ جدران البيوت العراقية التي سَلمت من التّفجير والهدم.

بذلتُ جهدًا كبيرًا لأذهب عنّي حالة الإحباط وحالة الإعياء النّفسيّ. فكّرت بأمور كثيرة، بأشياء كثيرة وبأشخاص كثيرين يهمّني أمرهم. فكّرت بأمّي المرأة الطيّبة التي لم تَنَلْ حظًّا وافرًا من التّعليم. لكنّها علّمت نفسَها بنفسِها حتّى أصبحت قادرةً على قراءة الصّحف والمجلّات والكتب. حصلت على ثقافة لم تحصل عليها بنت الجامعة بفضل مطالعاتها. كانت تعشق القراءة وتعشق الكتب. كلّما خرجت إلى السّوق للتبضّع أو قضاء شأن ما، لا تستطيع أن تمنع نفسها من الوقوف أمام واجهات المكتبات. علّها تحصل على غنيمة متمّثلةٍ في رواية، أو قصّة، أو كتاب تاريخي مشوّق.

كدتُ أفْقِدُ أمّي جرّاء شغفها بالكتب لولا ألطاف الله وعنايته الفائقة. كانت في أحد الأيّام مارّة أمام مقهى الشّابندر وفي طريقها إلى المكتبة العصرية، إذا بسيّارة ملغومة تنفجر لتقتل فوق الثّلاثين شخصًا.

يومها دُمّرت المكتبة التي أُسّست في أوائل القرن العشرين ودُمّر مقهى الشّاه بندر. عثرت على أمّي وبيدها حقيبتها الجلدية المهترئة داخل كومة من رماد الكتب .

كانت تبكي بحرقة وتنتحب آلاف الكتب المحترقة.كانت تبحث عن شيء ثمين ضاع منها بين العيون المفغورة. الحرب البشعة التي تعصف بوطنها تأخذ كلّ عزيز عليها.

هذه الحادثة المباغتة التي حرمت بغداد من أبهى المعالم الثّقافية والحضارية وأعرقها ذلك اليوم، حرمت والدتي من ساقها اليمنى، وأصابها بالشّلل الرّعاش في بقية أعضائها المتحرّكة.

الغريب أنّها بمجرّد أن أفاقت من إغماءة الألم الأولى، لم تبكِ ساقها كما بكت المكتبة والمقهى، والقيمة التّاريخية لشارع المتنبّي.

هي الآن تستعمل قدمًا خشبية ونفس حقيبتها الجلدية المهترئة. تخرج كلّ صباح، تجلس بذات المكان، بين نفايات القصدير، ورماد الكتب، وبقايا المباني المعمارية التي تهاوت. باءت كلّ محاولاتي لتنسى عادتها تلك بالفشل.

كانت تجلس ساعاتٍ طويلة غارقة في صمتها، الخيبة تتملكّها، عيناها شاخصتان في الطّريق أمامها. تراقب سيّارات الإسعاف التي تمرّ صافرة، بيديها المرتعشتين تمسح دمعًا ينزل حارًّا من عينيها، ثمّ تحاول إرجاع غطاء رأسها الذي ينزلق إلى الخلف تاركًا شعرًا أبيض يحكي ما عجزت عن روايته للمارّة.

في إحدى المرّات تفطّن إليها ماسح الأحذية جاري الشّاب بدر وأتى بها إليَّ. كانت المسكينة تنتفض كعصفور جريح من الحمّى. شكرت ذلك اليوم بدر الطّيب الذي لم ينبس ببنت شفة، لكنّه لوَّح بيأس وهو يودّعنا ليعود إلى حيث كان باحثًا عن رزقه.

بدر الذي درس في روسيا الطبّ وعمل طبيبا جرّاحًا في أشهر المستشفيات الجامعية بالبلاد. قاذورات الحرب طالته وطالت عائلته. حيث طُرد بدر من العمل، ومات كلّ أهله في مجزرة حرب أهلية وطائفية طاحنة دبّرها مشعلو الحرب ليبيعوا السّلاح وتكون لهم فرصة الاستحواذ على ثروات البلاد.

فَقَدَ البيت بعد أن دُمّر وسُلب ماله ونُهب متاعه وحُرم من السّفر.كان عليه أن يتكيّف كأغلب العراقيين مع الوضع الرّاهن. مكان البيت الفسيح الذي كان يربض كقصر بالمكان، بنى بدر كوخًا قصديريًّا. مستعملًا بعض الخردة الخاّصة بالأبواب المتشظّية وبقايا السيّارات. وبعض خرق يافطات المحلّات التي وجدها على جوانب الشّارع المنكوب.

تألّمت لهدم بيت بدر الذي كان يضمّ في حديقته أجمل طيور التّم بريشه المتلألئ في المسبح الكبير. كنت في صغري أتلصّص على بيتهم وأسترقُ النّظر من خارج السّياج مراقبة تلك البجعات. كنت معجبة جدًّا بمناقيرها الوردية

وتلك الجيوب تحتها، بمشيتها حين تتبختر كالعرائس على الحشيش بأصابعها الأربع المفلطحة.

حبًّا للبجعات في صغري أدمنت الاستماع إلى رائعة تشايكوفسكي "بحيرة البجع". تلك الرّائعة التي ألّفها تشاي كوفسكي نهاية القرن التّاسع عشر. كنتُ أتخيّلُ نفسي بجعة من البجعات التي كانت بمسبح بيت جارنا بدر.. هههه. وكان يُخيّل إليّ أنّني كسّارة البندق أو الأميرة النّائمة. ويزداد تعلّقي بتلك الحديقة ويزداد هوسي بالتلصّص من السّياج الخارجي.

أتذكّر أنّني يوم هُدم بيت بدر سَمِعَت صوتَ التّم بالحديقة كالنّفير. هُرعت بعد أن هدأت الحركة إلى حيث كان المسبح باحثة عنه ولم أجد شيئًا.

بأنانية كبيرة، أنانية الإنسان اللاّحم كان بودّي لو بقي طائر التّم على الأقلّ. لربّما استفاد بدر من اللّحم الكثير الموجود بذكورها خاصّة. حيث إنّ ذكر التّم يفوق أحيانًا عشرة كيلوجرامات. عشرة كيلوجرامات قد تكفيه مدّة شهر على الأقل. أشياء كثيرة فَقَدَها بدر، فَقَدَ العائلة، فَقَدَ الوظيفة، وجواز السّفر، والبيت، وتلك البجعات.

لعلّ بجعات بدر الآن ضمن الأملاك الرسمية لملكة بريطانيا كأغلب الإوزّ العراقي البرّي في بلدي، محظوظة تلك البجعات على خلاف المواطن

العراقي. ستحظى بأرقام خاصّة وسيهتمّ بها طبيب من جامعة أكسفورد، سيكون لها محيطها النظيف وغذاؤها، ستلقى العناية.

أمّا بدر المسكين فقد يعود آخر المساء برغيف وقد تذهب بأشلائه بعيدًا سيّارة مفخّخة لا يعلم من أين تأتي. جذبتُ نفسًا عميقًا وأنا أحكُّ مقدّمة رأسي.

الغيظ يستعمر وجهي...أوووووووووووووه..أوه....إكرُبْ.. إكْرُبْ.. قُصَّتي تحكّني بشدّة، سأقتلع فروتها بأظفاري..إكْرُبْ..إكْرُبْ.

العاشرة وعشر دقائق. وضعتُ كوبًا كان بيدي اليسرى على رفّ خيزراني بالمطبخ. خطوتُ بضع خطوات مُتثاقلة إلى حيث كنبتي المفضّلة في قاعة الجلوس. تهالكتُ عليها. مرّت فترة صمتٍ مُوحشة قبل أن تحفحف المرأة الرّسم أوراق كتابها.

كنتُ خائرة القوى، لا أرغبُ إلَّا بنوم عميق. لكن في غرفة نومي تقضّ مضجعي الذكريات. لذلك أجد الملاذ الآمن الوحيد لطلب النّعاس قاعة الجلوس. التّلفاز يسرّع نومي.ههههه.. عادتي منذ الصّغر.

لكن هذه المرأة الرّسم المزعجة لن تتركني أنام. إن شرعت بقراءة كتابها بصوت مسموع، عندها لا خيار لي، حتّى الجدران عليها أن تُصغي ولستُ أنا فقط.

هذه المرأة الرّسم المخادعة تنكر أنّها تقرأ قِصّتي وتقول إنّها قِصّة متوارثة منذ القرن الثّامن عشر.

فكّرت في أكثر من حيلة للتخلّص من اللّوحة. لكن فكرة أن أستمع إلى قصّتي مع ناظم من امرأة الرّسم التي تقول إنّها مؤمّنة على الرّواية حدثٌ مُغرٍ.

لذلك رغم صدري المرصوف بالغيظ والحنق ممّا يجري سلّمتُ بالأمر الواقع وأنصتُّ إلى امرأة الرّسم يوميًّا.

"حيّ على الصلاة ..حي على الصلاة...حي على الفلاح..حيّ على الفلاح".

-جمال ..أمّي.. لقد أذّن لصلاة الظّهر..

-هل تواظبين على الصّلاة صبريانا؟

-نعم جمال..ومنذ صغري أيضًا..وما المانع في ذلك؟

-صبريانا أنت تتناقضين مع نفسك..تصدّينني وتواظبين على الصّلاة. وبالمقابل أوّيس ابنك لا أعرف نسبه؟

لم أشأ أن أشرح له قصّة أويس لأنّه لن يستوعب الفكرة فقلت:

-هو ابن صديقتي وقد استُشهد والداه، ماتا، كزيدون وأنا أربيه.

-أنت الأمّ تيريزا..هههههها..زيدون وبعد ذلك أوّيس..من يصدّق هذا.

-هههههها...ههههههههها ها....هههها..هيا اذهبي للصّلاة. هههه.

تماسّت أسناني واصطكّت من الغيظ وتورّمتا لوزتي حلقي من الحنق. مع ذلك ابتلعت ريقي بصعوبة وسكتّ كي لا تتعقّد المشكلة أكثر والرّجل ببيتي، ورحتُ أقابل ربّي في جلسةٍ روحيةٍ خاشعةٍ.

الباب الثّالث

هُويَّةٌ ابنِ الميّتِ الحيِّ

تك..تكتك...أحكمتُ غلق باب شقّتي بالمزلاج وسأتمدّد قليلًا، ما أحلى الرّاحة على الأريكة.

تعالَ يا صغيري، أُغا..أغا..ههه، وجهك يبتسم، أغا..كم أحبّك! وجهك الضّاحك يُنيرُ الظّلمة المطبقة بروحي.

لكن رويدك بُني لا تكبر سريعًا حتى يُحلّ إشكال هويّتك، أبي وإخوتي الذين هاجروا إلى الدّانمارك على إثر حادثة مقتل شقيقنا الصّغير على يد جماعات طائفية متشدّدة؛ لا يعلمون أن ابنتهم المصون أصبحت أمًّا لطفل تُوفي والده منذ عشر سنوات.

تركوني مع أمّي المريضة بعد رفضي مغادرة العراق. بني السّلطات ترفض تسجيل اسمك على اسم والدك بحجة أن هذا يتعارض مع الشّرع والقانون. سأحاولُ بُني، أنا عنيدة واليأس لا يعرف طريقه إليَّ، أنتَ ابني وابن ناظم الشّرعي. أذكرُ يوم أبلغتَ طَيف والدك خبر حملي؛ هزّني صوته المفعم بالفرح بشدّة، وانخرطت معه في محادثة حميمية.

أذكر ذلك الحديث العذب الذي دار بيني وبين شبح ناظم في المقبرة تلك اللّيلة:

- حبيبتي أنت ومفتاح حياتي.

- بل أنت نوافذ دنياي المفتوحة على مصراعيها.

-أنتِ الدّفء الزّاحف ليُذهب برودة قبري.

-هم المقبورون ولست أنت.

-هذا يدهشك، أليس كذلك؟

- اليوم ضبابيّ لكن حبّك نور يلفح وجهي.

-كان كابوسًا مُريعًا أن تتخلّصي من الحيوانات المنوية المجمّدة وتقرّرين عدم الإنجاب من شخص ميّت. اِنتابتني كلّ الأفكار السّوداء، لكن أقرّ أنّي أيضا شعرتُ أنّي ظلمتك عندما تزوّجت منك على الورق آخر ساعة لي بدياركم. أعني ديار الأحياء كما تسمّونها. كان عليَّ ألَّا أفعل، ربّما لم يكن من باب الحكمة أن أفعل، كنتُ أنانيًّا.

- إن سلّمتَ بأنّها أنانية سأُسمّيها أنانية رائعة، كنتُ أحتاجُها.

- "لقد بقيت تسكنين شغاف القلب حتّى في ظلمة القبر ".

- "وددتُ أن أشقّه بمُدية وأدخلك فيه ثمّ أُطبق صدري".

- ههههه.

-ههههه.

- أرى أيّامنا الخوالي حاضرة، البيت كان لابن حزم الأندلسي منّي كان الصّدر ومنك العجز.

- قصيدة رائعة "وددت بان القلب شقّ بمدية ... وأدخلت فيه ثم أطبق في صدري.

فأصبحت فيه لا تحلين غيره ... إلى مقتضى يوم القيامة والحشر.

تعيشين فيه ما حييت فإن أمت ... سكنت شغاف القلب في ظُلم القبر".

- هذه نعم ستعيش في قلبي ما حييت "استعر دمعي الذي أفنى ولا يفنى له جريان".

- ههههها أيّها المشاكس كعادتك، والسّطر الأخير من الجملة لعنترة. ها نحن نتناجى كما كنّا في تلك الدّيار، أتذكرين؟ كنّا دائمًا نتبارى في ترديد روائع الشّعر العربيّ. عمومًا تركت الدّموع في تلك الدّيار. هنا ..السّكينة والهدوء والطّمأنينة.

في دياركم، الدّنيا كما تسمّونها، عليك أن تماري الجميع وأن تجامل الجميع. وأن تتظاهر بأنّك الذّكي، والعالم، والطّيب، والكريم، وذو الجاه والمال، والماكر، والخبيث والمتسلّط أيضا، وإلّا داستك الأقدام.

- أعرف ..عليك أن تجالس الظّريف والثّقيل والغاية في التهذيب.

(صمت).... يا..ه... ناظم نور عيني كم أفتقدُك. صرت وحدي، ابتعدتُ عن كلّ أصدقائي خوفًا من أن أُعاني بعد فَقْدِهم، الموتُ أرعبني لمّا أخذك منّي.

- نحن معًا والموت لم يفرقنا.

- افتقدُك في شوارع بغداد وفي حيّنا، وفي شارع المتنبّي حين أمرّ. أحنُّ إلى السّير معًا على حافّة نهر دجلة في يوم ضبابيّ. أحنّ إلى صوت الضّفادع حولنا تُنقنق ونبتهج لرؤية الأسماك الصغيرة تتقافز ومن حولنا نعيج الماي يحلّق. كم أحنّ إلى تلك العطلات الرّائعة التي قضّيناها بجبال سنجار وسنام وحمرين!

-حبيبتي لقد تأخّرت.عليك العودة إلى وليدنا!

-نعم..ارْقُدْ بسلام يا حبيبي، لن أغيب طويلًا، سآتي في موعدنا المعتاد.

-لا تجازفي أنتم في بلاد حرب، أخشى عليك.

-ماذا سيجري؟ سأموتُ؟ كلّ حيّ ميّت لا محالة (ضاحكة) ربّما الموت يقرّبنا أكثر.

-لا تقوليها. أريدك هناك، العراق يحتاجك، يحتاج اِبننا. اِبني أمانتي للعراق لديك، أنت قوية..رفضت الاستسلام لمطبّات عديدة، اِعترضت طريق نجاحك ومنها اليأس. ليس مجانًا اِخترتك أُمًّا لابني.

-لا بأس..ما دام الأمر يتعلّق بمستقبل العراق، يسرّني أن أرعى أمانتك للعراق، كما يسرّني أنّي حملتُ هذه الأمانة في رحمي تسعة شهور.

-نعم، ولا تنسي أنّ هذه الأمانة تتغذّى بحليب اِمرأة لا يعرف قلبها الحِقد أو الكراهية، طيّبة ومتسامحة، يأكل الطّير من كفِّها، ببيتها تُقام المآدب والأمسيات الثّقافية. على طاولة الطّعام وبفنجان الشّاي تجمعين كلّ فسيفساء العراق البشرية.

تجمعين المسلم، والمسيحي، اليهودي، والسُّنّي، والشّيعي، واليزيدي، والتركمانيّ والكردي والأرمني الشبكي والصُبّي في محبّة وسلام. رغم تعدّد الملل والنّحل والطوائف ولاؤهم الوحيد كان للعراق ولإنسانية الإنسان.

لا ألومُك على ما وصل إليه العراق الآن. أنت فعلت ما بوسعك صبريانا واِنفرط العقد منك. لكن اِبننا يستطيع أن يفعل هذا من جديد. يستطيع أن يلمّ الشّمل كما كانت تفعل أمُّه من قبل.

-لا، لا أظنّ ذلك.

-بل سيفعل..تأكّدي سيفعل.

-أيمكن؟

-نعم.. يمكن، لا مجال للجدل في هذا الأمر. العراق سينهض من جديد بفضل وليدنا. إليك قصّة أنت تعرفينها. أتذكرين عمّي جرّاب؟ عمّي جراب سُبحان؟ ذلك الشّيخ الذي كان يجوب العراق من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها على ظَهْرِ حمارٍ أسود؟ كان يحيط حزامه بحبل سميك ظُفر من الحلفاء أتذكرين؟ وكان لونه أسود كاللّيل الحالك السّواد. كان يجوب المدن، والشوارع، والأحياء، ولا يعرف النّاس عنه سوى ثلاث كلمات يردّدها بطريقة آلية متواصلة (عمّي جراب سبحان)؟

كانت النّسوة تُهرعن إليه بالماء والطّعام، والكِبّة الدولمة والعوّامة والملابس.كان كلّما دخل أحد الأحياء وخرج منه، اِمتلأ زنبيل الحلفاء المتأرجح على جنبي الحمار الأسود الطّويل القامة. لكن أتعلمين ماذا كان يفعل بكل ذلك؟

-لا.. لا أعلم. كلّ ما أذكره أنّني كنت أتبعه وأنا أجري وراءه ككلّ صبية الحيّ. نشتاق إليه وإلى قصّته الغامضة، عمّي جراب سبحان، عمّي جراب

سبحان، كنت أحبُّ ذلك الرّجل. هو من الذّكريات الجميلة التي عِشتُها في بغداد.

-وُلد في بداية القرن العشرين، هو من الأسر المهاجرة إلى العراق، وهو سنغاليّ الأصل وصل أهله في بداية القرن التّاسع عشر. عاش وأهله في بادية حافظة ميسان، ثم انتقلوا إلى السّاحل الأيمن لمدينة الموصل.

-هذا عادي، ما اللافت في حكايته؟

-اللافت أن سعد..

-مَنْ سعد؟

-أقصدُ عمّي جراب، لأنّ عمّي جراب ليس اسمه الحقيقي. ذلك اسم مستعار اتّخذه لأنّه يعبّر عن حكايته.

-شوّقتني أكثر ممّا تشوقت عمرًا لحكاية هذا الرّجل اللّغز منذ طفولتي، ناظم أنت مذهل، (ضاحكة) حتّى وأنت شبح، أنت مذهل.

-هذا الرّجل ضحيّة النّعرات العرقية والطّائفية التي تهزّ العراق من فترة إلى أخرى. بعد مغادرة عائلة عمّي جرّاب بادية ميسان واستقرارهم بالموصل سكن وأهله بحي مشيرفة. في شارع جمع مصادفة جميع النّحل والملل والطّوائف. وهو شارع طويل يعجّ بالمباني المتزاحمة، والمتلاصقة، والعالية.

فاليهودي جارُ المسلم والكرديّ واليزيديّ والمسيحيّ والسُّنّيّ والشيعيّ وعديد الأسر المنتمية لأقلّيات أخرى.

كانت النّسوة تتزاورن، وكان الأطفال يلعبون معًا، كان البعض يهنّئ البعض الآخر بأعياده، والأعراس كانت تجمع الكلّ في وئام وحسن جوار.

- هذا ما كان يعمّ العراق.آسفة لما يحصل الآن.

-لكن من فترة إلى أخرى كانت الفتن تحاول أن تجهز على العراق عبر تاريخه الطّويل بسبب تعدّد العرقيات والملل والطّوائف. والحادثة التي كان عمّي جراب شاهدًا عليها هي حادثة شارع في حيّ من أحياء السّاحل الأيمن لمدينة الموصل. حيث عمد شابّان أحدهما مسلم والآخر مسيحيّ إلى عقر ناقة أحد الأثرياء اليهود، فعمد اليهوديُّ إلى قتل أحد الشّابّين ببندقية يحتفظ بها في مخزن بيته، وقامت الدّنيا وما قعدت. التهبت الفتنة في الحيّ كالنّار في الهشيم. وكان الكلّ يترصّد الكلّ للقتل والنّقمة والثأر. لم يكن المرء يدرك من يقتل من، فالكل يَقتل والكلّ يُقتل. عصفت الفتنة بأكثر من ثلثي الحيّ المكتظّ بالسّكان. ثمّة عائلات أُبيدت بأسرها. ومن بين هذه العائلات عائلة سعد الخيّاط. أو عمّي جرّاب الذي جرّب الدّنيا وخبر محن الحياة والنّاس. عمّي جرّاب سبحان الذي تعرفينه..لا غير.

-كيف نجا إذن؟

-وهو اِبن ثلاث سنوات، اِستفاق على عويل أمّه تبكي إخوته وأباه قبل أن يسكتها عمّه بطلقة على رأسها، وأخرى بين ثدييها اللّذين رضع الطّفل سعد حليبهما الدّافئ من ذُعره أغمض سعد (عمّي جرّاب) عينيه وبقي ممدّدًا في مكانه. لكن عمّه القاتل الذي يسكن قبالتهم صوّب إليه بندقيته وأصابه في ظهره. الطّفل سعد لم يمت وعثر عليه معية جثث أفراد عائلته. والغريب أنّ القاتل مسلم وعائلة عمّي جراب من عائلة مسلمة أيضًا. لكن أحد الأخوين سنّي والآخر شيعي. ولا أعلم بالضّبط إن كانت عائلة عمّي جرّاب سنّية أم شيعية وبالمثل عمّه القاتل، لم أعد أذكر تفاصيل كثيرة ممّا سمعته من عمّي جرّاب الذي حكى قصّته ولأوّل مرّة لأبي. كلّ ما أعلمه أن العمّ القاتل أيضًا كان مسلمًا والخلاف كان طائفيًّا، وشيعيًّا سنّيًّا بخاصةٍ.

-لكن كيف وصل القتل إلى عائلة عمّي جرّاب من حادثة عقر ناقة رجل يهوديٍّ من طرف شابّين أحدهما مسلم والآخر مسيحيّ؟ ليكون القاتل عمّه من دمه ولحمه؟

-المشكلة أن تلك النّاقة ذكّرتني بناقة البسوس تعرفين القصّة؟ أليس كذلك؟

-بلى..ومن لا يعرفها؟

-إذًا لا داعي للاستطراد سأواصل لك القصّة الأولى. قصّة اشتعال الطّائفية في العراق في ذلك الوقت. بعد حادثة النّاقة اشتعلت النّعرات العرقية والطّائفية، وأصبحت كلّ حادثة في الحيّ تُترجم على أساس عرقيّ وطائفيّ، وأصبح من الصّعب تعايُش أهل الحيّ كما السّابق.دون إراقة المزيد من الدّم أو دون تناحُر، حتّى أصبح الأخ يقتل أخاه.

-آآآآه.....فهمت الآن لِمَ سمّى نفسه عمّي جرّاب..سُبحان.

-ذلك الصّبي ذو الثّلاث سنوات عُثر عليه جريحًا مع جثث أفراد عائلته، تبنّته عجوز فقدت هي الأخرى أولادها وقصدت به وجهة غير معروفة. من يومها لم يسمع عن سعد الخيّاط الطّفل أي خبر. إلى أن فاجأهم يومًا وهو شابٌّ يركب حمارًا. على حزامه لفّ حبلًا غليظًا من خيوط الحلفاء الخشنة وهو يردّد ثلاث كلمات: (عمّي جرّاب سبحان)...تلك الكلمات التي علقت بذاكرتنا جميعا منذ الصّغر.

-تابِع القصّة.

-بعد أن أخذته العجوز وداوته أصبح سعد الخيّاط عاجزًا عن المشي بسبب رصاصة عمّه التي أُصيب بها في صباه. لكن العجوز أحسنت تربيته

ولم تشجّعه على الثّأر والانتقام بقدر ما غَرَسَتْ فيه روح التّسامح والمحبّة والمغفرة والتّعايُش. حتّى عاهدها على ذلك أمام الله وهي تودّعه بآخر نظراتها قبل رحيلها إثر مرض عضال ألَّمَ بها في شيخوختها. تاركة إيّاه وحده في معترك الحياة وعمره ستّة عشر سنة في كوخٍ صغير بضواحي بغداد.

-مسكين عمّي جرّاب، لكن بماذا عاهَدَ العجوز التّي ربّته؟

-عاهَدَها بأن يرعى السّلام والحبّ والتّسامح بين كلّ أهل العراق على كلّ ذرّة تراب منه.

-لكن عمّي جرّاب ..ماذا فعل؟ حتّى إنّه لا يتكلّم وهو يجوب الشّوارع والأحياء والمدن والأرياف. تعرف هو لا ينطق بأكثر من تلك الكلمات الثّلاث بطريقة آلية..عمّي جرّاب سبحان..كلّ ما كان يفعله كان يأخذ الطّعام، واللّباس، والزّاد، والنّقود من هذا البيت ليعطي منه إلى البيت الثّاني. حتّى أنّنا كنّا نضحك مِمّا يفعل وظننّاهُ من المجاذيب أو من ناقصي العقل.

-الطّعام هو مربط الفرس في حكاية عمّي جرّاب. تلك رسالة عمّي جرّاب لكلّ أهل العراق. كان في رحلاته وتجواله على حماره وبتوزيع مِمّا يجمع على العائلات يذكّرهم ضمنيًّا أنّهم أبناء دم وعمومة، أنّهم أهل وأصدقاء وجيران وأصهار. وأنّهم تنفّسوا الهواء نفسه وشربوا الماء نفسه،

وأنّهم يأكلون من الطّعام نفسه، كان يريد أن يرجع لُحمة العراق من جديد وقد نجح في ذلك وعَمّ العراق السّلام والحبّ، وكان كلّ أهل العراق مهما اختلفوا عائلة واحدة في ذلك الوقت. تلك هي حكاية عمّي جراب.

-أظنُّ أننا نستطيع أن نقول رَحِمَه الله. عرفناه شيخًا كبيرًا في صبانا ثمّ غابت عنّا أخباره تمامًا لا شكّ أنّه لاقى ربّه.

-رَحِمَه الله مثلي.

-ليرحمنا الله جميعًا، الرّحمة تجوز على الميّت وعلى الحيّ.

صبريانا ...تأخّر الوقت. عليك العودة حبيبتي. أمّك مريضة وحدها مع أويس اِبننا واِبنك الذي ربّيتِه زيدون هناك.

-اطمئن ناظم. الحمد لله أنّ اِبننا مُعافًى ولم يتأذَّ كأغلب أطفال العراق، لم يُصبه مارد عاصفة الصّحراء الأسود الخانق.لم تَنَلْ منه غازاتها الكيميائية والجرثومية. ذاكرته نَشِطَة وعقله سليم وجسده قويّ. أنت لا تعلم ما الذي حلّ بأطفال الحرب هنا، شَلَلٌ وتخلّف ذهنيّ، وذُهان، وعمًى، وصَمَم، وتشوُّهات خِلقية، وإعاقات من الدّرجة الثّانية والدّرجة الثّالثة، إضافة إلى الإهمال وعدم العناية، وانعدام الرّعاية الصّحية. وقلّة ذات يد الأهل، وعدم

الوعي الصحّي، وانتشار أمّية الأمّهات والآباء على حدّ سواء من الجيل الجديد.

-أووف...أسفي على العراق وأبنائه من الأطفال والمسنّين خاصّة لأنّهم من الفئات العاجزة عن ردّ العدوان عنها، صبريانا.. لماذا لم ترحلي إلى الدّانمارك كبقية أفراد عائلتك أو إلى تونس؟ ألستِ من أصولٍ تونسيّة على حدّ علمي؟

-نعم جدّي من أبي تونسيٌّ لكنّه قَدِمَ وهو شابٌّ يافع، واِستقرّ هنا بعد أن تزوّج عراقية. نتيجة لذلك قاطَعَه أهله، فغَضبَ ولم يسأل عنهم ونسي أنّه من هناك رغم أنّه اِحتفظ طوال حياته بحفنة ترابٍ من أرض تونس، كان يحملها أينما ذهب في صرّة يضعها بجيب سُترته، وأحبّ العراق ككلّ العراقيين. أمّا أبي وإخوتي فلم يعرفوا وطنًا غير العراق.

-أنا أُكنُ العرفان إلى جدّك إذًا.

-ههها ..كل العرفان.

-لو لم يعش بالعراق ولم يتزوّج عراقية ويستقرّ بالعراق لما عرفتُ حفيدته الجميلة وأحببتُها.

-وأنا..مُقدِّرةٌ لجدّي أيضًا، لو عِشتُ في تونس مثلًا لما قدّر لي أن أعرفك أو أحبّك.

- أخذتِ جمال عيون الفتيات العراقيات الواسعة وامتشاق الحاجبين كسيفين وطول قاماتهن، وأخذتِ جمال بشرة الفتيات التّونسيات وصفاءها. تلك البشرة المفعمة بجمال البحر الأبيض المتوسّط، الكثير من التّونسيات لهنّ عيون زرق مثلك ولهنّ شعر أشقر مثلك.

-هل التّونسيات جميلات؟

-نعم جميلات مثلك.

-هههها.. حقًّا؟ قل لن أغار هل التّونسيات جميلات كالغربيات؟

-التّونسيات أجملُ من بنات الغرب لأنّ دماء عربية تجري بعروقهنَّ. والعراقيات جميلاتٌ بصفاتهنَّ العربية الخاصّة وأنت تونسية عراقية، إذًا أنت أجمل من الاثنتين.ههه..أجمل من الجمال.

-أنا أفتخرُ بجنسيتي العراقية وبدماء عراقية تجري في عروقي غير مُنكرة لدماء أخرى تتدفّق بشراييني هي دماء جدّي التّونسي. ههههه أنا كلّ الوطن العربيّ بدماء مغاربية وأخرى مشرقية.

-يا كلّ الوطن العربي تصبحين على خير. وليدنا ينتظر هناك.. أريدُه سليم المدارك العقلية والبِنية الجسدية. عِراقنا يحتاجه، كلّ وطننا العربي يحتاجه، سيستيقظ من نومه ولا يجدك إلى جانبه، أسرعي.. إلى اللّقاء.

-في أمان الله ناظم ..إلى اللّقاء سآتي قريبًا.

الفصل الخامس

الباب الأوّل

الزّنزانة

مع الظّلام الدّامس الذي يغلّف المكان قفلتُ عائدةً وقد ضعفت حركة السّير وتلاشت بالشّارع المؤدّي إلى البيت. نُسَيْمات ليلية عليلة تحاول أن ترفع غطاء رأسي عنه بلطف. أردتُ أن أستمتع أكثر ما يمكن بتلك النُسَيمات النّادرة في صفائها قبل أن يعاود القصف وتتلوّث. لأنّ الهواء النّقي في العراق صار كالعملة الصّعبة مثله مثل النّفوس الصّافية. لكنّني تذكّرت كلام ناظم عن ضرورة الإسراع إلى البيت.

رُحت أجري وأجري وسحابة مُتبقية من عتمة اللّيل تلفّني. تعثّرتُ في الظّلام بحجر واِلتوى كاحلي. جلست ثانية ركبتي ويدي اليمنى تحرّك أسفل قدمي يمنة ويسرة، في محاولة يائسة لمعالجة تورّم خفيف في الكاحل الذي يؤلمني بشدّة.

بعد حوالي نصف ساعة من المسير اِنطوى اللّيل، وتسرّب إلى السّماء لون فضيّ حائل. أدركتُ أنّني عند الفجر وعليَّ الإسراع بالعودة قبل أن تفطن أمّي لغيابي، أو ينهض وليدي أويس من النّوم وينخرط في نوبة بكائه اليومي طلبًا للحليب. وقد يقلق عليَّ اِبني بالتبنّي، ولمعرفتي بجسارته أخشى أن

يخرج للبحث عني رغم صغر سِنّه. ثمّة ما يُطمئنني على زيدون قليلًا، وهو معرفتي بعادة اِنخراطه في النّوم العميق كلّما أوى إلى فراشه. مسكين يتعب كثيرًا في شغله كمصلّح درّاجات نارية.

تعجّلتُ خُطواتي إلى المنزل رغم الألم الشّديد الذي أشعرُ به في كاحلي. الطّقس أصبح شديد البرودة والشّارع يكاد يكون خاليًا من المارّة.

خشخشت أوراق الشّجر تحت حذائي، وصار حفيفها كمعزوفة موسيقية فوضوية الإيقاع. أحسستُ بشيء من الضّعف ولم أتوقّف عن المسير، ثمّة قوّة كامنة فيّ تدفعني إلى المقاومة. ابني وأمّي بالبيت وحبيبي نزيل المقبرة هم القوّة. كبحتُ صرخة ألمٍ في داخلي ومضيتُ في طريقي غير آبهةٍ.

لم تخذلْني رجلاي هذه المرّة، رحتُ أجيلُ بصري في الشّارع أمامي والشّارع الذي يتقاطع عنه على يميني وشمالي. قرابة المائة متر فقط بقيت تفصلني عن المنزل. مشيتُ في مسلك مرصوف بالحجارة وقد تكدّست حجارة أخرى على حواف الرّصيف بشكل متباعدٍ نسبيًّا. الحرب لم تترك أيّ أثر للجمال بالحيّ كما بالوطن كلّه.

لم تمضِ فترة قصيرة حتّى سمعت هدير سيّارة رباعية الدّفع من نوع تيوتا. أدركتُ حجم الخطر الدّاهم وحثثتُ الخطى وأنا حذرةٌ. في غمرة الضّوء الضّنين لم أستطع أن أتبيّن عن بُعدٍ مَنْ بالسّيارة إذ كانت الطّريق مظلمة وشبه

خالية. كانت غدّتاي الكظريتان سريعتي النّشاط. بيد على صدري وأخرى مسكت بطرف ثوبي سائلة الله طوق نجاة. طفرت الدّموع من عيني وأنا أتوقّع مصيرًا مجهولًا. سمعتُ صوتًا كالزّعيق والكلمات موجهةً إليَّ:

-قفي مكانك. اِرفعي يديك إلى فوق. لا تتحرّكي.

اِستدرتُ لأرى خلفي عدّة سيارات عسكرية تتقدّمها سيّارة رباعية الدّفع سوداء. ذُعرتُ، جفلتُ في مكاني، بدوتُ كسيرةً، ألم شديد قد فتّت عظامي. كنتُ أرتعشُ من رأسي حتّى أخمصي قدمي، حفّ بي الشّقاء فاستعذتُ بالله.

طوّقني عدد كبير من الغربان ذوو سراويل ومعاطف وقبعات سوداء، مدججون بالهراوات والمسدّسات. مهيضة الجناح حدّقت إلى الفراغ أمامي، كنتُ أجِدُ صعوبةً كبيرةً في التنفُّسِ. وطّنتُ النَّفس على قبول ما هو آتٍ، تيبّست قامتي كتمثال، كالحجر الأصمّ كنتُ أنتظرهم وأنتظر مصيري.

قِصّتي في هذه الحياة لم تكن قط ككلّ القصص ويتحتّم عليَّ أن أتوقع الأسوأ. دنا منّي أحدُهم ممّن يسمّونهم فرقة الموت وهو يبتسم اِبتسامة ذئبية ماكرة. كان حليق الرّأس ككلّ من معه، ضخم القامة، بارز الكرش، منتفخ الأوداج، مُتجيّب الجفنين السّفليين. أخذ يتفرّسني وهو يدور حولي كمن يتفرّس ذبيحته ليُمَنّي نفسه بوليمة شواء شهيّة ثم قال بعربيةٍ ركيكة:

-تبدين جميلة يا فتاة، أين كُنتِ؟

قال آخر وبلسانٍ عربيّ أكثر فصاحةً ويضع قناعًا أسود على وجهه :

- ألا ترى أنّها راجعة عند الفجر، حتما كانت مع عناصر مقاومة الوجود الأمريكي بالعراق.

بغضبٍ شديدٍ قلتُ:

- ليتني كنتُ معهم، لكن قولوا ما مبرّر وجودكم أنتم هنا؟ أليس العراق بلدًا مستقلًّا؟ ودون أن أحصل على إجابة قال ثالث باللغة نفسها وبالأسلوب نفسه:

- أنتِ عَشيقةُ ذلك الخرف زعيم المقاومة، أكنتِ معه، قولي، مددتِه بالسّلاح أم بالطّعام؟

قال آخر:

-آه.. أنتِ إذًا من تفكّين عنه العزلة، أنت حلقةُ الوصل بينه وبين حفنة الرّعاع الذين يسمّون أنفسهن مقاومة .

بغضبٍ جاءت إجابتي:

- قلتُ لكم: ليتني، لكن للأسف لا شأن لي بهم .

تكلّم الأوّل مرّة أخرى وهو ينظر إلى طربوشه في يده:

-منذ أيّام كنّا نرى في حضورك في هذا المكان وفي مثل هذا الوقت لُغزًا، بعد أن تقضّي ردهًا من اللّيل في مكان أظنّه ليس ببعيد عن هنا. مِن هيئتك لا يبدو عليك بنت ليل قولي ما الأمر؟

بتماسُكٍ على نحو لافتٍ قلتُ مُتهكّمة:

-نعم كنت مع زعيم المقاومة. قضيتُ معه اللّيل، أعددتُ له الفطور وتركتُه على الطّاولة.

أحدُهم صفعني بقوّةٍ. ولم تكد يده ترفع حتى تلتها صفعة من الثّاني تافلًا على وجهي. سَقَط قرطي الأيسر على الأرض، نزّت أسناني بالدّم وتورّمت شفتي العليا في الحال.. فقال أحدهم:

- هكذا تكونين أجمل. شفتاك أصبحتا أكثر اكتنازًا وصالحتين للتقبيل. أنت صالحة لتطبيق نظرية الكاماسوترا. (ضاحكا في خُبثٍ).

قال زميله على يمينه ساخرًا :

- هي تطبقّها لكن لا تعرف معناها، عربية ماذا تفهم في الثّقافة حتّى ولو كانت...هههههه.

أجبتُهم بلهجةٍ فيها الكثير من الزّهو:

-الكاماسوترا هي نظرية الجنس عند الهنود، وثمّة كتاب "لفاتسيايانا" بهذا العنوان. ولعلمكم أنّ الكاماسوترا وهي طرق وفنون اللّذة يمكن أن يمارسها حتّى بعض كتّاب الرّوايات والقصص لعجز فنّي عن شدّ المتلقّي.

بصوتٍ مُرتفعٍ كالرّعد قال أحدهم:

-إذًا أنت عربية مثقّفة.

قال الذي يقابله:

-ومثقّفة جدًّا هي، هل درستِ خارج العراق؟ هل درستِ في أمريكا؟

بتحدٍّ قلتُ:

-لعلمك الفتيات العربيّات أكثر ثقافة من الفتيات الأمريكيات التّافهات في أغلب الأحوال.

بعنف ركلني على مؤخرتي حتّى كدتُ أسقط على وجهي. ثم شدّني من شعري إلى الوراء في عنف أشدّ فسقط غطاؤه على الأرض كما قرطي الأيسر. هكذا تكتمل حكاية قصيدة عراقية حزينة. رفعتُ رأسي وراحتي متضرّعة إلى الله مُردّدة:

-"يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين".

شعرتُ بكفّ تلطمني من جديد ثم كبّلوني مقيّدين يدي إلى الوراء، وأغلقوا فمي بخرقة قماشٍ من ذلك الذي يتمطّط. وضعوا على رأسي كيس قماش أسود خشن الملمس كجلد سلحفاة.

هزّتني فورة غضب عاصفة كالإعصار. أحسستُ بالاختناق، تساقطت عوالمي أمامي. أنا تحت رحمة أولئك الأوباش، مغتصبي أرضي ونعمها وخيراتها. فكّرتُ بابني الرّضيع وابني بالتبنّي. فكّرتُ بأمّي المسكينة التي طعنت في السّن، واعتراها الوهن ولم تعد قادرة حتّى على شؤونها الخاصّة جدًّا. ليس بوسعي الآن أن أفلت مِن بطشهم وطغيانهم.

توغّلت في دهاليز ظنوني كثيرًا، اعتصرتني الأسئلة. الظّلام ابتلعني في جوف السّيارة الرّباعية الدّفع السّوداء. انتهى أمري، وسأقبر في درج النّسيان في أحد السّجون، وما أكثرها في البلد، هذا إن رحموني .أمّا إن لم يفعلوا فسيرمون بجثّتي للكلاب السّائبة بعد ساعة أو يزيد.كبير حزني وشديد كدري.

تناهى إلى سمعي نباح كلابٍ ليس ببعيد، فأدركت إنّني قريبة من مواطن العمران. كلّ ما أحسستُ به هو رجرجة زجاج نوافذ السيّارة من حين لآخر عند مرورها من أحد الطّرق أو المسالك غير المعبّدة ربّما.

استغرقهم الوصول إلى الموقع قرابة النّصف ساعة. عند باب السيّارة أمسكني أحدهم من ثوبي جهة الرّقبة حتّى كاد يخنقني به، وبإحدى يديه دفعني من الخلف لأسقط أرضًا. إثر ذلك سمعت صليل مزاليج بوّابات عديدة فتحت الواحدة تلو الأخرى. بعد عناء وصلتُ إلى باب خامس.. تقدّم منّي أحدهم حتّى أحسست بأنفاسه تحرق أنفاسي وأزاح عنّي الكيس الأسود . ثم انتزع شريط القماش المطّاطي من بين شفتي وفكّي. تجوّلت عيناي المتعبتين في الممرّات الضيّقة المعتمة للمبنى. اعترضتني رائحةٌ عفنةٌ وكريهة. اشمأزّتْ نفسي. أصابني الغثيان وأحسستُ بتقلُّب في أمعائي. توسّلتُ كثيرًا ليخلوا سبيلي. نشجتُ بيأسٍ من أجل ابني وأمّي وليس من أجل حرّيتي فقط.

في حجرةٍ صغيرة بمترين عرضًا تقريبا أجلسوني أمام طاولة بنّية قديمة متشقّقة. بها خربشات كثيرة ونقشات لحروف وكلمات باللاتينية وحروق سجائر على حوافّها الأربع. مِن وراء نظّارتين صغيرتين رمقني أحدهم وهو قادم ليجلس إلى الطاولة. خضراء كلون الملوخية قبالتي. كان يبدو عليه البرود والتّعجرف، بطنه أمامه وشعره قليل من الجانبين، منعدم من الأمام. أحسست بتيبّس في ملامح وجهي، وفي شفتي، وفي وجهي. تمطط الوقت

على نحو مقلق جدًّا وأنتظر ما سيسفر عنه مصيري في هذا المكان الكريه المليء بالقاذورات ورائحة المراحيض والعرق..الرّجل الذي جلس أمامي فاحت من ملابسه رائحة نتنة جدًّا. من أين له بالنّظافة وهو كأغلبهم لا يعرف الوضوء، ولا الاغتسال بعد دخول الحمّام.

وهو يتصفّح أوراقًا ويقرؤها سريعًا كانت رائحة البصل والسّردين ومكونات أخرى تعفّنت بين أسنانه تعمّ المكان. رائحة فمه زادت من حالة الغثيان التي انتابتني منذ ولوجي هذا المكان. قال وهو يتصفّح ملفًّا أمامه:

-أنت فتاة عراقية -تونسية أمم ...م ..تخرجين كلّ ليلة. تسلكين طريق الواحة والمزارع .تغيبين ساعات ثم تعودين مع الفجر وكأنّ شيئًا لم يكن .تقولين إنّك معاونة زعيم المقاومة.

محاولة أن أجعل صوتي هادئًا في جلسة التّحقيق معي:

- لا.. لا..لا لم أقل هذا.

-أنت قلت وهذا مسجّل عندي من قبل العسكريين الذين ألقوا القبض عليك متلبّسة بالجرم المشهود.

- ليس بالصّحيح أنا قلتُ ذلك ساخرة من سماجتهم، وسذاجتهم لمّا اتهموني بأنّي معاونته. نعم قلت ذلك تهكّمًا لا غير. لوكنت منخرطة بالمقاومة

فذلك شرف. لكن في هذه الحال لماذا أخرج عزلاء من السّلاح؟ قبضوا عليَّ وما بيدي ولا في حوزتي غير ملابسي التي عليَّ، والتي فقدتُ بعضها كغطاء رأسي وقرط أهدته لي أمّي في صِغري.

– لسنا نعرف على وجه اليقين أين كنتِ؟ أنتِ راجعة في الفجر، والمسألة تتكرّر كلّ ليلة تقريبًا. هل لك عشيق؟

–نعم هو ليس بعشيق، هو حبيبي وزوجي (أجبت على الفور).

–زوجك تلاقينه خفيةً وسِرّا ما هذا الهراء؟

ثم قام هادرًا كالثّور وشدّني بعنف:

– مَن يسخر من أمريكا عاقبته وخيمة. لا أحد يسخر من أمريكا لا أحد.. فهمتِ.

–لا أسخرُ، بل هي الحقيقة. أنا أذهب لزيارة زوجي الميّت وهو أب ابني.

–متى تُوفي زوجك؟ هل قُتل في الحرب؟ هل هو مقاوم لوجود أمريكا أيضًا؟ أنتِ إذا واصلتِ مشواره لوجستيًّا مع المقاومة؟

–زوجي تُوفي منذ قرابة العشر سنوات، وابني لم يكمل السّنة من عمره بعد، يحتاجني كثيرًا.

-معادلة رياضية هذه صعبة الحلّ. كيف يُتوفّى زوجك من عشر سنوات ويولد ابنك بعده بتسعٍ. هل هو ابن رجل آخر عشيق مثلًا؟

-لا لا.. نحن ماجدات العراق. ماجدات عربيّات. للشّرف عندنا مكانة تساوي حياتنا أو يزيد في بعض الأحيان، إلّا من شذّت عن القاعدة. والشّواذ من الجنسين كثر في كلّ الدّنيا. ابني طفل أنبوب، أنجبتُه من زوجي بعد وفاته بواسطة حيوانات منوية احتفظ بها في بنك جينيّ مُعَدٍّ للغرض. تعرف أن العلوم تطوّرت.

-هاهاها ...إمم ..م ..العلوم وإن تطوّرت ليس بفضلكم. ولكن بفضل أمريكا التي تأتيكم الآن بالدّيمقراطية وتحاربونها وتقتلوننا من أجلها. لا تمسحي بطرف كمّك دمعك الذي يسحّ بغزارة لن أُشفِق عليك:

- دعني أذهبْ وأخرجْ من هنا، ابني رضيع ووالدتي مريضة أخاف عليهما. أليس لك أمٌّ وأولاد؟ مِن أجل أهلك دعني. ولا أشكُّ في أنّك تشتاقُ إليهم. دعني أذهبْ.

- أأنتِ مجنونة ما هذا الكلام؟ هل ظننتني سأصدّقك بهذا الهراء الفارغ؟ اعترافاتك على قدر من التّضليل.

ثم أومأ لأحدهم كان يقف قُرب الباب ويتّكئ إلى الحائط. لم أتبيّن سَحنته من بعيدٍ من فرط ما بكيت، ومن فرط ما تعبت عيناي من جريان الدّموع. عندما اقترب منه الأخير صرخ في وجهه:

– أريدُها أن تستوي كالخبز الأمريكيّ ذي اللّون البنّي. اجتهد وتفنّن في ذلك. هي تسخر من أمريكا. لا أحد يسخر من أمريكا. لا أحد.

ثم التفتَ إليَّ في حنقٍ صارخًا في وجهي مرّة أخرى:

-أنتِ إرهابيةٌ ككلّ هؤلاء الإرهابيين.

وقد شعرتُ بقوّة لا أعرفُ مَنبعَها:

– بإمكانِكم إذا أن تطبّقوا عليَّ نظرية واحد في المائة الخاصّة بالإرهاب. أليس هذا ما يريده رئيسكم؟ أليس كلّ فرد عربي إرهابي في عُقر داره حسب مفهوم السّياسة الأمريكية؟ لأنّه يدافع عنها وعن حمية أهله وأرضِه وعِرضه ودينِه؟ مع إنّني ضدّ الحرب بسبب النّعرات الدّينية والمذهبية. وما تنادون به أنتم وأمريكا كما تقول هو الحروب الصليبية الجديدة. إذًا ما دمتم تحاربوننا على أراضينا نحاربكم.

في قرارة نفسي فهمت أنّ القادم ليس بالهيّن، وأنّ أوقاتًا عصيبة تنتظرني وعليَّ تحمّلُها. وأنّ هذا الرّجل سيقودني إلى زنزانة منفردة. وسيفعل فيّ ما

يحلو له من ضرب وتعنيف وإهانات. وربّما سيتمادى أكثر ليجبرني على أن أقول ما يريدون أن أعترف به ولو كذبًا. ذُعرتُ وعضضتُ على شفتيّ. كان المجنّد لم يبلغ العشرين من عمره بعد. ربّما في التّاسعة العشرة أو الثّامنة عشرة. بشرته دكناء بعض الشّيء، عيناه سوداوان وواسعتان، بدا نحيلًا. كان يرتدي سُترة جلدية. مسدّسة مُثبّت بعناية في جرابٍ أبيض. على كتفه ينزل شريط منه حتّى وسطه وحذاؤه العسكريّ مُلمَّع بعنايةٍ فائقة.

وقفتُ أمامه خائرة القوى، الخذلان على مُحيّاي. ازدردتُ ريقي بصعوبة، أغمضتُ عيني وتنّفست ببطء. أبدى الجندي نفاد صبرِه وهو يقودني من ذراعي كما تُؤخذ خرقةٌ بالية.

كانت لحظة شديدة الوطأة عليَّ وأنا أُساق إلى زنزانةٍ كقبر. متر في متر ونصف هو مسكني في هذا السجن الأمريكي اللعين. مُتسائلة في قرارة نفسي: كم سأمكثُ في هذه الزنزانة؟ وهل سأخرجُ حيّة أم ميّتة؟ أوكلتُ أمري إلى خالقي. العِلم بيد الخالق الكريم. وحده يمكن أن يحميني من شرّ هؤلاء الطّغاة، وما عليَّ إلّا التضرّع إليه.

لم أنبسّ ببنت شفةٍ لأشتم أو أقاوم ولو ببعض الكلمات. كنت خائبة الرّجاء. لأنّني ظننتُ دائما أنّ من أكثر الأشياء حماقة أن يظهر المرء قوّة أمام

من يفوقه في العدّة والعتاد. في حين أنّه يدرك في الوقت نفسه أنّ المعركة خاسرة ولا بدّ من استراتيجية أخرى وتخطيط آخر لكي تنجح.

رفضتُ الاستسلام لمطبّات اليأس؛ كنت هادئة. إحساس أصمّ يثقل روحي. في أروقتها تتزاحم وتتشابك خيوط اللّاجدوى في كلّ شيء. في كلّ داخلي ومن حولي عوالمي تتساقط. فقدتُ إحساسي بالزّمن وحتّى بالمكان رغم ما يفرضه قسرًا من مشاعر الاشمئزاز من عفونته ورائحته الكريهة. جلستُ القرفصاء في علبة سردين رصاصية اللّون. وكلّ ما عليَّ هو أن أتعفّن لتصير لي نفس الرّائحة والزّمن كفيل بذلك.

كان الوقت يقترب من الظّهر. لكنّ الشّمس لم تتمكّن من إرسال سوى أشعّةٍ ضنينة من الفُتحة الصّغيرة التي تربُطني بالعالم الخارجيّ.

غادر الجنديّ ليعود بعد لحظاتٍ وبيده عصا ودفتر وفنجان قهوة. بينما عدّلتُ قليلًا من وضعية جلوسي لأتّكئ على رصيف ذاكرتي، متمعّنة المارّة عبر سنوات عمري الأربعين ذهابًا وإيّابًا.

تذكّرتُ صغري وشبابي رفقة ناظم صديقي وحبيبي. وتذكرت واقعة موته وزواجي منه وهو على فراش الموت. تذكّرت حملي منه بعد تسع سنوات وإنجابي لطفل أنبوب والده مات من عدّة سنين.

تذكّرتُ رفض الشّريعة والقانون تسجيل هذا الابن على اسم والده. تذكّرت حياتي اللّيلية بالمقبرة في مسامرة الموتى وأساسًا شبح جدّي عامر وشبح حبيبي ناظم.

تذكّرتُ حياتي قبل الحرب ومنزلنا الفاخر ومنزل جارنا بدر وتلك البجعات الجميلات في مسبح بيت عائلته. تذكّرتُ والدتي ومكتبة المأمون المغرمة بها وشارع المتنبي الغاصّ بالقرّاء. تذكرتُ الفرات ودجلة ومراتع الفرح على ضفّتيهما.

تذكّرتُ دراستي الجامعية المتفوّقة وعملي بشركة الطيران كمضيّفة.

حضرتْ بذاكرتي المدنُ الجميلة والعواصمُ العريقة التي زرتُها. حضرت العادات التي تعرّفتُ إليها والثقافة الموسوعيَّة التي حصلتُ عليها من هذا العمل.

تذكّرتُ لوحتي الجدارية النّادرة الجميلة التي جلبتُها من متحف اللّوفر بباريس وأمرها العجائبي الغرائبي. تذكّرتُ اصرار المرأة الرّسم على أنّ حكايتي مع ناظم ليست بحكايتي بل هي حكاية أخرى في زمن آخر ومكان آخر. حكاية يتوارث فيها الماضي عبر تناسخ الأرواح من خلال عملية الاستنساخ لمكوّنات أو تخصيب لبويضات أو حيوانات منوية. وفي الحالتين

يقع اعتماد مكوّنات جينية تتوارث عبر وصيّة من هاته لتلك أو لذاك. ذلك حتّى لا تموت قصّة صبريانا الجدّة. وهي قصّة تُعاش وتُتوارث مع إضافات بسيطة تكفّل بها الزمن في تعاقُب لَيلِه ونهارِه.

أيقظتِ الذّكرى في نفسي ألمًا عميقًا. ومع ذلك علّقت نبض قلبي المتسارع على خيط أملٍ تخيّلته خارج زنزانتي. أمل يشعّ ويتوهّج بقوّة ليخرج روحي المُعتمة. كان ابني ذلك الخيط وذلك الأمل. ابني ..ابن الميّت الحيّ.

وَقَفَ الجندي يتمعّنني بنظراتٍ، لم أفهم ما معناها ولم أستطع تفسيرها. في حين غصت في حنايا حروف أهزوجة عراقية شهيرة بصوتٍ مُتهدّج ولكنّه رخيمٌ وخافتٌ:

"-دلّول يا الولد يا بني دلّول

عدوك عليل وساكن الشّول

اللّيلة أموت اللّيلة آخر ليله

الغيم مد إيده على راسي والمطر شد حيله

اللّيلة قطرات العمر ناقوط حب سهران

يمّه دخيلك أترجّاك ضمّيني بسواد الشّيله

دلّول يالولد يا بني

يا مطر ياسيل أخذوني على نهران الحبيب

بلكي أصادف صورته شي باقي منه أثر قدمه على الرّمل وأشكي له

وأنزع عيوني براحته وهي العيون معلّمه شتبكيله

يا طيور اللّيل أخذوني على ناسي

اللّي يموت يشوف يسمع يلتفت ينكسر قلبه ويعرف اللّي يحكيله

تمنّى وعادة اللّي يموت يتمنّى ويجيله

أنا أتمنّى الشّتاء وحضن الحبيب

وسيف قاتلني قبل ها اللّيله

دلّول يالولد يا بني".

ثم أعقبت ذلك بنشيجٍ حارقٍ وبكاءٍ تنفطر له القلوب، والجندي أمامي صامت مُرتبك وعلامات وجهه مشوّشة. تملكّتني نوبةٌ من السّعال، فخرجَ مُسرعًا وعاد بقنينة ماء، نظرتُ إليه فبدت لي روحه شفّافة كالبلّور. يملك ذخيرة هائلة من المشاعر الرّقيقة.

مضى ذلك المساء ثقيلًا. الزنزانة تضيق حتَّى كادت تطبق على ضلوعي. لونها الرّصاصي يقبض بشراسةٍ على روحي. كانت الأفكار تتصارع في رأسي والأسئلة تتزاحم.

عجبًا كيف يكون هذا مجندًا أمريكيًّا؟ أحنيت رأسي قليلًا وأنا أشدّ على عنقي من الخلف. عبستُ ملامحي وتشنّجت. أنا قلقة بشأن سلوكه. ربّما كان تكنيك المتربّص بفريسته ويجب أن أحْذَرَه:

-أ..أأ ..أنتِ عراقية تونسية أليس كذلك؟

-نعم هو كذلك.

– اسمك صبريانا. عملت مضيفة طيران .أبوك محامٍ قبل الحرب طبعًا. هاجَرَ مع إخوتك ووالدك إلى الدّانمارك. في حين بقيتِ مع أمّك. أمّك أُصيبت في الحرب بحالة من الجنون إثر إصابتها في انفجار بشارع المتنبّي وبَتْر إحدى ساقيها. تعيشين في شقّة فوق منزلكم الذي سقطت أجزاء منه بعد الحرب. هيييهآه...أوف ..لا أجد (أكسيجين). ما لي ألهثُ هكذا؟

-نعم وما اللافت في الحكاية؟

-سلكتُ طُرقًا متعرّجة لاستجوابي.

-لا .. قطعًا. أريد أن أتثبّت من أمر ما ربّما أُطلعك عليه قريبًا. ثمّة شيء ليس على ما يُرام بداخلي وبحياتك أيضًا.

نَفَدَ صبري:

-وما علاقة حياتي بداخلك؟ سلامتك (متهكّمة)، وقد نسيت أنّني مسجونة في زنزانة متر في متر ونصف .ومتّهمة بالإرهاب وبالتّعاون مع زعيم المقاومة العراقية للوجود الأمريكي في بلدي.

-أُسْسْ.. لا ترفعي صوتك عاليًا. أرجوكِ.. خطر عليك. أنا بصعوبةٍ أهمسُ إليك. لا أريدُهم أن يعرفوا ما أنا أعرف.

-ماذا تعرف؟

-ما أعرفه، عرفتُه قبل قليل من اسمك واسم عائلتك.

-نحن عائلة إرهابية؟ (مستنكرة (أليس كذلك؟

- نعم...ليس هذا، أرجوك ثقي بي (وملامح الإحباط على وجهه).

-هه.. أثق بك..هه.. أثق به قال.. كيف أثق بمن استولى على بلادي وقتل وجوّع وفرّق وأشعل الفتن بين الإخوة والعمومة وأبناء العمّ.

-إمم ..صح.. ما تقولينه صحيح. لكن لستُ أنا. هل أنا مَنْ فعل ذلك؟

- أنت ككلّ هذه التّرسانة العسكرية الهائلة بعدتها وعتادها ومجنّديها الذين لا يعرفون الرّحمة ولا الإنسانية.

-اسمعي هذا يطول شرحه. ليس لدينا وقت. المهمّ أن نفكّر معًا كيف ستخرجين من هنا بأقل ما يمكن من الأذى، وإذا بدر منّي تصرّف شائن تجاهك أمام زملائي فاعذريني ساعتها فذلك لسلامتك. هل هذا مفهوم؟

-كيف أثق بك؟ وما مصلحتك أنت حتى تخاطر بحياتك من أجلي؟

-كلّ المصلحة صدّقيني. (وهو يبتسم إليَّ ويربّت على كتفي بحنان).

-أنتم المجنّدون الأمريكيون لا أخلاق لكم. لربّما تمنّي النّفس بالنّيل من أنوثتي بهذا التزلُّف. أعرف أنّي على قدر من الجمال لكن أنا أبعد من القمر بالنسبة إليك أو لأمثالك من العلوج.

-العلوج..إممم..هذه متاهة الصحّاف ليلة الهجوم على بغداد.

-أَوَتعرف ذلك؟

-ومَن لا يعرف؟ عمومًا ليس الصحّاف أو العلوج موضوعنا. ولو أنّك نعتّني بالعِلج، وهو لا ينطبق عليَّ، وستندمين وستعتذرين منّي يومًا. أُسْسْ ..لا ترفعي صوتك أكرّر. وأنا أعذرُكِ حتّى قبل أن تفعلي بكلّ حبٍّ. مِن واجبي أن أجِدَ لك الأعذار حتّى قبل أن تقدّميها.

شعرتُ براحة لا أعرفُ مصدرها وأنا أُكلّمه. بذلتُ جهدًا كبيرًا كي أستوعب ما يجري دون جدوًى. وكأنّه قرأ أفكاري:

-هذا يُدهشك أليس كذلك؟ لا أودُّ أبدًا أن أُثير قلقك. إلّا أنّه تبقى حقيقة أخرى (مُتوجِّهًا إليَّ بالكلام)، بأكثر دهشة ممّا يجري سألته رافعة حاجبًا على حاجب:

- ما هذه الحقيقة؟

اقترب منّي أكثر رغم قصر المسافة بيننا وهو يهمس ويلتفت وراءه ليتأكّد من أنّ لا أحد آخر سيسمعه:

-دمائي ليست بأمريكية.

-هه..هههه...ليس بالجديد. فأغلب الأمريكان من أصول إفريقية وإسبان وطليان وألمان وآسيويين وحتّى عرب من جرّاء الهجرة السّورية الأولى.

-تعجبني ثقافتُك، مُبهرة، سأفتخر بك.

- أووف...تفتخر بي؟ أنا كأُمِّك إن كنت تعقد آمالًا على إقامة علاقة رجل بامرأة معي. كما قلت لك ذلك من أبعد المستحيلات.

-يحقّ لي أنّ أفتخر بك ويحق لك أن تظنّي ما تظنّينه. انظري إليَّ. تفرّسيني مليًّا. ألَا أشبهك؟

- تُشبهُني..؟ هاها... دائمًا يشبّهونني بالغربيات رغم دمائي التّونسية والعراقية. ربّما لأنّ التّونسيين لهم بعض الشّبه بمن يعيشون في محيط البحر الأبيض المتوسّط.

وهو ينظر إلى الرّواق الضيّق خارج الزّنزانة من الفتحة الصغيرة بالباب:

-انظري إليَّ.. أرجوك افعلي.

تفرّسته نزولًا على رغبته فقط وفضولًا منّي، فرأيت ملامح وجهي

في وجهه. ورأيتُ نفس التقاطيع التي بوجهي في تقاطيع وجهه. زاد استغرابي وزادت حيرتي ودون أن أفكّر أجبتُ مُهمْهِمَةً:

فع...فعلًا تُشبهني يا سبحان الله.

ردّد بلكنةٍ غربية:

-يا سبهان الله .

-أنت مسلم؟

مذعورًا:

-اصمُتي أرجوك وإلَّا قضيتِ عليَّ وعلى نفسك. أرغب بالإسلام .. تعلّمت اللّغة العربية هنا، لكن لا أحد يعلم وأحاول أن أتعرّف بشغف على دين أجدادي.

كان يبذل غاية جهده لجعلي هادئة لإبقاء الأمر سرًّا بيننا. وكنتُ أُحملقُ فيه في حيرةٍ بالغة لأنّني لم أفهم شيئًا. قرصتني بعوضة من أنفي فحككتُ مكانها عدّة مرّاتٍ لأتخلّص من الألم. ثمّ أمسكتُ برأسي مانعة إيّاه من السّقوط وأنا منكمشة في مكاني.

في اليوم التّالي وباكرًا كان المجنّد المكلّف بتعذيبي في زنزانتي. بعد قضائه قرابة السّاعة إلّا الرّبع معي. سَمِعَ وَقْعَ أقدامٍ تقترب وتشقّ صمتَنا، فرفع صوته في فظاظةٍ وهو يضرب كفًّا بكفٍّ لإيهامهم أنّه يصفعني:

-أمجنونةٌ أنتِ؟

زادت غرابة تصرّفه من حيرتي وفَهِمَ هو غليان روحي فهَمَسَ:

-أنت لك ولد كما ذكرتِ، أليس كذلك؟

-بلى.

-كيف سيكون شعورك إن رجعتِ إلى بيتك ولك اثنان.

ثائرةً:

-كيف؟ ماذا؟ أعودُ ماذا قلت؟

قذفني بروحي:

-أنا اِبنك.

ثارت ثائرتي وكدتُ أفضح أمرنا حين صرختُ:

-ملعون.

وَضَعَ يَدَه على فمي ثمّ أردف:

- أنا فعلًا ابنك.لم تُنجبيني. لم أقُلْ هذا. لكنّني ابنك.

-ما الذي تقوله؟

-ألم تضعي بويضات لك في بداية سن العشرين ببنك جيني .علّك تحتاجينها في سِنٍّ متقدّمة نسبيًّا وتكون حاجتك للإنجاب مُلحّة لتتجنبي عائق ضعف مخزون بويضاتك .

ضربتُ جبهتي بكفّي:

- آه ..صحيح. .فعلًا ..فعلتُ ذلك لأنّني أردت في حالة تأخّر سنّ زواجي أن أتمكّن من الإنجاب ولا أجد نفسي بلا أبناء.

بدا عُمق عينيه كعمق مدينة بغداد فوضويًّا ومشوّشًا. غرق في التّفكير لحظات ثم أردف:

-أنت أودعتِ تلك البويضات ببنك جيني في أمريكا، أليس كذلك؟

-نعم..صح.. نسيتها والله.

-رجل كويتي فعل نفس الشّيء عندما عرف أنّه مُصاب بالسّرطان

وفي المركز نفسه من باب المصادفات. رغم أنّ له ثلاثة أولاد ولكن أنتم العرب تحبّون السّبعة والعشرة (ضاحكًا). والخطأ عند العرب أنهّم لا يثقون إلّا بما هو غربيّ أو أمريكيّ. في حين أنّ هذه البنوك متوفّرة وموجودة بأغلب البلدان العربية.

كان الوقت يجري بطيئًا وأنا أنتظر باقي الحكاية من المجنّد الأمريكيّ (بريتشارد) .ثمّة ذبابة تدور حول أنفه. وأنا أريد أن أصرفها عنه كي يكمل حكايته التي بدت تفاصيلها تتّضح لي. مدّ بصره الزّائغ إلى كوّة في الجدار ثم إلى ملامح وجهي واستأنف الحديث:

-رُبيت بلا أمٍّ ولا أبٍ ولا عائلة. نشأتُ في معسكر للجيش. منذ السّنة الأولى لولادتي درّبوني على فنون القتال بالكمّ الهائل من اللّعب المعدّة للغرض. لم أعرف أمًّا ولا أبًا ولا عائلة. لم أعرف أصدقاء ولا معارف ولا جيرانًا. لم أعرف حنانًا ولا براءة ولا رومنسيةً. ولا حياة هادئة حالمة ككلّ أطفال الدّنيا.

وهو يتحدّث سال الدّم من أنفه ومن فمه. ذُعرتُ ومَددتُ له طرف شالي ليمسح ما بدا منه في حنانٍ وحُزنٍ أسيف عليه. فعل ذلك بسرعة وهو يُهمهمُ:

-كلّما ذكرت هذا حصل نفس الشّيء، أعني أنزف دمًا كما روحي النّازفة أبدًا.

جلس قبالتي على الأرض ملتقطًا أنفاسه، وكأنّه غير آبهٍ باكتشاف أمره. ضعفت الحركة وتلاشت خارج الزنزانة. كان الجميع نيامًا بعد أن أووا إلى مضاجعهم. أخذت كفّه وضغطت عليها بحنوٍّ. تسارعت نبضات قلبي على نحو خارج عن السّيطرة. ارتجفت يداي وأنا أمسك بيديه. أحسستُ بكيمياء غريبة تتسرّب منه إليَّ. مجرّد التّفكير في ذلك يجعل رعشة غريبة تسري في جسدي. أيُعقل ما أفكّر به؟ احتمال أن يكون ما أفكّر به يُرعبني. وقد لاحظ المجنّد التشتّت النّفسي البادي عليَّ فاستطرد:

- أنت صابريانا عبد الله؟

-نعم؟

-وأمّي صابريانا عبد الله عراقية تونسية. أمّا أبي فكويتي عراقي أيضًا.

-أ..أ..أأنا..أنا..أليس تشابه أسماء؟ أنا صابريانا عبد الله عراقية تونسية. لكن ما الحكاية؟ قُلْ أرجوك أكاد أموت من الصّدمة؟

- من ضمن استراتيجية الأمن القومي الأمريكي الهيمنة على العالم بالقوّة العسكرية التي لا تُضاهى. وكنتُ أنا وعدد كبير من المجنّدين هنا ضحية

هذه الإستراتيجية للأمن القومي الأمريكي. حيث سعت أمريكا إلى سرعة التّجنيد وضخامته بكلّ الطّرق عن طريق المال والهجرة وتفريخ الجنود.

بحركة من رأسي أيّدته ثم علّقت:

-نعم نعم تفريخ الجنود. هل أنتم فراخ دجاج هنا؟

-وأكثر ...نحن صنيعة آلة لا تعترف بالإنسانية ولا بالأخلاق. بالنّسبة لحالي وحال أغلب من مات ومن ينتظر دوره في هذه الحروب الطّاحنة الأفغانية والعراقية وغيرها في الدّول الأخرى.

-واصِلْ.

-بعد غزو العراق للكويت استغلّت أمريكا الأمر .واعتبرتها الفرصة التي لا تعوّض لتسيطر على ثروات العالم العربي. خاصّة الطّاقة منها وشرعت في تنفيذ استراتيجيتها ..استراتيجية الهيمنة. وأولاها كانت حصار العراق ووضع اليد على كلّ ودائعه من مال ووثائق وحتى بنوك جينية. ومن ثمَّ وَقَعَ السّطو على الودائع الجينية العراقية والكويتية. ووقعت السّيطرة على تلك التي تعود لدوّل عربية أخرى. لتفريخ جنود من أصل عربي كي تحارب بهم العرب.أعني (فخّار يكسّر بعضه).

قبل شهر فقط كنتُ أؤمن بما أتيت من أجله وهو سلامة أمريكا.

والأمريكان. بعد أحداث ١١ من سبتمبر لعنهم الله كيف أقنعونا بهذا؟

-ما الذي حصل بعد ذلك؟

-آآآآآآآه....كنتُ أظنّ أنّني يتيم الأب والأم وأنّ أمّي وأبي وجدّي وجدّتي قد ماتوا في حريق شبّ بمنزلنا وأنا لم أبلغ السّنة بعد.

-لكن.

-أوووف.. لكنّ الحقيقة مفزعة ومرّة. أنا كفرخ دجاج. وُلدتُ في محضنة معّدة للغرض من أمّ عراقية وأبٍ كويتي عراقي. اكتشفتُ ذلك من خلال تلصّصي على ملفّات الجنود بعد أن سنحت لي الفرصة في غفلة من المسؤول عليها. في ليلة رأس السنة الماضية بالَغَ المسؤول في شُرب الكحول. ونام بعدها كما ينام الميّتون. أتعلمين ماذا اكتشفت؟

-ماذا؟

أطفأ سيجارته وتنهّد مُحدّقًا إليَّ. ثم ارتشف ما تبقّى في فنجان قهوته:

- اكتشفت أنّني مجرّد رقم في التّرسانة العسكرية الأمريكية .وقرأت بطاقة هويّتي المؤلمة جدًّا. لأعرف أنّي لست بأمريكي. وأنّ لا عائلة لديَّ

أصلًا. عرفت أنيّ نتاج عملية تلقيح لبويضة امرأة عراقية بمني رجل من أصل كويتي عراقي. تجاهلتُ أنّي أعرف الحقيقة لأضمن سلامتي حتىّ لا يقتلوني دون أن يرفّ لهم جفن. لكن في الآنِ نفسه شدّني الحنينُ إلى أُصولي وإلى لغة قومي فتعلّمتُها. كنتُ بصدد البحث عنك بعد أن تمكّنت بواسطة النّت من التعرّف إلى أبي الذي مات السّنة الماضية فقط. لي إخوة كويتيون يعيشون بسويسرا وأنا أتواصَلُ معهم على النّت وعرّفتهم بنفسي وقد قبلوا فكرة أنيّ أخوهم. العرب طيّبون. لا أُخفيكِ بين الحين والآخر يُراودني خاطر الانتحار.

–هيياه ..عظيم حزني وشديد كدري والله .الذنب ذنبي بُني. آه جئتُ هنا ولي ابن واحد فإذا بي أكتشفُ أنّي أمٌّ لمجنّد أمريكي يحارب العراقيين ويقتلهم في عُقر دارهم وعُمق بلادهم. مِن المخزي حقًّا لي ولك وللعراقيين ككلّ. لعن الله السّياسة الأمريكية ومن يوجّه هذه السّياسة للقتل والتّدمير والاحتلال. بَلَدُنا دُمّر بالكامل. بِنيته التحتية، اقتصاده، موارده. حتّى الإنسانية فينا دمّروها. كلّ أنواع القتل والتّشويه والتّعذيب والتّجويع والإهانات والإذلال مورست في هذا المكان. حضارتنا نُهبت وشُوِّهت ودُمّرت ومُحيت. كلّ أنواع الأسلحة استعملت. من الخفيفة إلى الثّقيلة إلى

الجرثومية والكيميائية. سامحني بُني لم أكن أعلم أنّ تلك البويضات ستُستغلّ لهذا الغرض الشّنيع والفظيع واللاإنساني. أمريكا أتت بكلّ نفايات بذاءة العالم وقُبحه وألقت بها هنا.

أمّا أنتم أقرّ أنّ بعضكم أيضًا ضحايا غُرّر بهم، وسُلبت إرادتهم أو كانوا روبوتات.سامحني في الكلمة جارحة ولكنّها الحقيقة، بعضكم رجال شبه آليين.

-نعم ثمّة كاتبة عربية تحدّثت عن مثل هذا الأمر في رواية لها .تحدّثت عن عملية استنساخ جنود للمشاركة في الحروب التي تفتعلها أمريكا للسّيطرة على العالم. أظنّ أنّ الرّواية بعنوان ثكنة أو معسكر أو ما شابه هذا.

- انتظر أظنني عرفتُها، هي رواية معسكر الحبّ لأديبة تونسية.

نعم..نعم هي تلك .أبدعت صاحبتها في تصوير فظاعة المشهد.

في غفلة من بقية الجنود. اقتربتُ منه. احتضنته بقوّة. أجهش بالبكاء وامتلأ وجهي بالدّمع وأنا أُتمتمُ:

-هذا ليس عدلًا. ليس عدلًا. حاوِلْ بُنيَّ أن تنسى هذه الآلام. سأحاول إن استطعت أن أعوّضك (مُبتسمة) طبعًا إن خرجتُ من هنا.

-ثمّة جروح لا يمكن للإنسان أن يُشفى منها طوال حياته .هي تلك الجروح النّفسية كما تعلمين وأنت المرأة المثقّفة تعرفين هذا.

أحسستُ بعذابه وتعذّبت نفسي بشدّة. لكن لا يمكنني أن أفعل شيئًا حيال ذلك. هو مجنّد أمريكي. حاولت فقط أن أخفّف عنه ببعض كلمات لست أنا نفسي مقتنعة بها:

-الزّمن كفيل أن يتولّى الكثير من الأمور يا بُنيَّ. كفيل بأن يجعلنا ننسى.

ودخان سيجارته يخرج من بين شفتيه أسود كثيفًا:

- أنت طيّبة جدًّا وشفّافة كالبلّور. لستُ أعرف على وجه اليقين كيف سأتمكّن من إخراجك من هنا، ولكن ستخرجين من هنا إن شاء الله مهما يكلّفنا الأمر.

رشفتُ آخر قطرة قهوة من فنجاني الذي أحضره لي خُلسةً.. بينما أردف هو وبصوته نبرة استياء:

-اليوم تعبت جدًّا. لقد أبليتُ بلاء حسنًا. منذ الصّباح الباكر

وأنت على هذه الحال هنا والسّاعة الآن تجاوزت الواحدة ليلًا. أرى وجهك يزداد شحوبًا. تبدين ذابلة وذاوية، سأعطيك حبّة من "البرازولام "

لتتغلّبي على الصّداع..منذ أن أتيت إلى هنا لا أنام إلّا بها وكان كابوسًا مريعًا أن أكتشف حقيقة نسبي.

أخذت حبّة البرازولام وازدردتها في الحال. نمتُ بعد دقائق وبقيَ هو إلى جانبي حتّى الفجر. لكن سرعان ما أفقتُ وأخذتُ أتململُ وأتقلّبُ يمينًا.. شمالًا .رغم الرّاحة النّفسية التي شعرتُ بها إلى جانب المجنّد الذي أصبح ابني الذي لم ألده. لم أجد إلى النّوم سبيلًا. سمعته في صلاته المسيحية ينشد قسمًا من الإصحاح الثّالث من سفر أيوب "بَعْدَ هذَا فَتَحَ أَيُّوبُ فَاهُ وَسَبَّ يَوْمَهُ، وَأَخَذَ أَيُّوبُ يَتَكَلَّمُ فَقَالَ:

-لَيْتَهُ هَلَكَ الْيَوْمُ الَّذِي وُلِدْتُ فِيهِ، وَاللَّيْلُ الَّذِي قَالَ: قَدْ حُبِلَ بِرَجُل. لِيَكُنْ ذلِكَ الْيَوْمُ ظَلاَمًا. لاَ يَعْتَنِي بِهِ اللهُ مِنْ فَوْقُ، وَلاَ يُشْرِقْ عَلَيْهِ نَهَارٌ. لِيَمْلِكْهُ الظَّلاَمُ وَظِلُّ الْمَوْتِ. لِيَحُلَّ عَلَيْهِ سَحَابٌ. لِتَرْعَبْهُ كَاسِفَاتُ ظُلُمَاتُ النَّهَارِ. أَمَّا ذلِكَ اللَّيْلُ فَلْيُمْسِكْهُ الدُّجَى، وَلاَ يَفْرَحْ بَيْنَ أَيَّامِ السَّنَةِ، وَلاَ يَدْخُلَنَّ فِي عَدَدِ الشُّهُورِ. هُوَ ذَا ذلِكَ اللَّيْلُ لِيَكُنْ عَاقِرًا، لاَ يُسْمَعْ فِيهِ هُتَافٌ. لِيَلْعَنْهُ لاَعِنُو الْيَوْمِ الْمُسْتَعِدُّونَ لإِيقَاظِ التِّنِّينِ. لِتُظْلِمْ نُجُومُ عِشَائِهِ. لِيَنْتَظِرِ النُّورَ وَلاَ يَكُونْ، وَلاَ يَرَى هُدُبَ الصُّبْحِ" ثم ينشج

ويبكي متنهدًا .

تظاهرت أنّني ما زالت نائمة لكنّني كنتُ أبكي في صمتٍ. وأطلب من الله أن يساعدني في إرجاعه إلى دين أجداده وأن أتمكّن من إدخاله إلى الإسلام.. دين المحبّة والسّماحة. أمّا هو فتعمّد أن يتركني نائمة كي أرتاح، ولم يوقظني إلّا حين أحسّ بحركة قريبة من باب الزنزانة. وحتّى لا يرتاب في أمره خرج من عندي وهو يتظاهر بسبّ النّساء ولعنهنَّ باصقًا على الأرض بقرف.

بعد قليل عاد وفي جيبه قطعة فطائر وعلبة لبن (ياغورت). ترجّاني أن أتناول فطوري وطمأنني بأنّ لا أحد سيؤذيني. لأنّه الوحيد الذي كلّف بالتّحقيق معي وبتعذيبي، ولن يقع لي مكروه ما دام معي. تبدّلت مشاعري نحوه وشكرتُ نعمة الإله على ذلك. وأصبحتُ أرى في المجنّد الأمريكي ملامح وديعة وشعرت بعطف وحنوٍّ الأمومة نحوه .

أخذتُ من يده قطعة الخبز وعلبة الياغورت لأنّني رأيت أنّه لا ضير في تناول فطوري رغم اِنعدام شهيّتي. عليّ أن أتغذّى ولو قليلًا علّني أتحمّل الآتي في ذلك المكان المقرف. وقفت محاولة التحرّك في مكاني وإجراء تمرين رياضي متمثّل في القفز الخفيف لأنّ ركبتي تيبّست وأصابها الخدر المؤلم .

ألمٌ شديد كاد يفتّت عظامي .ليومين تقريبًا وهي في الوضع نفسه إمّا جالسة القرفصاء أو مادة رجلي إلى الأمام في جلسة غير مريحة.

بيدين مرتعشتين فتح المجنّد علبة السّجائر وبوجه تتخطّفه أمواجُ الحيرة وبعينين متوتّرتين نظر في وجهي قائلًا:

-اِفتعلي البلاهة وتظاهري بالجنون دون مبالغة كحلٍّ لوضعك هذا. سيحتفظون بك أيّامًا ثم يطلقون سراحك. (و هو يبتسم) أنا سأُساعدك في إنجاز الخطّة بحثًا عن بصيص من نور، ما من حلٍّ غيره غير جنونك.

مرّت الأيّام رتيبة وقاسية بيني وبين المجنّد الأمريكي ريتشارد الذي أعطيته اِسمًا عربيًّا أناديه به خفية وهو رشاد. وفي أحد أيّام الأسبوع الثّالث عصفت الرّيح بشدّة في الخارج. أحسستُ بوحشةٍ ورعبٍ كبيرين. أمّا رشاد فقد غاب عني لأكثر من ثلاث ساعات ممّا زاد من قلقي عليه واعتملت في رأسي هواجس شتّى. أزعجني غيابُه وكاد اليأس يتسرّب إلى نفسي، كانت كلّ دقيقة تمرُّ تزيد من اِضطرابي ومن تَفَصُّدِ جسمي عرقًا. مشاعري كسيرة، عرجاء.. تفاصيل حياتي المليئة بالمعجزات وأحلامي المستحيلة والممكنة تُعَلَّقُ على حبل للغسيل أمامي، عيناي متّشحتان بالرّماد وأنا أنتظره .

مقهورة جدًّا وأنا أنتظر مصيري في هذا المكان المعتم الضّيق. بينما أجهل مصير رضيعي رفقة أمّ عاجزة عن أبسط أشيائها الخاصّة .بلادي تمزّقها الحروب والنّعرات العرقية والطائفية. طيف حبيبي الميّت لا يغيب عنّي أبدًا.

أتذكّر كلّ صبانا وشبابنا. أتذكّر معاناتنا من حبٍّ اِستحال، ثّم أثمر بعد أن صار الحبيب تحت الأرض. أخاف ألَّا أتمكّن من زيارة قبره مرّة أخرى وأنا لم أودّعه. أخاف أشياء كثيرة في هذا المكان القذر النّجس. كل ما يفوح من هذا المكان رائحة الخيانات الكثيرة كما تفوح القهوة في السّاحة الخضراء.

أتململُ في مكاني، أحاولُ أن أصيخ السّمع. أُجيلُ نظراتي بين الجدران الرّصاصية الأربعة، والباب الموصد، والسّقف الذي تتدلىّ منه خيوط العناكب المغلّفة بالغبار الأسود الفاحم. أنا في مكان منسيّ من العناية، لا أحد ينظفه، لا أحد يجدّد روائحه.

عشرون دقيقة أخرى تقريبًا وسمعت جلبة، وهرجًا، وضحكًا، وعربدة خارج الزنزانة. وكأنّ ريتشارد قد قرأ أفكاري وهواجسي فقَدِمَ إليَّ ومعه تحت معطفه حَلَّة صغيرة من الألومينيوم بها بعض"السباغيتي" البيضاء مخلوطة ببعض القشدة قائلًا:

-كُلي سريعًا، أعددتها لك بنفسي سرًّا. ما فيها لحم أو دجاج (ضاحكًا) هي حلال.

تناولت الحَلّة من يده . فتحتها وبقيت أنظر إليها. ففَهِمَ أنّه سها على الماء، وأتاني بقارورة وسطل صغير مبتسمًا مرّة أخرى:

– خذي، أنتم العرب لا تأكلون دون أن تغسلوا أياديكم. في الحقيقة أنا مبهور بنظافتكم.

–هههه..(وهي تغسل يديها):

–ههههه اِتّفقنا ألّا تقول أنتم قل نحن. أنت عربي أيضًا..لا تنسَ.

بلهجةٍ أسيفة:

–ههه.. نعم عربي غير شرعي.

–لكن قلبك طيّب رغم ما تعرَّضتَ له من تهجين وتدمير للمشاعر النّظيفة والنّقية فيك.

حدثته طويلًا وطويلًا عن حياتي، وعن الحبّ، وعن حبيبي ناظم. متذكّرة ذكرى لقائنا الأوّل وأنا لم أتعدّ الثّالثة عشرة سنة بعد وهو في العشرين من عمره. ذكرتُ أنّ ناظم كان شابًّا حنطيّ البشرة، فاحم الشّعر، واسع العينين، متوسّط القائمة، ساحرًا وجذابًا.كان يلبس بذلة رسمية، أنيقة، بلونين متجاورين. هما لون القهوة البنّية الدّكناء ولون حبّة البطاطا النّظيفة القشرة التي تمّ زرعها في رمال ذهبية اللّون. البذلة كانت بخطوط عمودية أمّا القميص تحتها فكان أسود اللّون.

أذهبُ بعيدًا بنظري ليصطدم بالحائط أمامي. أنتفضُ كعصفور جريح وأتنهّدُ.

تحوَّلتْ وجهةُ الحديث لتكون عن رضيعي وعن عملي السّابق مضيّفة طيران، وعن العواصم التي جلتها. حدّثته عن معاناة شعبي، عن حقيقة ديني وعن سماحته وعن دعوته للحبّ. لأمحو ما اِرتسم في ذهن بريتشارد من الصّور القاتمة التي تروّج عن الإسلام .

شرحتُ له كيف حاول أعداء هذا الدّين ربطه بالإرهاب. وبيّنتُ له كيف أنّ المخابرات العالمية هي صانعة الإرهاب. وأنّ أبناء وطني على اِختلافِ نِحلهم ومِللهم بُرَاءُ من ذلك. ذكرتُ أنّ أبناء شعبي ضحّية هذه المخابرات، وضحّية لعبة سياسية قذرة تُطبخ في كواليس البيت الأبيض وتَوابِعه.

وأنا أشوّح بإحدى راحتي لأطرُد ذبابة ملحّة في النَّيل من وجهي، كانت رنّة صوتي الخافت عميقة ودافئة وأنا أشكرُه:

-أنا شاكرةٌ لك.. لولاك ..لا أعرف كيف ستكون حياتي هنا. أنت تخاطر بنفسك من أجلي، شكرًا لك.

وقد لاحَظَ بريتشارد أنّ قُبح الحرب وقسوة الأيّام لم ينالا من جمال روحي كثيرًا ومن ملامح وجهي بعفويته الطّفولية قائلًا :

- أَنسيتِ أنّك أمّي أم المسألة لا تعنيك؟

وعيناي مغرورقتان بالدّموع:

-بلى بُنَي.. وكأنّ رحمي حَمَلَك لتسع وصدري أرضعك لحولين كاملين.. يعلم الله .ثمّ ألا تلاحظ أنّك دخلت قلبي؟

- سأخرِجُك من هنا. اليوم سيزور المعسكر مسؤول كبير في سلك المارينز وسأتحدّث معه بشأنك.

-ما بك؟ ألا تصدّقينني؟

وقد كنت فاغرة الفم جاحظة العينين:

-بل أصدّقك لكن خائفة عليك. لا أريدُ أن يصيبك مكروهٌ أو ينال منك هؤلاء الأوغاد. بُنَي.. أنت مفاجأة جميلة، مغازلة لطيفة من القدر.

مثل نِمَرٍ قليل الخبرة، متهوّر:

-لو كلّفني ذلك ما كلّفني، سأشتري حرّيتك ولو بحياتي.

دبّ الرُّعب في نفسي، أَسَرَتْني الحيرة وتملّكتني. لكن أومأت له مشجّعة وأنا أدعو له في سرّي بالنّجاح والتوفيق في مهمّته التي تتطلّب الكثير من الحذر والكثير من الجَلَد:

-ليكن الله معنا.. لا أريد أن ينالك مَكروه.

-اطمئنّي.

-ههه..أَلَم تَلْحظ جسارة العرب وشهامتهم. الطّبع يغلب التطبّع.

-سننتظر..ههههه.

الباب الثاني

في انتِظارِ ما وَعَدَ بِه بريتشارد (رشاد)..

كان الخوف يترنّح كسكّير في رأسي. ولكن عليَّ أن أثق ببريتشارد وبقُدرته على فعل ما سيُقدم عليه. ربّت على كتفيه وأنا أحضنه مُغمغمةً:

-الله معك ومعي بُنَي لِيَحفظك الخالق .أمّا إن لم أتمكّن من الخروج من هنا فأوصيك خيرًا بوالدتي وأخويك إن صحّت التّسمية .أرسلهما إلى إخوتي الدنمارك.. عِدْني.

وهو يحمل رأسي بين كفّيه متفحّصًا عينيَّ:

-ستخرجين بكلّ خير إن شاء الله. ومع ذلك وليطمئنّ قلبك أعِدك. لو كلّفني ذلك حياتي. سأفعلُ بكلّ سرور.

قبّلني من جبيني، ثمّ دَسَّ في يدي علبة بسكويت صغيرة وأربعة قوالب سكّر:

- خُذي قد تحتاجينهم باللّيل. قد لا أقدر على زيارتك هذا اليوم بنهاره وليله، عندي مهمّة بتكريت.

غادر بريتشارد الزنزانة في حين بقيت أصخي السّمع لوَقْعِ خُطواته الثّابتة والمتباعدة التي تجرُّ معها قلبي وراءها إلى أن اِبتعد.بعد ذلك تيمّمتُ وصلّيتُ صلاة الصّبح والظّهر.

أمضيت المساء في الدّعاء لرشاد (بريتشارد)، ولمن اِحترق قلبي لِفراقهم خارج الزنزانة كأمّي ورضيعي وابني بالتبنّي وجارنا بدر .

كان المساء ثقيلًا. كنتُ من حين لآخر أسمع عربدة وضحكًا. فأشعر وكأنّني بماخور أو حانة. فوضى عارمة لا تقطعها إلّا أصوات الانفجارات المتفرّقة في أنحاء المدينة. والمروّعة للأهالي والأطفال والنّساء والشيوخ الذين يُقتل الكثير منهم يوميًّا .

مع قرابة العاشرة ليلًا فُتِح بابُ الزنزانة لأجد نفسي أمام رجل أشيب، نحيل، كثّ اللّحية والشّعر. متجيّب العينين، أفطس الأنف، ببزّة ترابية اللّون، وسخة.

بيدين متّسختين أيضًا أخرج سندويتشًا من نوع همبرغر ملفوفًا في قطعة جريدة على ظهرها بصقة لأحدهم. مشهد مُقزّز، مُقرف تقلّبت له أمعائي في أحشائي وكادت تخرج من فمي .

خمّنت مقدار السّماجة التي يمكن أن يكون عليها الرّجل. اشتغلت غدتاي الكظريتان بقوّة ونشاط خوفًا من بطش هذا الرّجل الكريه. ورشاد..أملي الوحيد لم يكن موجودًا فقد أُرسل في مهمّةٍ عسكريةٍ إلى مدينة تكريت رفقة بقية عناصر الفيلق الخامس الذي كان ينتمي إليه .

بعينين خبيثتين توجّه إليَّ الرّجل الكريه بالكلام:

-أيّتها العاهرة..ماذا قلتِ؟ هه..تزورين زوجك المتوفّى بالمقبرة؟. هههههها.

من فرط غضبي أحسستُ وكأنّ قلبي توقّف عن النّبض. بلعتُ غيظي وأطرقت رأسي مُتجاهلة إهاناته. لم أكن أرغب في شيء أكثر من أن أحافظ على هدوئي لأضمن سلامتي كما أوصاني بريتشارد قبل أن يغادر.

على الفور وفي صلافةٍ وصفاقةٍ لكزني من ظهري بقبضة يدٍ لا تعرف الإتيكيت الاجتماعية ولا الرّحمة.

-هيا اِنهضي أيّتها الأتان..قومي.

كاد الأمل يتسرّب من قبضتي. لكنّني تذكّرت وصية بريتشارد فتظاهرت بالجنون. تكلّمت بتلعثم متعمّد وبألّا انتظام ولا ترابط في الأفكار. ولا تسلسل أو سلاسة في ملفوظ حروفي وكلماتي. مع حركات بلهاء لا تفعلها إلّا المجنونة.

صفعني عدّة صفعات رأيتُ بعد كلّ واحدة نجوم القيلولة كما يقولون. ومع ذلك حافظتُ على هدوئي وتكتيكي لكي أقنع بحالة جنوني. كنتُ أبكي وأغنّي في نفس اللّحظة وأضحك له في بلاهةٍ، فخرجَ يرغي ويزبد:

-مجنونة، معتوهة، بلد مجانين هذا. مَن أتى بهذه المجنونة؟ أَلَمْ يكن من الأجدر ألَّا نُهدر مال أمريكا لإطعام هؤلاء المشرّدين المجانين؟ هذه خيانة لأمريكا العظمى. حَالًا يجب أن تخرجوا هذه المجنونة من هنا. اِرموا بهذه الكلبة بعيدًا.

وما هي إلّا دقائق حتّى وجدتُ نفسي معصوبة العينين من جديد من طرف أحدهم وهو يقول:

- يجب أن نفعل هذا. لا ندري.. الاحتياط واجب.

ومثلما دخلت إلى الزّنزانة خرجت منها عبر بوّابات عديدة. رفعوني كما يُرفع الكيس المحشوّ بالفضلات. رموا بي في عربة للقمامة عرفتُها من روائحها الكريهة. تمّ إلقائي على مشارف المدينة كخرقة قماش بالية عَفِنَة. أحسستُ وكأنّني بثرة متقيّحة في جسدٍ قطٍّ هرم اِستغنى عنه أصحاب ذووا تَكَبُّر وصلف كبيرين.

ببعض رحمة لا أدري من أين حصل عليها الجنود الأمريكان وقبل أن يبتلعهم الظّلام، فكّوا وثاقي. بعد أن تيقَّنتُ من رحيلهم ومن خُلُوِّ المكان من المارّة فككتُ عصابة عيني. نفضتُ الرّمل العالق بثوبي ومشيتُ تحت المطر المنهمر بغزارة.

كان ظلام اللّيل قد حلَّ وكانت الطّريق مظلمة وصامتة مع نور شحيح منبعث من بعض الشّرفات والنّوافذ. وقفت على تدهور البنية التحتية، وعلى الخراب الذي أصبح عليه وطني، ففاض بي إحساس أسيف حزين وحفّ بي الشّقاء.

وأنا أقتربُ من بيتي، ظهرت نُدف من الثّلج، وبدأ القصف اللّيلي المعتاد. مددتُ يدي اليمنى إلى ندف الثّلج أجمعها كطفلةٍ صغيرة تلعبُ في ساحة المدرسة. لأطبق كفّي على قطعة لحم بشري متطايرة لا أعرف لأيّ جسدٍ هي.

اِرتعبتُ وبكيتُ كثيرًا قبل أن أصلّي عليها صلاة الجنازة وأحفر لها حفرة صغيرة بعمق عشرين سنتمتر وأدفنها في الأرض. وأنا أعلمُ مُسبقًا أنّ الكلاب السّائبة والقطط المتشرّدة لن تتركها في سلامٍ.

واصلتُ سيري الحثيث. أمام بيتي الصّغير وجدتُ والدتي المسكينة جالسة على عتبته وهي تنتحبُ. هدّأتُ من روعها وأنا أقبّلها من خدّيها وجبينها ورأسها ويديها لأشعرها بالأمان.

في الدّاخل كان بدر يُهدهد وليدي وحالما رآني أصابه الذّهول. بعد قرابة الدّقيقة تحرّر بدر من صدمته وحدَّجني بنظرات متشكّكة. اضطررتُ

أن أقصَّ عليه حكايتي مع ناظم وحكاية اِبني الذي كان يجهل وجوده قبل اختفائي المفاجئ. قصصتُ عليه حكايتي مع المجنّد الأمريكي بريتشارد الذي أسميتُه رشاد. وبدر في ذهوله يتخبّط.

أمّا زيدون اِبني بالتبنّي فقد انهمك بجمع الغسيل من الحبل الذي كان في الشّرفة. في حضني كان الطّفل الصّغير يناغيني بشغف..قبّلته في كلّ جزء من جسمه وأنا أبكي بحرقة، كحال الكثيرات من بنات وطني.

من جديدٍ وبسرعة أَخَذَ بدر الرّضيع الذي غفا في سعادة وأمان كبيرين شعر بهما لرجوعي. أنام بدر الصّغير في مهدِه. بعد ذلك قادني إلى جانب النّار لأجفّف نفسي وهو يلفّني بشال أسود وجده على ظهر أريكتي القديمة الطّراز. تضوّعت برائحة صمغ اللّبان والنّد والمسك الموجودِين في بعض البخور الذي رمى به بَدر في الموقد. ملأت روحي ومنخري وملابسي بالرّائحة الزّكية في محاولة لنسيان تلك الرّوائح الكريهة التي عرفتُها في المعتقل.

غابَ بدر بعض اللّحظات، غرف فيها بعض الحليب من سطل صغير كان لحلوى شامية سابقًا موجود بالمطبخ. أتى بالكأس ساخنة واضعًا إيّاه بين يدي الاثنتين وهو يضغط عليهما بحنان:

– اِشربي...دفّئي نفسك.

شكرته وأنا مُنصرفة بنظري عنه إلى لوحتي الجدارية فحدَّجتني الأخرى بنظرة فاحصة. فما كان مني إلاّ أن أثور ثائرتي وأصرخ في المرأة الرّسم:

-لا أظنّ أنّك واصلت ثرثرتك المقيتة مع كلّ من دخل هذا البيت .

والتفتُّ إلى بدر معتذرة بلطف:

- لا أقصدك طبعًا. أنت كأخي. شكرًا .. شكرًا ..لولاك.. لا أدري ماذا كان سيحلّ بعائلتي.

في تشويش عميق للأفكار، وتلاطُم جارف لأمواج أحاسيسي، رميتُ بنفسي على الأريكة فطقطقت تحتي، أغمضت عيني مسترجعة أنفاسي المتقطّعة وأنا أزفر ملء صدري.

اِعتذرَ بَدر ليرجع إلى بيته ويتركني لأرتاح من الارهاق الكبير الذي ولا شكّ قد اِستوطن مفاصلي. رغم إصراري عليه بالبقاء والنّوم بالغرفة الثّانية التي كانت لأبي قبل أن يهاجر إلى الدنمارك رفض البقاء.

أدار بَدر ظهره وهو يلوّح لي من الخلف بيده المرفوعة أعلى والحزن يثقل خطواته. بحزن يثقل حِمله على الجبال الرّواسي أيضًا لاحقته حتى غاب وأنا أُهمهم:

-هذا هو اِبن العراق العظيم. بَدر وأمثاله هم أبناء العراق. عراق التّسامح والحبّ ولَمّ الشّمل.

بعد أن نامَ رضيعي سخّنت الماء على موقد الحطب لأنّ قارورة الغاز قد نفدت. في مغطس الاستحمام وبسعادة كبيرة غصتُ بين فقاقيع الصّابون. مستمتعة بملمس جلدي الرّطب الحريري. كان جلدي قد اخْشَوشِنَ ككيس من الخيش في تلك الزنزانة الضيّقة كقبر.

تقدّمت من النّافذة تأمّلت الشّارع تحت نافذة قاعة الاستقبال وسافرتُ بنظراتي إلى ماضٍ ليس ببعيد. تذكّرتُ عناقي الحميم مع ناظم. ناظم الذي اِعتقل مَحَبّتَهُ لي في قفصِ صَدْرِهِ لأكثر من ربع قرن. كنتُ أُعانقه كحبيبةٍ ولهى وأقول له:

- يا صديقي ويا أخي.

يحضنني وأحضنه. كانت في كلّ مرّة شفاهنا تكاد تتلامس وبِمَسٍ شيطاني تتراجع الشّفاهُ ويذهب كلّ منّا إلى شأنٍ يهمّه. يتكرّر الأمر وتبقى الشّفاه متيبّسة والرّوح عطشى لقُبلة واحدة. قُبلة واحدة تُطفِئُ لهيب الشّوق وتباريح الوجد المكبوت بين الاثنين. أووووف..أووف. حُبّنا كان لُغزًا لم نقدر على حلّ شفرته. على الرّغم من كلّ الحبّ الذي أكنّه له كنت قاسية جدًّا

وجبانة جدًّا.حَرمتُه وحرمت نفسي سعادة حبّ كبير. كانت حياتنا ستختلف جدًّا وسنسعد جدًّا لو عشناها على اِنسيابيتها وعفويتها.

كنّا نجلس متقابلين في المقهى كغريبين. جسدان متلهّفان لبعضهما البعض تفصلهما منضدة. وعلى اليمين في إحدى الزاويتين المقابلتين يجلس عصفوران متلاصقان. يقدحان الوجد ويبلّلان الشّفاه برحيق الحبّ.

لا أعلم..إن كنّا سنفعل مثلهما..لو..لو كان اِعترافنا بأجسادنا على قدر اِعترافنا بالحبّ .ههه..حتى الحبّ خنقناه.لم نعترف به. يبدو أنّي وناظم ضحيّة تربية صارمة وجدّية. تربية تقتل حتّى الرّغبة في الاعتراف بالمشاعر الجميلة التي نكنّها للطّرف الآخر. الآن أُدرك أنَ مجتمعًا يربّى نشأه على اِحتقار مشاعر الحبّ ونُكرانها هو مجتمع يزرع ألغامًا لتفجير أسفل أساساته. مجتمع مشلول الإرادة، مهزوم.

بتأثير التّعب الشّديد نمتُ ليلتها كما لم أنم قط. مع الفجر اِستيقظتُ على صوت القصف المعتاد. القصف الذي أصبح أكثر اِنتظامًا من أذان الفجر. خطوت خطوات متثاقلة، نحو الحمّام ثم نحو المطبخ. أعددتُ رضعة لابني وضعتها بين يديه الصّغيرتين. وجلست أرتشف قهوة على حافّة السّرير؛ أسابق الهواجس الرّاكضة بعنف في مخيّلتي. أنا قلقة جدًّا على أمّي ورضيعي.

قلقة جدًّا على زيدون اِبني بالتّبني الذي يَشْقَى كثيرًا في ورشة الدرّاجات النّارية وهو الطّفل الذي كان يجب أن يكون بالمدرسة كأيّ طفل في العالم.

أنا قلقة جدًّا على بريتشارد. لا أعرف ماذا سيكون مصيره بعد أن خبرت سليقَتَه. وبعد أن أدركتُ أنّه لن يحتمل البقاء كمجنّد في الجيش الأمريكي أكثر ممّا اِحتمل. آه ..رشاد.. عليَّ أن أحمل همَّك من الآن. أنت اِبني من لحمي ودمي. أنت قطعة منّي، لا يهم إن لم يحملك رحمي ولم أُرضعك من حليبي. لا يهم، أنت اِبني، حماك الله بُني ونَصَرك على أعدائك.

مع شروق الشّمس مَشَّطتُ شعري وتعطّرتُ وتحوّلتُ إلى قاعة الجلوس في حين رجع طفلي إلى الغطّ في نوم عميق. تناولتُ جهاز التّحكّم التّلفازي وتجوّلت في المحطّات الفضائية فإذا بخبر واحد تشترك وتتسابق في نقله ويقول فحواه:

-مجنّدة أمريكية تَسْحَلُ معتقلًا في سجن أبي غريب وهو عارٍ وعلى رأسه كيس أسود. وتأخذ صورًا لها أمام هرم بشري من المساجين العراة. وتستمتع بإجبارهم على ممارسة الشّذوذ الجنسيّ أمامها.

صرختُ بسخط في الصّمت المطبق حولي، حتّى كدت أوقظ اِبني في غرفة النّوم المجاورة لغرفة الجلوس:

-هذه جرائم أمريكا باسم الديمقراطية الغازية على دبّابة.

أجابني صوتٌ ألفتُه جدًّا :

-آه ..لم يتغيّر شيء. العالمُ قبيح..الفظاعات البشرية في كلّ زمان ومكان.

رفعتُ رأسي إلى محدّثتي فإذا بها صديقتي المرأة المثبّتة في اللّوحة الجدارية. صرختُ بها:

-وأنتِ صالحة لكلّ زمان ومكان أيضًا؟ أليس كذلك؟ ما الذي تفهمينه في هذا؟

دون أن تهتمّ لثورتي قالت المرأة الرّسم:

-جُسور العودة أصبحت مستحيلة بالنّسبة لك. أنتِ وناظم كانت لكما قضية واحدة وهي الوطن. كلّ الوطن العربي من محيطه إلى خليجه، من مائه إلى مائه. رَحَلَ ناظم للأسف. لكن عليك إكمال الرّسالة. العراق يحتاج إليك. كلّ الوطن العربي يحتاج إليك.

-لأول مرّة لا تقرئين من كتابك الذي بين يديك. رواية "امرأة تعشق جثّة".

-فقرة قصيرة أُكْمِلُها لكِ وأُنهي الرّواية ولو أنّني لستُ بمزاج جيّد.

- تفضّلي أكمليها يا سيّدتي حتّى أضمن صمتَك الأبديّ.

-ولماذا صمتي الأبديّ؟

-لأنّك ستنهين رسالتك أيضًا. أقصد قراءة كامل الرّواية.

الباب الثالث

المرأةُ الرّسم تُنهي قراءةَ كِتابِهَا

(امرأةٌ تعشقُ جثّة).

بغيظٍ ظاهرٍ في تقاطيع وجهها قرأت المرأة الرّسم:

ذلك الفجر سمعت صبريانا طَرَقَات خفيفةً أنيقةً على بابها. نظرتْ من العين السّحرية لترى بريتشارد اِبنها البيولوجي خلفه. كاد قلبُها يقفز من الخفقان. فتحت الباب والسّرور يعلو وجهها. احتضنته وقبّلته وهي تقوده حيث يرقد اِبنها الرّضيع قائلة:

-انظر وجهه الملائكي.لم تدنّسه الحضارة الشّرسة بعد. إنّه أخوك. الآن أصبحت لك عائلة بُنَي. لستَ وَحْدَك.

-أمّي..أنا سعيد بهذه الكلمة (بُني)، ليس لديَّ وقت. يجب أن تغادروا العراق إلى الدانمارك سألتحق بكم بعد أيّام. لي خُطّة لا أظنّها ستفشل لالتحاقِ بكما. غدًا ستأتي إلى هنا سيّارة كلّفتها بأن تُقِلَّكم إلى الحدود الكويتية. هناك ستجدين أحد أبناء عمومتي بانتظارك. ترتاحين ليومين بالكويت ليس أكثر. ثم تهاجرين إلى الدنمارك ليجتمع شمل العائلة.

-وأتركُ العراق؟

-لن تتركي العراق. من هناك ستفيدين العراق أكثر ممّا تفيدينه هنا. لا تنسي غدًا صباحًا.

-وناظم كيف أتركُه؟

-ناظم بين أحضان تراب العراق، لا تخافِي عليه لن تكوني أكثر محبّة عليه منه.

-الوقت لا يتّسع لتوديعه، ودّعيه مِن هنا.

-مِن هنا؟

-نعم من هنا. حسب ما قرأتُ عن دينكم فإنّ الأرواح بمجرّد مغادرتها الأجساد تذهب إلى البرزخ. ومن هناك يمكنها أن ترانا في أيّ مكان نحن فيه. ويمكنك أن تتواصلي مع ناظم حتّى وأنت في الدنمارك.

اِقتنعت صبريانا بكلامه وسَرَّها مِقدار تعمُقه في دينها هامسة إليه:

-بُني.. أنتَ رغم كل شيء بذرة صالحة. أراكَ ترغب في معرفة دين أجدادك؟

-نعم نعم.. المسؤولية تبقى لك في هذا عندما نلتقي في الدنمارك.

اِحتضنها بقوّة وقبّل جدّته وزيدون أخاه، وداعب أويس، ثمّ غادر مسرعًا بينما بقت صبريانا تتخبّط في هواجسها.

صمتت المرأة الرّسم وقد اقترب الهزيع الأخير من اللّيل. أوى كلّ منّا إلى فِراشه.

نامَ الجميع تلك اللّيلة على سرير من قلقٍ وكوابيس هواجس. حتّى رضيعي أويس كان يبكي طول اللّيل.

في الصّباح نهضت مبكّرًا. جهزتُ قهوتي وجلستُ بقاعة الجلوس كعادتي أترشّفها.

قبل أن يغادر زيدون إلى مكان عمله؛ جهّزت له شطيرة بيض

وطماطم طازجة ومعجون الجزر المهروس والمخلوط بالفلفل الطازج المرحيّ والثّوم وقطعة دجاج مشويّ. المسكين يتعب كثيرًا وعليه أن يتغذّى جيّدًا على الأقل.

نظّفتُ المطبخ ودخلت إلى قاعة الجلوس أرتّبها. وأنا أنفض الغبار عن الوسائد والأرائك، سمعت صوت المرأة الرّسم.

كانت تقرأ وتكمل آخر صفحات كتابها وكان عليَّ أن أُصيخ السّمع:

-بعد شهر ..كنت رفقة وليدي أتجوّل في حدائق تيفولي بكوبنهاجن. وأحكي له حكاية البطّة القبيحة "لهانس كريستيان أندرسون " رغم علمي أنّه لن يفقه شيئًا منها. لكنّني كنتُ أسلّي نفسي في أيّام هذا البلد القصيرة جدًّا في الشّتاء وليلها الصّاخب جدًّا.

وأنا أقرأ لوليدي قصّة البطّة القبيحة.. صوت خلفي صدح بلهفة:

-أُوُهْ.. رومانسية كبيرة هذه لأمّ غاية في المسؤولية والحنان. هنيئًا لكَ عزيزي الصّغير أويس..بأمٍّ مثلها.

بلهفة أشدّ عانقتُه:

- مَن؟ مَن؟ بريتشارد؟

- نعم يا أمّي .بريتشارد اِنتهى أمرُه. أنا رشاد .رشاد..ليس غير.

- كيف اِستطعتَ الخروج من هناك.من قبضة المعسكر وقد اِنتبهت إلى ضمّادات على كفّه اليمنى.

-بُنَي ماذا حلَّ بيدِكَ؟

-لولم أقطع إصبع الشّهادة كما تسمّونه لما كنت معك وبأمان أيضًا.

-كيف؟

-لم يعد لي نفع بعد أن قُطِعت اِصبعي .عادوا بي إلى أمريكا ومن هناك سرّحوني من الجندية. فاخترت أن أعيش بينكم هنا في الدنمارك إلى حين عودتنا جميعًا إلى العراق.

-بُني (وأنا أقبّله والدّموع تنهمر على خدّي). لكن رشاد أراك قد أحضرت جمال معك. جمال ما الذي أتى بك؟ اتركني بسلام أيّها الرّجل. يكفي ما فعلته هناك.

-أمّي جمال له كلام يريد أن يقوله لك بنفسه.

-صبريانا..كيف حالك؟ اشتقت إليك؟ أنا عرفت كامل قصّتك. أنت كائن خيالي. هههه اعذريني ما حصل معك أغرب من الخيال. ههه..صدّقت كلّ القصّة.أنا أحبُّك منذ صغري. منذ سنّ المراهقة وأنت تعرفين. ولكنّك كنتِ دائمًا تفضّلين ناظم عليَّ. ناظم مات وشبع موتًا. عيشي حياتك. ارجعي إلى واقعِك. آن الأوان لنكوّن عائلة. لنتزوّج..أنا جئتُ إلى هذا البلد من أجلك. سأتحمّلُ الغربة من أجلك.

-جمال..تعرف رأيي في مسألة الزّواج..هذه.

-أميّ افرحي..أرجوك. نريد لك الفرح. كفاكِ أحزانًا. ناظم سيبقى في قلبك. ولكن عيشي حياتَك ما زلتِ في مقتبل العمر. (قال رشاد)

وأعقبه زيدون:

أمّي أريدك أحلى عروس. هيّا أمّي..يحق لك الفرح. انسي السّياسة وهمومها.

-كيف أنسى؟ ترامب أجهز على الحلم العربي باستقلال فلسطين. لمّا أعلن أنّ القدس عاصمة لإسرائيل، ونَقَلَ رسميًّا سفارة أمريكا للقدس. وما رأيكما بتحرّكات عرّاب ما يسمّى بالرّبيع العربي برنار هنري ليفي اليهودي الفرنسي المتعصّب لإسرائيل في كلّ من تونس وليبيا ومصر؟ وما شأن سفير أمريكا باحتجاجات أبناء الحوض المنجمي بالجنوب التونسي من المعطّلين عن العمل؟ ليقوم بجولة في مدينة قفصة ويجتمع بمكوّنات المجتمع المدني؟ يا الله، احفظ أهل تونس مِن القادم.

-أمّي..أمّيييييي..لا سياسة..ممنوووووع...(رشاد).

-طيّب..ههههه.

بعد عودتنا إلى مسكننا بأحد أحياء كوبنهاغن والاحتفاء بانضمام رشاد (بريتشارد) وجمال إلى عائلتي. أحسستُ بالتّعب فأويتُ إلى فِراشي في انتظار يوم طويل للشّروع بإعداد مراسم العُرس.

أغلقتْ ساكنةُ اللّوحة (المرأة الرّسم)كتابها. وضعته على المنضدة أمامها رفعت عينيها الجميلتين، نظرت إليَّ بزهو قائلة:

– يصرّ المرءُ على قتل الماضي لكن يبقى حيًّا. يعيش هُلاميًّا في المكان والزّمان. الإنسان مجرّد حلم في هذه الحياة..الآن فقط أكملت قراءة روايتي.

وأنا أتثاءبُ:

–الحمد لله..كثيرًا والله.منذ القرن الثّامن عشر يا لَصبرك ويا لَصبر أوري فراغونار الذي رسمك.

روايتي أعني نسختي التي أملكها من الرّواية، لا أدري كيف تُضاف إليها صفحاتٌ جديدة في كلّ إضافة زمنية جديدة إلى جعبة الوجود الكوني؟ صبريانا.. معك فقط اكتملت الرّواية.

قلتُ:

–تمنيتُ أن تختلف نهاية الرّواية عن نهاية قصّتي مع ناظم أو عن ما ظننتها قصّتي مع ناظم..شكرًا لك.

نمتُ وأنا لا أعلمُ ما سيحلّ باللّوحة بعد اكتمال الرّواية وسرد قصّة صبريانا الجدّة أو صبريانا الأصل.

الأسئلة قضَّت مضجعي:

-مَن أكون؟ وماذا عساي أن أفعل؟ وقد انتهت الرّواية؟ قالوا لي بأنّي مجرد محمل لأخرى من زمن مضى، طيّب أُكرّر مَن أنا؟ هل أنا فعلًا صبريانا الحفيدة؟ فهمت أنّي مُستنسخة لكن أين شخصيّتي أنا؟ أين اِستقلاليَتي؟ أين أنا مِن حكاية ناظم وصبريانا التي بالرّواية؟ أين عصري وزماني مِن هيمنة حيثيات وتفاصيل القرن الثّامن عشر؟ لماذا أرّخت للحكاية لوحةٌ رسمَها الفنّان الفرنسي فراغونار؟ أليس الأجدر أن نجدَ تفاصيلها في أثر فنّي أو ثقافي عربي بدلًا من الالتجاء إلى الغرب لتفسير ما هو نابع من ذواتنا وفَهْمِه؟

بعد جهدٍ جهيد وتلك الأسئلة التي تنهال عليَّ كمشرط نمتُ نومًا عميقًا.

من مطبخ صغير تقليدي في بيت كبير وفسيح، كان صوت أمُّ كلثوم يصدح من جهاز راديو صغير، مثبّت على رفٍّ فوق الفرن بقليل:

- أغدًا ألقاك...(تعيش الستّ كما يقول المصريون).

كانت السيّدة إلهام وهي تقطّع الخضراوات تنادي:

-راوية يا راوية، اتركي النّافذة أنت واقفة هناك لأكثر من عشر دقائق. تعالي ساعديني في إعداد العشاء. أبوك وإخوتك سيعودون بعد ساعة. راوية..راوية..هل تسمعينني؟ هل عُدْتِ لعادتك؟ هل عُدتِ لمرضك ذاك؟ هل عُدتِ لأحلام اليقظة؟

انتفضتْ راوية وهي تكلّم أمَّها وتكُلّم نفسها في آنٍ :

-ههه..أحلامُ يقظة؟ لا، مستحيل! كيف يمكن؟ زيدون؟ ابني أويس؟ بريتشارد؟ ناظم؟ جمال؟ اعتقالي في المعتقل الأمريكي داخل العراق؟ هجرتنا إلى الدنمارك؟

بسملتِ الأمُّ وضربتها على أحد خدّيها جزعة مُردِّدة:

- اِبنتي..أفيقي. إن سمعك أحدهم سيظنُّك مجنونة.

-لا يا أمّي، ليس ما عِشتُ أحلامًا.

الأمّ جَزِعَةً:

أحلامُ يقظة يا بُنيّتي، وكلُّ ما رويتِه ليس له أيّة صحّة في حياتِك ومن الواقع.

في الغدِ أخذتِ الأمُّ اِبنتَها إلى المختصِّ النّفسي فأشار عليها بأن تشجّعها

على الكتابة. حسب الطبيب، راوية مُصابةً بمرض مشاهير الأدب العالمي المشخّص في أحلام اليقظة. الأمُّ لم تفقه شيئًا ممّا قاله الطّبيب، فسألت عن الدّواء الذي يمكن أن يخلّص اِبنتها من هذه الهلوسات. فابنتها يمكنها أن تعيش في عشر دقائق..قصّة حياة إنسانٍ تدومُ خمسين سنة.

دون أن يُجيبها الطّبيب التفت إلى الشابّة الآتية إليه مُرغمة:

-ما بكِ أيُّ مكروه. اكتبي.. اكتبي رواية. لكن لا تسميها "اِمرأة تعشق جثّة" بل صبريانا لأنّ العنوان الأوّل ثقيل على القارئ..وسأحضر حفل توقيعها وأريدُك أن تستعدّي له كما فعلتِ في أحلامِك. هيّا.. أنتِ واعيةٌ بموهبتك لأنّك حلمت بكتابة رواية وداخل الحلم بالكتابة عِشتِ حلم القصّة المشوّقة التي رويتها لي...اِتفقنا؟

وهي تبتسمُ:

اِتفقنا.. صبريانا..ههه " أو صبري -أنا".. اِسم جميل. لِمَ لا؟!